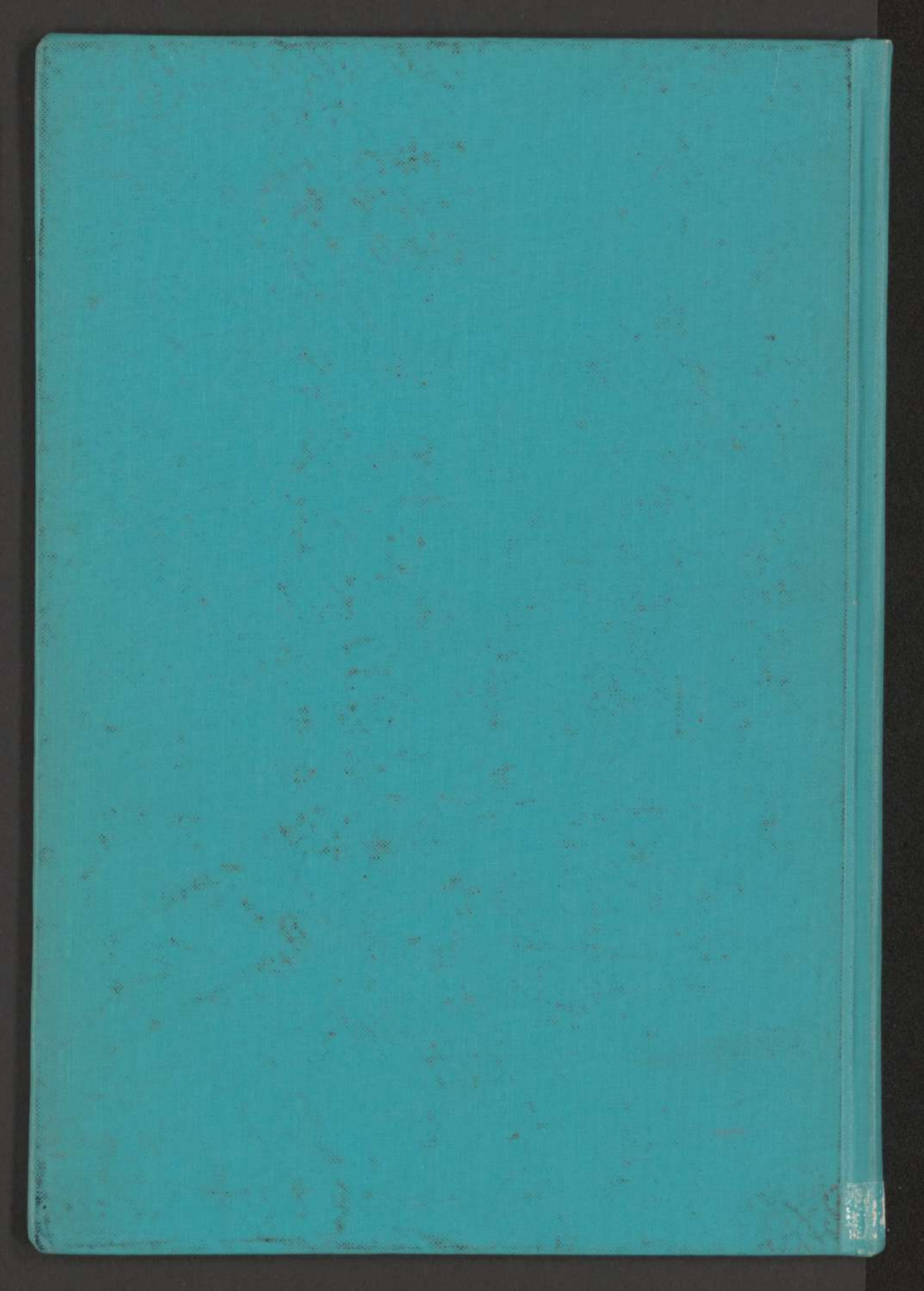
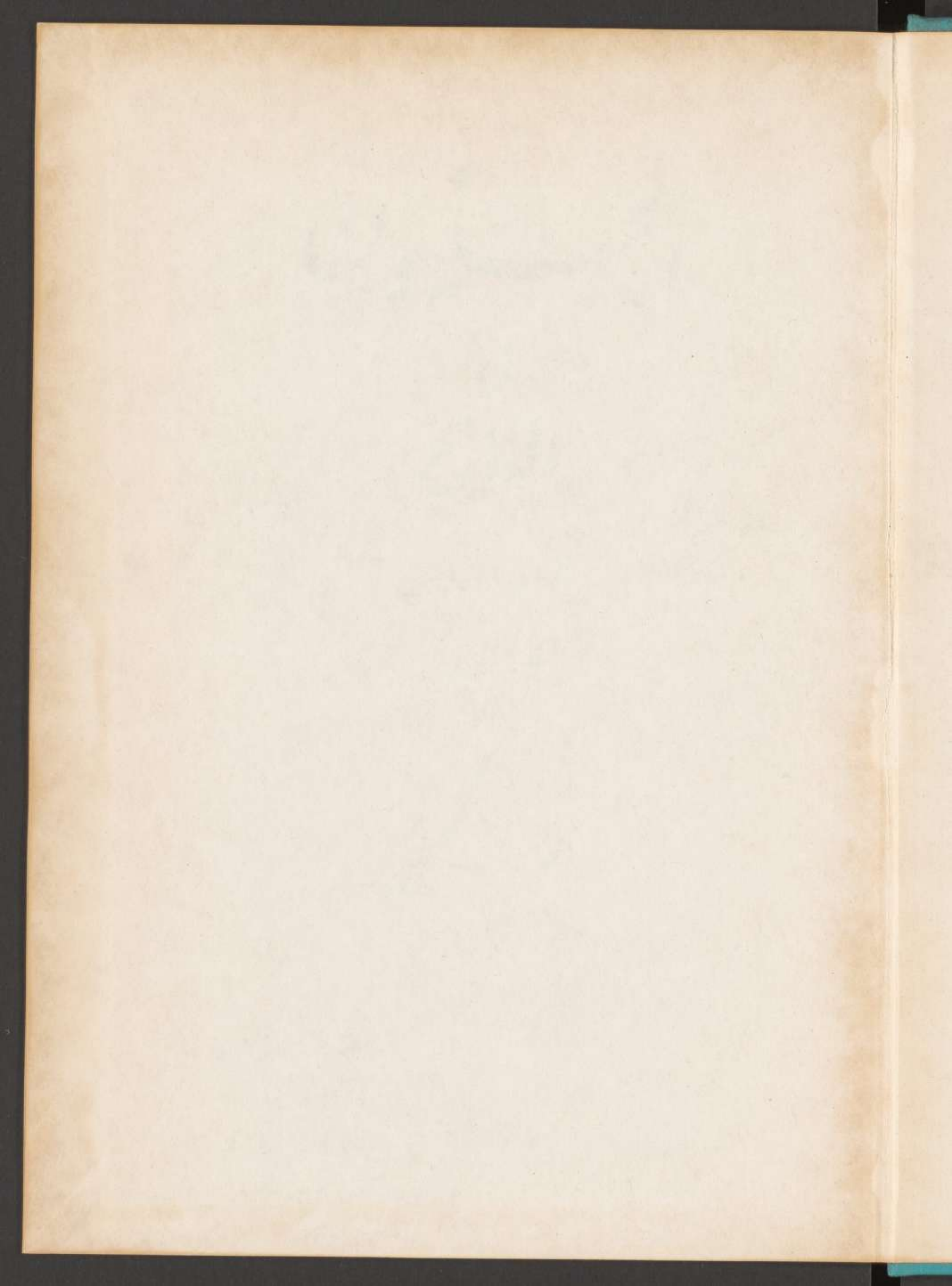
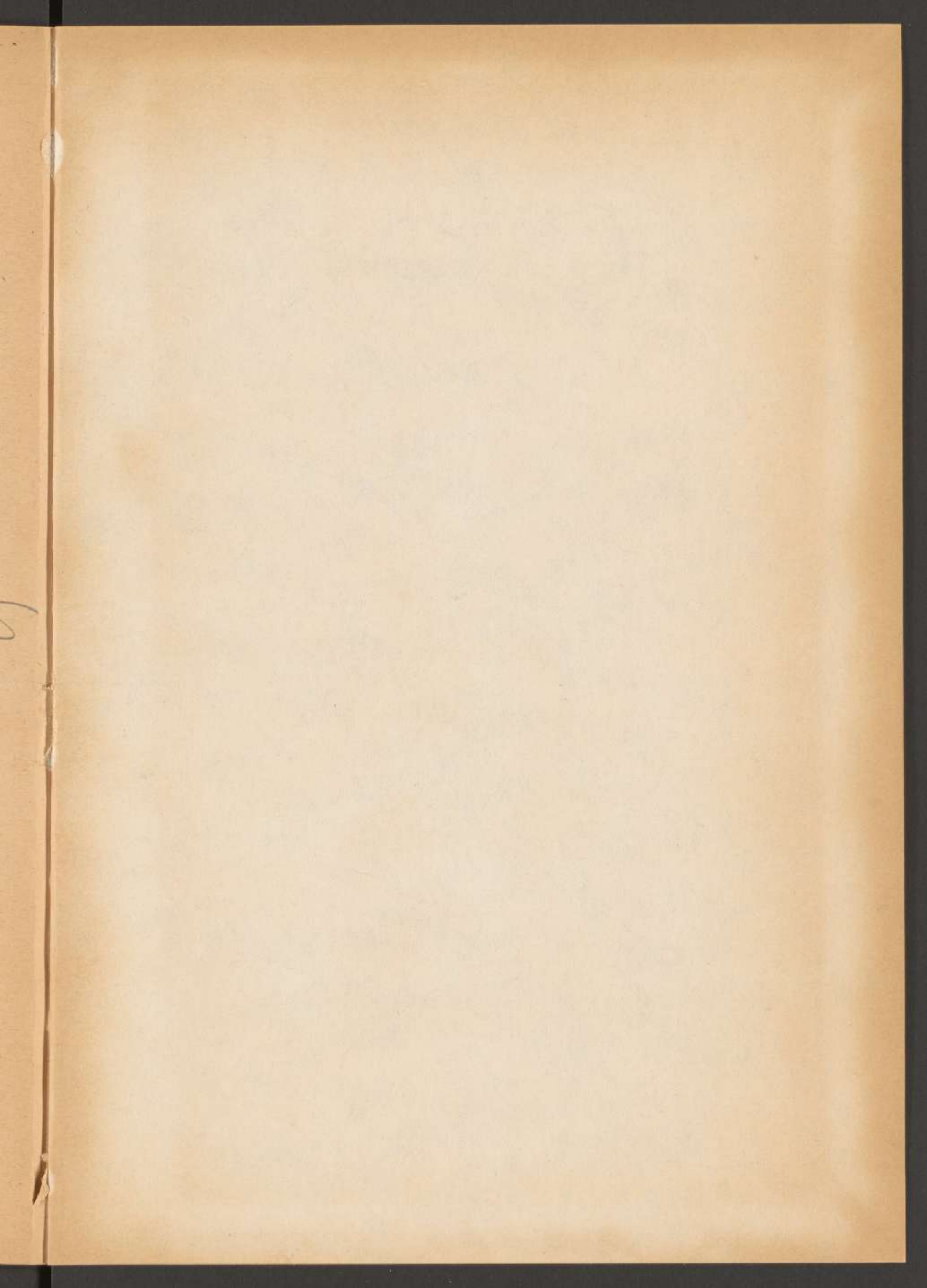






الحسنيون في التاريخ

القسم السياسي

الجزء الأول

تأليف

محمد الساعدي

مطبعة النجف «في النجف»

١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م

الأهداء

الى : من تجمع لديه فخر الحسن وإباء الحسين عليهما السلام .

الى : فرع تلك الشجرة الطيبة التي قال الله تعالى عنها : « أصلها ثابت وفرعها في السماء » .

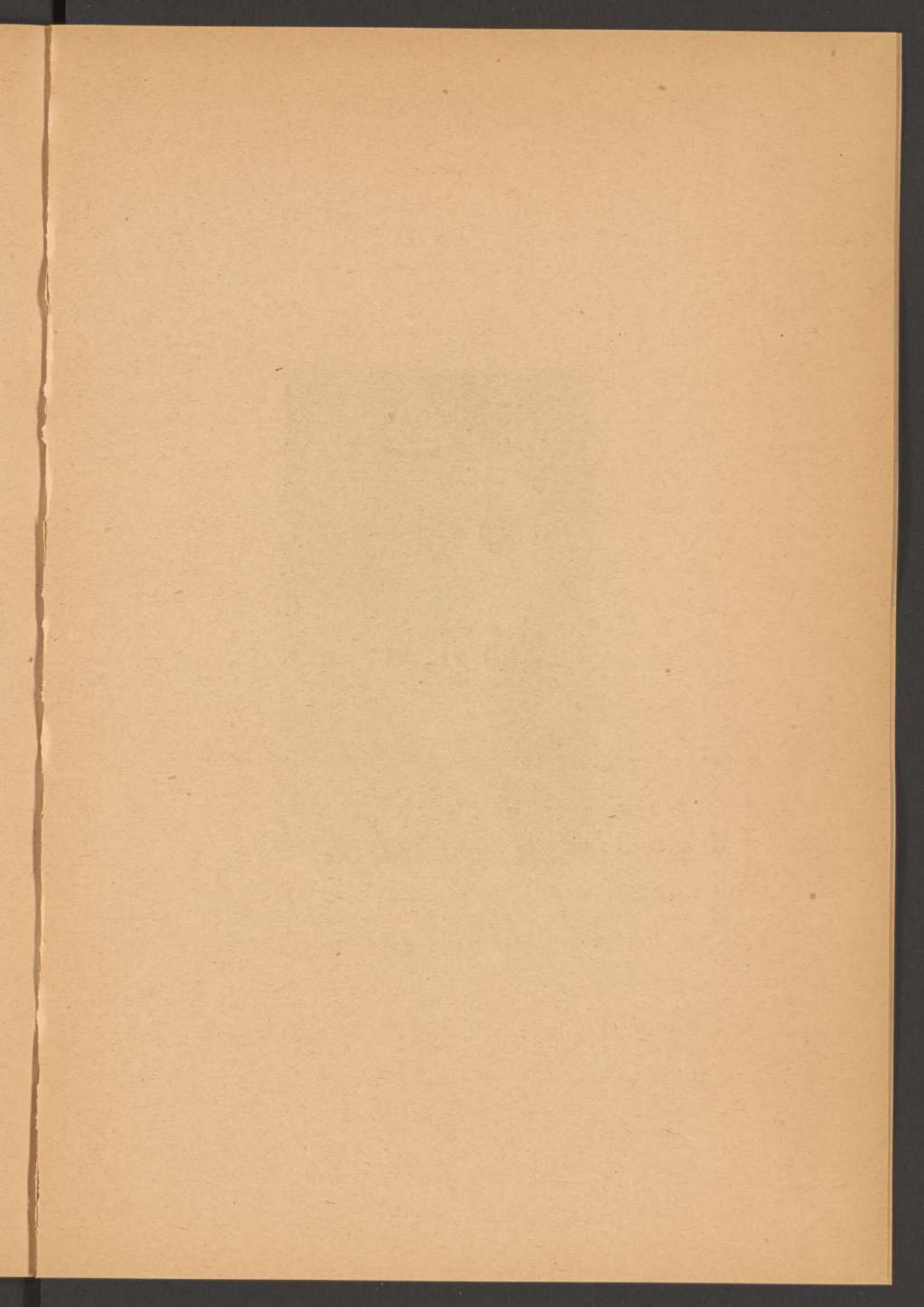
الى : نموذج الانسانية الحي وأمل العروبة وملاذها .

اليك يا مليك العرب والاسلام ويازعيم الحسنيين أقدّم هذا المجهود عن سيرة آبائك الكرام المليئة بالمآثر والمفاخر ، وأملي وطيد بأنها ستحظى بالقبول عند سيدي صاحب الجلالة الملك فيصل الثاني المفدى أدامه الله عزاً وفخراً للعرب والاسلام .



أمل العروبة الباسم صاحب الجلالة الملك فيصل الثاني المعظم

ملك العراق المحبوب



المقدمة

أو

فكرة اخراج الكتاب

إنها مصادفة حسنة يا قارئي الكريم - وكم للمصادفات من حسنات - تلك هي التي سببت أن أطلع عليك بهذا الكتاب الذي بين يديك وما يتلوه من الأجزاء إن شاء الله - نعم : إنها مصادفة حسنة التي جمعتني بالصديق العلامـــة الشيخ أسد حيدر في الطريق وتناولنا حديث الكتب والكتاب وانجر الحديث الى موضوع كنت منذ زمن بعيد أجد البحث عنه هو « البويهيون فى التاريخ » . وسألني عن مدى الشوط الذي قطعته فيه والحد الذي انتهيت اليه وترسلت معه فى الحديث مبيّناً له الصعوبات التي تعترض طريقي . ثم انتقلنا الى الحديث عن كتابه « الامام الصادق (ع) والمذاهب الأربعة » فأنحيت عليه باللائمة لعدم اهتمامه واغتنامه

سنوح الفرص للمبادرة بطبعه ، فمزا ذلك الى الضائقة المادية التي يعانيها . وقبل أن يأتي على بقية الأسباب التي تعوقه عن طبع بعض أجزاء مؤلفـــه التفت إلي قائلا :

لدي إقتراح أظنه جديراً بالاصغاء والاهتمام وقد تجد فيه ضالتك المنشودة . قلت : ما هو ؟ قال : أقترح عليك أن تبحث عن ابني عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط (ع) وهما محمد ذي النفس الزكية ، وابراهيم أحمر العينين -(رض) لأنهما لم يظفرا بحصة وافرة تتناسب وما لهما من الأثر الكبير فى أدوار التاريخ الاسلامي فى مؤلفات الكتاب المحدثين المستفيضة بكثير من الوقائع التى قـــد تكون تافهة وبسيطة ، اذا راعينا حاجة النشىء ، ومتطلبات الباحثين ، والى هذا الحد من الحديث افترقنا - ، ومن ذلك الوقت أخذت أقلب الأمر ظهراً لبطن وأفكر في تحصيل مصادر البحث وقصدت سوق الوراقين صباح يوم الجمعة - موسم السوق المعتاد - فالتقيت بفضيلة البحاثة الشيخ حمود الساعدي الأستاذ في المدارس الجعفرية - هناك ، فسألني عن الموضوع الأول « البويهيون فى التاريخ » وهل بلغ مرحلة الطبع او هو بعـــد لم يزل محتجزاً في رفوف المكتبة شأنه شأن غيره من نتاج غالبية شباب هـــذا البلد الذي لا يعوزه سوى التشجيع المادي - ذلك العامل الفعال والعصب الحساس - لابراز طاقات الشباب الفكرية وقابلياته العلمية وامكانياته الأدبيه .

ونظراً لثقتي الكبيرة في الأستاذ الشيخ حمود ولما أعهده فيه من الخبرة الفائقة ، والدراية النادرة ، وما طبع عليه من حب الخير للجميع ، وبذل النصح والمساعدة لـكل أحد فقد دفعتني كل هـذه العوامل لأن اعرض عليه وأطلعه على ما دار بيني وبين الأستاذ حيدر والتردد الذي يساورني نتيجة لذلك الاقتراح الوجيه . وما أرى فيه من التعقيد والصعوبة لأنه موضوع شائك لا يعني الكتابة عن ابني

عبدالله المحض محمد وابراهيم (رض) فحسب بل لا بد من استعراض عهدين خطيرين من عهود الامبراطورية الاسلامية وموقفها حيال تلك التطورات الهامة التى نجمت عن دك عرش دولة ، وقيام دولة أخرى . وبالفعل فقد أوقفته على كل ذلك كما أوضحت له عن بقية الاسباب التى أتردد من أجلها .

وفوراً أجاب بأن رأي الأستاذ حيدر - حسنٌ جداً - بيد أن البحث بهذا الشكل لا يعطي النتيجة المرجوة ولا يحقق الرغبة الكاملة للناشيء ما لم يتكفل البحث عن الحسنيين عامة في مختلف العصور الاسلامية حتى يومنا هذا ولو بصورة موجزة ، على أن ذلك يتطلب منك أن تهبه كل اوقاتك وامكانياتك وتذلل جميع الصعوبات التى تلاقيها بروح المثابرة والعزم الصادق . وبذلك سيكون قرينك النجاح وحليفك الظفر والفوز فسر بعون الله وتوكل عليه .

عزيزي القاريء وبعد هذه المصادفات التى هيأت لي اللقيا بالاستاذين والتحدث معهما والوقوف على وجهـــة نظرهما ، اختمرت في ذهني فكرة البحث عن الحسنيين عامة .

وتواً توجهت لتحضير ما يستدعيه البحث من المصادر المطبوعة منها والمخطوطة واتخذت من المقارنة بين النصوص التاريخية المتعددة سبيلا للكشف عن واقع البحث وحقيقته ، حتى تجمع لدي ما استطعت أن أظهر به كمؤلف في قسمين - السياسى - العلمي والأدبي - بستة أجزاء وأسميته « الحسنيون فى التاريخ » ، وقد استعرضت في الجزء الأول منه الجانب السياسي من تاريخ الحسنيين ابتداءً من السنة الحادية والأربعين للهجرة حتى نهاية القرن الثاني ، وان الجزئين الثاني والثالث هما اللذان يتكفلان ما تبقى من الجانب السياسي للحسنيين حسب القرون التى عاشوا فيها .

وأما الأجزاء الرابع والخامس والسادس منه فقـــد استعرضت فيها الجانب العلمي والأدبي لهم حسب القرون أيضاً كما قد وضعت جزءاً خاصاً بالمشجرات النسبية

لهم واعتبرته ملحقاً للأجزاء الستة ، وكان لي فضيلة الأستاذ الشيخ عبـــد المنعم الشميساوي خير عون فى التصحيح أثناء طبع الكتاب فله مني مزيد الشكر والامتنان ومن الله استمد العون ومن القاريء العـــذر والله من وراء القصد ؟

٩/٤/١٩٥٦ المؤلف

محمد الشيخ حسين الساعدي

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد

تفضل سماحة العلامة الشيخ محمد امين زين الدين بهذه الكلمة القيمة وذلك عند ما عرضنا عليه بعض فصول هذا الكتاب . وقد آثرنا ما تناوله سماحته فجعلناه كتمهيد للكتاب وارجأنا ما عالجناه من هذه الناحية بالخصوص لاستيفاء سماحته ما حاولناه فشكراً له على هذه اليد ، ونسأله تعالى أن يكثر من امثاله .

لم أجد كالسياسة معنى مطّته الأهواء ، ولونته الأوهام ، وتلقفته المشتهيات ولم أجد كالسياسة معنى ترفع الانسان في تفسيره ثم أسفّ في تحويره ..

مطته الأهواء فطال ثم طال ، واتسع ثم اتسع ، وانداحت حدوده ، وتباعدت أشكاله ، وتباينت سماته وغاياته ، حتى عم الجـد والهزل ، وشمل الصواب والخطل . فعدل الراعي في الرعية نحو أصيل من انحاء السياسة وظلم المستبد في الامة لون خالص من ألوانها ، وتقلب الحاكم في إقامة الحق وإشادة الباطل نمط صحيح من أنماطها ، وضعفه عن اتخاذ أي خطة نهج صريح من مناهجها . وحتى رياء المرائي ونفاق المنافق ، وخداع المخادع وتلون ذي الوجوه

وتقلب ذي المطامع ، كل هذه من فنون السياسة ، بل هي الفنون الصحيحة فيها !!

أرأيت اولئك الذين ينقدون سياسة علي لما باغت معاوية بالعزل ، وسياسته الثانية حيث لم يعنت مناوئيه في المدينة ، ولا معارضيه في الكوفة ، وسياسات له أخرى تكمل له هذا الشوط ، وتنتظم في هذا السلك ؟؟ .

إنها مآخذ ناجمة عن الفهم الملتوي لمعنى السياسة ، وعن الترهل العجيب الواقع في حدودها .

السياسة تدبير شؤون المملكة ، وتنظيم أمور الرعية ، والتدبير لا بد له من الخطط المحكمة ، والتنظيم لا بد له من المناهج الرشيدة ، عنها ينتهل السائس ، ولآثارها يقتني ..

أما إتباع الهوى والاندفاع وراء المشتهيات فهو سجية بهيمية خالصة ، وإن أوهم الانسان نفسه أنه تدبير صالح وأنها خطة رشيدة .

والحكم في الاسلام أنظمة تحمل طابع الدين ، وتتسم بكل سماته ، وتتصل بدامة رسومه وتخومه ، والقيّم على الحكم في الاسلام قيّمٌ على جميع أحكامه ، يجهد لتعميمها على الآحاد ، ويرعى تنفيذها في الامة ، ويدأب لصيانتها من التحريف ويمكن لاحترامها في النفوس ، ولانطباع آثارها في القلوب .

ذلك أن الاسلام موحّد النظرة موحّد الاحكام موحّد الغاية ، لم يفصل ناحية عن ناحية ، ولم يفرد تشريعاً عن تشريع . فكل تشريعاته لاقامة العدل وكل أنظمته لصون الحق ، العدل التام في الآحاد وفي المجتمع ، وفي الحكومة والرعية ، وفي الرؤساء والمرؤوسين ، والحق الصريح في كل إتجاهات الانسان وفي كل غاياته .

من أجل هذا كان الرسول هو الرئيس الأعلى للحكومة المسلمة في عهد الرسول ، ومن أجل هذا وجب أن يخلف الرسول على الحكم من يماثله حق

المماثلة ، من يماثله في العصمه لأنه قيم الله على العدل التام ، وفي العلم لأنه نائب الرسول في حفظ الشريعة ، وفي سمات أخرى يتوقف عليها تحقيق هذه الغاية .

هذه طبيعة الحكم في الاسلام ، وهذه سمات الحاكم الأعلى الذي يعترف به الاسلام ، وإذن فكيف يؤمل منه أن يتسامح في واجب من واجبات الدين او في محظور من محظوراته ؟

بلى . قد تجمح ظروف وتنشزأحوال يضطر السائس فيها أن يختار أخف الضررين ، أو يرجح أهم الواجبين وهذه قواعد وضعها العقل وأمضاها الشرع لتنسيق هذه الحوادث .

هذه خطة الاسلام في الحكم ، تمهيد للعدل العام من ينبوعه في نفس الفرد ، وبسط لفكرته المطلقة على كل أعمال المرء وعلى كل أخلاقه ، وتنفيذ لمنهجه الشامل في كل شؤون المجتمع وفي كل علائقه .

وللاسلام ولوع شديد في نشر الحق وإقامة العدل ، يفرض ذلك كون الاسلام دين الله الذي أعدّه للناس كافة ، وأن من يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

ومن أثر هذا الولوع مبدأ إرشاد الجاهل الذي شرع وجوبه في الاسلام ، وقانون نصرة المظلوم ، ونظام الأمر بالمعروف ، وقاعدة النهي عن المنكر ، وهذه الولاية العامة المتبادلة بين آحاد المؤمنين على إقامة هذه الاصول : المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ...

* * *

هذه أصول يرد اليها كثير من حركات العلوين فى تاريخ الاسلام . ولا أغالي فأدعي انها مردّ جميع هذه الحركات فالانتهاء الى هذه النتيجة صعب المسالك .

حرّف المنهاج الذي خطه الاسلام للأمة فى شأن الزعامة الكبرى، وركبت الأمة رؤوسها في هذا المجال ، فكان من المنتظر أن يسري التحريف وأن يتسع،

وكان من المنتظر بعد ذلك أن تصبح الزعامة للقوة لا للحق ، وللخديعة لا للعدل ، وكان من المنتظر أن تنال الأمة جزاء هذا التعدّي ، ومن يتعــد حدود الله فقد ظلم نفسه .

نعم . كان من المتوقع أن يستبد هؤلاء الزعماء المستخلفون بالقوة ، أو المترئسون بالخدعة ، وان يستأثروا بحقوق الأمة ، وأن يفشو التعدي ، وكان من المتوقع كذلك أن تكمّ الأفواه الناطقة بالحق ، وأن تشل الأيدي التي تعمل للعدل ، وأن يكون السيف لجام من ينكر أو ينتقد ، كل هذه نتائج محتومة لتلك البوادر .

وسار الأئمة المعصومون والحكمة في معالجة هذه الاحداث ، فقاموا حين يحمد القيام ، وسالموا حين يحمد السلم ، وعملوا للمهمة التي اناطها الله بهم بالجهد المستطاع ، على شدة الرقابة عليهم ، وتفاقم الظلم المحيط بهم .

ونهض في الأمة مصلحون من أهل البيت ومصلحون من غيرهم باسم الدفاع عن الحق وباسم النهي عن المنكر ، وبأسماء أخرى يعترف بها الدين ، ولغايات ليس ينكرها ، ونهض آخرون بمثل هذه الأسماء لغير هذه الغايات .. وكثر الثائرون ، وأحالت الدماء تلك النصاعة في تأريخ الاسلام ، وكدرت منه ذلك الصفاء ، وأبدل العدل الذي وضع الله أركانه ورفع محمد قواعده ظلماً طاغياً من الرعاة ، وحقداً ثائراً من الرعية .

* * *

وآل الحسن قبيل من آل محمد ، لهم شرف الصلة بالنبوة ، ولهم فضل الميراث للعلم ، ولهم رسوخ القدم في الدين ، وكل هـذه الخصائص تخوّلهم أن يكونوا من رؤساء الدعوة الى الحق يوم ينهض الحق ، ومن قادة أنصار العدل حين يستنصر العدل . وآل الحسين شركاؤهم في هذه المآثر يختصون بأن فيهم الأئمة المعصومين ، الذين تذعن الشيعة لهم في العقيدة ، وتخضع لهم بالطاعة ،

من أجل هذا كانت الرقابة عليه أشد ، وكان حذر الخلفاء منهم أكثر ، فلعل هذا هو السر في كثرة الناهضين من الحسنيين دون الحسينيين ، ولعل السر أن إلتزام هؤلاء بمبدأ التقية أشد من التزام اولئك ، ولعل السر أن الحسينيين - وفيهم أولوا العصمة - أكثر إحاطة بما تكنه الحوادث ، وأعمق نظرة فيما تأتي به العواقب .

وعلى كل فقد كثر الناهضون من آل الحسن ، وأعود هنا مرة اخرى فأقول : لست أدعي أن هذه النهضات كلها مما يعترف به الدين ، والذي لا يشك فيه منصف من الناس أن التأريخ لم ينصف هذه النهضات ، ولم يتورع في الحكم على هؤلاء الناهضين ، شأنه مع كل حركة تتنمّر لها السياسة الزمنية ، ومع كل متحرك يتنكر له الرؤساء القائمون .. وخصوصاً إذا كان يناهضهم في العقيدة كما كان يناهضهم في الدعوة . وقد قلت أكثر من مرة : التاريخ سجل عام لخواطر الساسة

بين يدي القراء كتاب حاول مؤلفه الفاضل أن يخلص إلى سيرة هذه الفئة الناهضة ، من سير الحوادث التي يدوّنها التاريخ ، ومن مجموعة الملابسات التي تحيط بتلك الظروف ، ومن استنطاق الأدلة التي تقوم على النتائج ، حاول جهد المستطاع أن يخلص الى الواقع من وراء كل ذلك ، وهو جهد لا تنكر صعوبته .. ولكن المصابرة والخبرة بنقائض التاريخ اللتين عرفتهما للاستاذ الساعدي كفيلتان ببلوغ الهدف .

ولم يغفل البحث عن السير التمهيدي لكل حركة ، وعن الأحوال الموطدة لكل دعوة وقد سمى ذلك (بالمنبع) .

ويؤخذ عليه أنه أغفل البحث عن المبدأ العام لكل هذه الحركات ، وأنه آثر الترسل التام في أساليب العرض ، وآثر الايجاز أو الاشارة في تعليل بعض الآراء .

أما بعد فانها ليد مشكورة على قراء العربية أن يستخلص المؤلف تاريخ الحسنيين الناهضين في جميع الأدوار من بطون الزبر ، ومن مجموعة الأقاصيص ، ومن شتى المصادر ، ثم يجمع ذلك في نسق متصل ، وفي نظام واحد ، ومن الله سبحانه استمد له ولي التوفيق والعون في جميع الامور .

النجف | ١٣ رجب ١٣٧٥ | محمد أمين زين الدين

المنبــع :

فـكر آل البيت بعد مقتل الامام علي عليه السلام في مصير الأمة الأسلامية المنقسمة على نفسها يومذاك من جراء سياسة معاوية النفعية ـ التي لا تعود على المسلمين بخير من جهة دينهم ـ وفى لون السياسة التي سينتهجونها فى عهدهم الجديد للابقاء على معالم الشريعة ، وصيانتها من كل طغيان يراد بها ، محاولين أن يصلوا الى نتيجة حسنة تتفق ومبادئهم السامية الرامية الى جلب الخير للأمة على وجه عام. فـكانت نتائج هذا التفـكير الالتزام بواحدة من إثنتين لا أكثر .

التضحية : وهي التي كان أبوهم ينشدها لنفسه فى سبيل إقرار الحق والدين مهما كلفه ذلك من ثمن ، او الصلح : وهـذا معناه التفريط بشؤون المسلمين ، وسحق المثل العليا ، والخروج على عادات الهاشميين وتقاليدهم من السهر على الصالح العام ، وعدم الاستكانة الى الأمور التي تتنافى ومقتضيات الدين ، والاغضاء عن الحق المفروض لهم .

اذاً فالمبادرة الى الصلح أمر ليس من السهل الاقدام عليه قبل إستكشاف أمر النـاس واستطلاع آرائهم في خوض المعركة ، والتضحية فى سبيل الحق ، وهذه كمقدمة نسوقها الى القارىء لنصل الى حراجة موقف الامام الحسن (ع) الذي تتمثل فيه الزعامة الهاشمية حينذاك .

يقول الدكتور طه حسين : « وقد مكث الحسن بعد البيعة له شهرين أو قريباً من شهرين لا يذكر الحرب ولا يظهر استعداداً لها ، حتى ألح عليه قيس بن سعد وعبيدالله بن عباس ، وكتب اليه عبدالله بن عباس من مكة يحرّضه على

الحرب . ويلح عليه فى أن ينهض فيما كان ينهض فيه ابوه (١) » .

والحسن (ع) كان لا يشك في نصح هؤلاء له كما انه واثق من نصرتهم له اذا تطاير فى الاجواء شرر الحرب . فلا مناص من إختيار التضحية والحالة هذه. فقام باعداد الجيش الذي كان أبوه قد أزمع على الخروج به بعيد انتهاء شهر رمضان وجهز الوجبة الاولى منه . وجعل عليها إبن عمه عبدالله بن عباس ، ورواية أخرى تنص علي أنه جعل قيس بن سعد . وخرجت هذه الوجبة وتلاها هو فى عدد كبير من أهل العراق .

ولست أدري كيف إستظهر الدكتور طه حفظه الله حالة الامام عند خروجه بقوله : « وكأنه خرج وهو يظهر لهم الحرب ويدبر أمر الصلح فيما بينه وبين خاصته (٢) » . وكم كان بودي أن يترسل الدكتور فى حديثه ليعرفنا على النص الذي اكتسب منه هذا الاستنتاج لنستعين به على سير الحوادث التي تخللت حياة هذا البطل العظيم .

أما الرأي القائل بتعدد عناصر الجيش وميوله المتباينة واختلاف نفسياته فنحن نؤيده لما حصلنا عليه من مجموعة النصوص القائلة : بأن قسما من تلك العناصر ماكان يكاتب معاوية ويتصل به أيام الامام علي (ع) ، وكانوا يتلقون منه المال الوافر ويمهدون له الأمر ، حتى اذا ما استشهد الامام ذهب اليه بعضهم وبايعوه . فنهم من أقام هناك ومنهم من عاد ، فلما أراد الامام الحسن (ع) الخروج انخرط فى سلك المحاربين « لحاجة فى نفس يعقوب يريد قضاءها » وكان معاوية يعرض على الحسن (ع) بطرق غير مباشرة الخطوط الرئيسية لفكرة الصلح معه . امثال : ولاية العهد ومجانبة الامور التي قد أرتكبها أيام الامام علي (ع) ، واحترام شيعته الى غير ذلك من الشروط التي اعطاها للحسن (ع) . غير انها لم تقع من نفس الامام موقع الرضا نظراً

---

(١) الفتنة الكبرى : ج ٢ ص ١٩٥ . (٢) المصدر نفسه .

للضغط المتزايد والالحاح المستمر عليه من قبل خاصته على الخروج الى الحرب .

فخرج بذلك الجيش الذي تقدم وصفه ، حتى اذا قارب المدائن أو نزل فيها ظهرت على من كان معه من الامويين (١) والخوارج بوادر الشر . فالامويون يعملون فى صفوف الجيش لصالح معاوية ، والخوارج يعارضونهم . ولم يكن حب الحسن (ع) يدعوهم الى ذلك بل كرههم الشديد لمعاوية .وقدتخيل بعضهم أن سكوت الحسن (ع)وتقاعسه عن مقاومة انصار معاوية كتمهيد لامر الصلح الذي اشاعه الامويون في صفوف الجيش، فانبرى اليه احدهم وطعنه بخنجره ولكنه لم يصب منه مقتلاً ،ومن اجل هذا فقد تزلزلت ثقة الامام بجيشه فبات فى صراع فكري متواصل . أيجد فى أمره ويخوض المعركة بالخاص من انصاره من يتبعهم ؟؟ أم يبقي على هذه الدماء البريئة ويتشبث بما عرضه عليه معاوية ؟؟. وبينما هو فى تلك الايام على مثل هذه الحالة القلقة واذا بأحد قواده وهو عبيد الله بن عباس بن عبدالمطلب يتساوم بطريق غير مباشر مع معاوية بأن يترك الجيش ويأتي اليـــه لقاء مبلغ من المال يدفع له . وجرت من هذا النوع مساومة اخرى مع معاوية وصورتها أن يؤتى له بالحسن إن شاء مكتوفا .

كل هذه الامور مما دعته أن يقوم بصورة جدية لاتمام المفاوضات التي سبق وان بدأه بها معاوية فى شأن الصلح قبل اليوم الذي هو فيه . لئلا يؤخذ عن ضعف ويفوته كل امر يحاول من وراءه اسعاد الامة وحفظها ، ولـكن اصرار أنصاره على الحرب كان يعكر سيره لانهم صمموا على خوض المعركة حتى النفس الاخير . ولعل ما يبديه الخوارج من التحمس للحرب والمقاومة فى هـذا الشأن لا يقل عن شيعته ، وكان الامام يلحظ ذلك عليهم ، ولـكنه آثر الصلح حقنا للدماء وابقاء على النفوس التي لو رمى بها في أتون الحرب مع قلة من يصبر عليها لما عادت عليه بطائل . فالصلح اذاً هو الحل الصحيح لضرورة حسم مثل هـذه

(١) هم الذين يشايعون معاوية ، وليسوا بصلبيين من حيث النسب .

الأزمة التي يخشى من مغبة إستدامتها على سلامة وحدة الأمة . وقيام الحسن به إنما يعبر عن مدي شعوره بالمسؤلية تجاه مصلحة الأمة باعتباره الوالي الشرعي لها ، على ما في ذلك من تضحية لبعض حقوقه .

أما بالنسبة الى معاوية فكان الصلح بمثابة لوحة جديدة سلمت له ليصور نفسه بريشته عليها ، وذلك حينما يخلو له الجو وتعاوده هواجس ماضي النضال الأموي ، وما انتهت اليه الحالة من تفرده بالسلطان وتربعه على عرش الخلافة الاسلاميه .

وقام بدوره في التخطيط على تلك اللوحة أمام الملأ عارضاً خطوطها الرئيسية في تصريحاته وتأشيراته : « أيها الناس ما قاتلتكم لتصلوا ، ولا لتصوموا ، ولا اتزكوا ، إنكم لتفعلون ذلك وإنما قاتلتكم لكي أتأمر عليكم ، وقد اعطاني الله ذلك وانتم له كارهون » (١) وقوله: « أيها الناس مااختلف أمر أمة بعد نبيها إلا أظهر الله أهل باطلها على أهل حقها ، ثم التفت وندم وقال : إلا هذه الأمة »(٢) الى غير ذلك من الأمور التي ارتكبها ، كتحديه لكرامة بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسفكه الدماء البريئة التي استحلها أيام السلم وبعد الصلح فكيف لو كانت الحرب ؟

وانتشرت من جراء هذه الاعمال روح الذعر بين الناس وأحس هو بحراجة الموقف تجاه الرأي العام . وأخذت تباشير سقوط الحكم الأموي تلوح لآل البيت فى الأفق . فراحوا يبذلون كل جهد الى تقريبها .

ولكن أبا يزيد قد شعر بهذا من يوم قتله لحجر بن عدي وأصحابه ، فأخذ ينظر لأمره من عدة وجوه ، فأملى عليه ذلك الشعور بأن يعهد بولاية عهده ليزيد

---

(١) - تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٩٢ - شرح النهج : ج ٤ ص ١٦ وفى الطبرى مسنداً الى سعيد بن سويد ، ومعاوية فى الميزان للعقاد .

(٢) المصادر السابقة .

وأن يدبر الحيلة للقضاء على خصمه الهادىء . وبذلك يكون قد ضمن البقاء للحكم الاموي الذي يأمل استمراره .

وفي الأخير استطاع إغراء جعيدة زوجة الامام الحسن (ع) على أن تسمه لقاء ما بذله لها من المال وما عاهدها عليه من زواجها بيزيد ، وبعد أن قامت بما كلفت به من سم الحسن (ع) لم يف لها بوعده .

وذهب الحسن (ع) الى ربه عن ضمير طاهر ونفس مطمئنة . وخلفه الحسين (ع) زعيم الهاشميين يومذاك بدون منازع ، فخشي معاوية أمره ، إذ لم يعرف موقفه تجاهه وهل ان سياسة الحسن (ع) طيلة هذه المدة قد اعطته درساً وغيرت الصرامة والمعارضة التي هي طابعه ؟ فأخذ يتشوف اليه من هنا وهناك حتى عرف عنه الشيء الكثير ، وعرف أن موقفه إزاء الحسين (ع) حرج وحرج جداً .

أما الحسين عليه السلام فقد تزعم المعارضة يومذاك وأخذ يعطي الناس دروساً في شأنها ليبعث فيهم روح النشاط في سبيل الوثبة حينما تشتد الوطئة عليهم ، تؤيده زمرة من ابناء الصحابة أمثال عبد الرحمن بن أبي بكر (رض) وعبدالله بن الزبير والأحنف بن قيس ، وجماعة من اهل الكوفة لا يقلون خطراً عن أولئك ، فكان معاوية كلما حاول أمراً خشي هؤلاء . فتلوّن في سياسته حيال تلك التطورات وبذل المال بسخاء ، واستعمل الشدة بكل ما أوتي من قوة . ثم بدت له فكرة الذهاب الى الحج ليتصل بصورة مباشرة بزعماء المعارضة فيستطلع آراءهم في يزيد ، ومن أجل ذلك فقد ارتحل الى اراضي الحجاز ، وحتى اذا فرغ من مراسيم حجه عاد الى المدينة ولما استقر به الحال أمر واليه بعقد مؤتمر يضمه مع الحسين بن علي (ع) وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس لا غير للتداول معهم في هذا الشأن ، غير ان هؤلاء النفر أدركوا سر عقد هـذا المؤتمر قبل أن يأتوا اليه ، وما يترتب عليه من النتائج الخطيرة ، فعقدوا اجتماعاً

تمهيداً وقرروا فيما بينهم رفض مبايعة يزيد مهما كلفهم الأمر ، وأناطوا مهمة القيام بالمعارضة أولا بعبدالله بن الزبير . ثم هم يتبعونه على التوالي فى الاحتجاج والمعارضة واعلانهم رفض البيعة . ولما اجتمعوا به في دار وآليه قام فيهم خطيباً فذكر يزيد وما راق له منه الأمر الذي دعاه بأن يولّيه عهده ، فقام عبدالله بن الزبير فقال :

يا معاوية اختر منا خصلة من ثلاث ؛ فقال : إن فى ثلاث لمخرجاً هات حتى أسمع ؟ قال : إما أن تفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قال : وما ذا فعل ؟ قال : لم يستخلف أحداً ، قال : وما ذا ؟ قال : او تفعل كما فعل أبو بكر ، قال : وما ذا فعل ؟ قال : جعلها في رجل من عرض قريش فولاّه . قال : وما ذا ؟ قال : أو تفعل كما فعل عمر بن الخطاب ؟ قال : فعل ما ذا ؟ قال : جعلها شورى في ستة من قريش .

وقام عبد الرحمن بن أبي بكر على الأثر قائلا : « ما الخيار أردتم لهذه الأمة ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقليّة كلما مات هرقل قام هرقل . » وهكـذا تبعهم اخوانهم في الرد عليـه فاستشاط غضباً وأستنصتهم بشدة فى قوله : « ألا تسمعون أني عودتكم على نفسي عادة وإني اكره ان أمنعكموها قبل أن أبين لكم ، إن كنت لا أزال أتكلم الكلام فتعترضون علي فيه وتردون ، وإني قائم فقائل مقالة فاياكم أن تعترضوا حتى اتمّها فان صدقت فلي صدقي وإن كذبت فعلي كذبي ، والله لا ينطق أحد منكم في مقالتي إلا ضربت عنقه» . وكان قـد وكل بكل رجل منهم رجلين يحفظانه لئلا يتكلم . ثم أشار الى من على الباب بفسح المجال لمن رام الدخول عليه من الناس المحتشدة على الباب وابتدأ قائلا :

أيها الناس إن عبدالله بن الزبير والحسين بن علي بن ابي طالب (ع) وعبد الرحمن ابن أبي بكر قد بايعوا ليزيد فبايعوا . فانجفل الناس لمبايعته ، واولئك النفر جلوس لا ينبسون ببنت شفة خشية من أولئك الذين وكلهم بهم وأوصاهم بأن لا يدعوهم

يتكلمون دون أن يضربوا اعناقهم ، وبعــد ما فرغ من ذلك هيأ نجائبه وخرج الى الشام .

وهكذا تمّت بيعة يزيد بطريقة الكيد والاغفال ، ولــكن رجال المعــارضة ما انصرفوا من ذلك المجلس حتى اعلنوا استنكارهم الشديد لما فعله معاوية وأخذوا يفهمون الناس بواقع الأمر ، وانبرى الى الانكار عليه الغالب من الناس ، وقد أنشد شاعرهم يومذاك :

فان تأتوا برملة أو بهنـد	نبايعهـا أميرة مؤمنينـا
إذا مامات كسرى قام كسرى	نعــد ثلاثة متنــا سقينــا
فيا لهفي لو أن لنا ألوفاً	ولــكن لا نعود كما عنينا
إذاً لضربتموا حتى تعودوا	بمكة تلعقون بها السخينــا
حشينا الغيظ حتى لو شربنا	دماء بني أميــــة ماروينا
لقــد ضاعت رعيتكم وانتم	تصيدون الأرانب غافلينا

وحصلت من جراء ذلك بلبلة فكرية سادت دنيا المسلمين ، وتحركت الشيعة في العراق لمفاتحة الحسين في القيام بوجه معاوية والبيعة له عليه السلام إلا أنه لم يعر ذلك اهتماماً لعدم صفاء الجو من جهة ، وماكان لأخيه الحسن(ع) مع معاوية من العهد من جهة أخرى ، وأرجأ ذلك الى الوقت المناسب .

ومرت الليالي والأيام والناس فيها على أحر من الجمر أمام الآعيب معــاوية وظلمه ، وفي ذات يوم فوجئوا بهلاكه ، وتولي يزيد الأمر من بعده ، فقوبل هذا النبأ بالاشمئزاز والامتعاظ من عامة طبقات الأمة . وفوجيء الحزب المعارض في المدينة بتبليغ والي يزيد إياهم للحضور أمامه ، فراح افراد ذلك الحزب يستطلع بعضهم رأي بعض في سرهذه الدعوة غير الاعتيادية في وقتها . فالتفت اليهم الحسين(ع) وقال : أظن أن معاوية قد هلك وان دعوة الوليد لــكم الغرض منها طلب البيعــة ليزيد . فأجابوه يطلبون رأيه في الأمر فقال :

« أما أنا فأصير اليه وانظر الى ما يريد فان طلب مني ذلك فلست أفعل »
نعم قرر الحسين(ع) فى نفسه كما اعلن ذلك فى مناسبات شتى خوض المعركة ضد يزيد مهما كلفه الأمر . لأنه لا يأمن يزيد على شريعة جده ، كما لا يأمنه على الأمة المتمسكة بها . وصرّح بقوله أمام الوالي الأموي « أن مثلي لا يباع مثله » ، وقوله : إني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً . ومضى جاداً على تلك المجاهرة معلناً تفانيه في سبيل مبدأه بقوله : « وخير لي مصرع أنا لاقيه - كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا - » يتبعه على هذا الكثير من أهل بيته ، وقد كان لآل الحسن(ع) السبط نصيب وافر في هذا المضمار ، فلقد حضر منهم مع عمهم الحسين(ع) ثلاثة وهم - الحسن المثنى بن الحسن السبط وعمره يومذاك سبعة عشر سنة على وجه التقريب ، والقاسم ، وعبدالله ، ووقفوا موقفاً مشرفاً فى الذب عن العقيدة والمبدأ أمام تلك الجموع المتدفقة متفانين في سبيل نصرة عمهم حتى كتب لهم القدر بأن يكونوا من الخالدين في عالم الشهادة ، وهم كل من القاسم وعبد الله ، أما الحسن المثنى : فانه قد أصيب بجروح بليغة ووقع بين القتلى فى ساحة الميدان ، فجاء اليه اسماء بن خارجة الفزاري أحد أخواله ، وكان من قواد عمر بن سعد فتشفع فيه عنده فأمر بتركه له . فحمله بعد انتهاء المعركة الى الكوفة وأخبر به ابن زياد وطلبه منه فتركه له ثم ذهب الى بيته واخذ يمرضه حتى اذا بريء سرحه الى أهله في المدينة .

وهكذا فقد انتهى كفاح الحسين « ع » من اجل العقيدة والصالح العام ، بأن يكون صريعاً في حومة كربلا ومعه النخبة الطيبة من آل بيته وخاص صحبه ، وكتب له بأن يكون هو المنصور ولو بعد قتله ، ويكون خصمه هو المهزوم وإن كان منتصراً .

ولقد كان عليه السلام يتنبأ بأن يكون هو الفاتح ولو بعد مقتله ، وذلك عند

مغادرته المدينة الى العراق في كتابه الى بني هاشم الذي قال فيه : « ألا ومن لحق بنا منكم استشهد ومن تخلف لم يبلغ الفتح والسلام » فكان تنبأه هذا حقيقة ناصعة وليس ذلك إلا نتيجة اخلاصه في قيامه بتأدية رسالته التي واتته الفرصة بأن يكون شهيداً في سبيلها ولتكون العبرة أمضى وأبلغ ، لما ترك خلفه من أسى ولوعة في جميع ارجاء الأمة الاسلامية ، وقد ندم من أكرهوا على الخروج لقتاله وأسفوا على ما فرطوا به من عدم نصرتهم له وانخداعهم بدسائس خصمه .

أما خصمه فقد أحس بخطر جسيم يهدده بانفجار بركان الثورة فى كل مكان من أجل أخذ الثار واطاحة الحكم الأموي ، فراح يعمل جهده لتهدئة الحالة والسيطرة على الموقف ، ولكن بدون جدوى . فانه في الوقت الذي يحاول ذلك فى العراق يقوم عبدالله بن حنظلة الغسيل في المدينة معلناً استنكاره لتلك الأعمال الاجرامية ويحث الناس على مقاومة يزيد بكل ما لديهم من قوة ، فاتجه له يزيد ووقعت واقعة (الحرة) واعقبت هذه الحادثة سلسلة من الحوادث الجسام التي كادت أن تودي بالمهابة الأموية . وانتهى عهد يزيد والناس هائجة عليه وعلى حكمه في كل مكان .



وشعر الأمويون بخطورة الموقف ازاء تلك الاحداث التي أعقبت واقعة كربلا ، واتضح لهم أن اللغم الذي وضعه الحسين فى طريق دولتهم قد حان انفجاره فأخذوا يعملون لتبديل سياستهم وإكسائها لوناً آخر ينسجم وتلك التطورات ، فجعلوا معاوية بن يزيد خليفة للمسلمين لما عرف عنه من طيب النفس وعدم الرضوخ لسياسة أسلافه ، وهدأ الموقف نسبياً ولكنه لم يبق في الحكم إلا بضعة أشهر ثم قتل مسموماً على أشهر الأقوال ، فصار من بعده مروان بن الحكم الذي كان من زمن بعيد ينتظر هذا المنصب بفارغ الصبر ، ولكن كراهية الناس له أكثر من كراهيتهم لآل أبي سفيان لما عرف عنه من خبث السريرة والأثرة النفسية والاستبداد . مما سبب للدعوة العلوية فى تلك الأيام أن تظهر بصورة ملحوظة رغم الاجراءات الصارمة التي اتخذها مروان نفسه ضدها ، فهي فى ايران مثلها في العراق ولم تكن فى الحجاز بأقل منها في اليمن ما عدا الشام وهي الحاضرة الأموية منذ فجر التاريخ الاسلامي على وجه التقريب .

وتمخضت وضعية الناس يومذاك عن نشوب ثورات متعددة في ارجاء المملكة الاسلامية ، ففي العراق ثورة التوابين ثم اعقبتها ثورة المختار ، وتلتها ثورة مصعب ابن الزبير ، وفي الحجاز ثورة عبدالله بن الزبير الى غير ذلك من الاحداث التي أقلقت بال ولات الامر من جديد وجعلتهم فى حيرة . ولكنهم كانوا أشد مايخشون من البقية الباقية من آل علي «ع» في تبني حركة من تلك الحركات وصرفها الى صالحهم فأخذوا يستعطفونهم ويصلونهم ولكنهم من طريق آخر صاروا يطاردون انصارهم ويتنكلون بهم .

وعلى مثل هذه الحال فقد انتهى دور مروان وجاء دور عبد الملك ابنه ، وكانت البلاد الاسلامية كما يصفها الخضري في كتابه المحاضرات يقول : « وكانت البلاد على غاية من الاضطرابات فانّ في الحجاز عبدالله بن الزبير ، وقد بايعه اهله ، وبلاد العراق أهلها ثلاث فرق : زبيرية - قد بايعوا عبدالله بن الزبير ودخلوا في طاعته . وشيعة - تدعو الى آل البيت . وخوارج - وهم لا يرون لكل هؤلاء ولاية » . فتلقى الأمر بنوع من الرزانة والحنكة ولم يرسل الحبل على الغارب بل ذهب جاداً في اختيار الولاة الاشـداء واعطاهم صلاحيات واسعة لقمع الفتن والاضطرابات التي تحدث ضمن ولايتهم . فكان أقل ما يقال عن بعضهم أنه يستوحش من يوم لا يريق به دماً ، ونأخذ على سبيل المثال واحداً من اولئك وهو الحجاج ابن يوسف الثقفي الذي أسندت اليه ولاية الكوفة مضافاً الى ما كان بيده من الولايات ، ولما دخلها جاء الى المنبر وخطب خطبته المشهورة الذي قال في بعضها :

« يا أهل الكوفة إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها وكأني أنظر الى الدماء بين العمائم واللحى » الى غير ذلك من الأمور التي شمّت منها العامة روح البطش والسفك ، وتغلغلت في نفوسهم من اجلها الرهبة فانصاعوا الى السكينة مكرهين ، ولم يكن هذا كافياً في رأي عبد الملك بل ذهب الى أبعد منه فاستعمل سياسة « فرق تسد » بين القبائل بطرق مباشرة وغير مباشرة ، وهو كما يقـال « سلاح ذو حدين » وكان هـذا خاصاً في العراق والحجاز . يقول ابن عساكر (١) : غضب عبـد الملك بن مروان على آل علي وآل الزبير فكتب الى عامله بالمدينه هشام بن اسماعيل بن الوليد : أن أقم آل علي يشتمون علياً وآل الزبير يشتمون عبدالله بن الزبير فأبى آل علي وآل الزبير ، وكتبوا وصاياهم فركبت أخت لهشام اليه وكانت عاقلة - فقالت : يا هشام أراك الذي يهلك عشيرته

---

(١) التاريخ الكبير مج ٤ ص ١٦٤ - طبع روضة الشام سنة ١٣٣٢هـ .

على يده ؟ راجع أمير المؤمنين - قال : ما أنا فاعل ، قالت : فان كان ولا بد فمر آل علي يشتمون آل الزبير ، وآل الزبير يشتمون آل علي ، فقال : هذه افعلها ، واستبشر الناس بذلك ، وكان أهون عليهم ، وكان أول من أقيم الى جانب المنبر الحسن بن الحسن - وكان رجلا رقيق البشرة عليه يومئذٍ قميص كتان رقيق - فقال له هشام : تكلم فسب آل الزبير فقال : « إن لآل الزبير رحماً - يا قوم ما لي أدعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار » فقال هشام لحرسي عنده : اضربه فضربه سوطاً واحداً ، فقام أبو هشام عبدالله محمد بن علي فقال : أنا دونه اكفيك أيها الأمير ، فقال في آل الزبير وشتمهم - ولم يحضر علي بن الحسين (ع) ولا عامر بن عبدالله بن الزبير ، فهمّ هشام أن يرسل اليه فقيل له : إنه لا يفعل أفتقتله ؟ فامسك عنه وحضر من آل الزبير كفاءة وكان عامر يقول : إن الله لم يرفع شيئاً فاستطاع الناس خفضه انظروا الى ما يصنع بنو أمية يخفضون علياً ويغرون بشتمه وما يزيده الله بذلك إلا رفعة (١) .

ولا شك بأن عملا كهذا لا بد وأن يعقب إزمة شديدة بين هاتين الطائفتين المتخاصمتين منذ أن عرفت إحداهما الأخرى . كما وأنه لا بد وأن تكون النتيجة الحسنة بجانب آل علي حتما لوجود المؤيدين لهم فيما لو اتخذوا أمثال هذه التحديات ذريعة للتشهير بالأمويين وكسب الانصار والموالين ، ولعل عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث (٢) قد بلغه شيء من هذا فراسل الحسن بن الحسن (ع) وأخبره بأنه يدعوله

(١) تاريخ ابن عساكر : ج ٤ ص ١٦٤ - طبعة روضة الشام سنة ١٣٣٢هـ .

(٢) كان عبد الرحمن في بادىء الأمر من القادة المشهورين في الكوفة ، وكان الحجاج يبغضه ولم يكن يقصد من طلبه إياه للخروج الى بلاد رتبيل بسجستان إلا ليتخلص منه . وكان ابن الأشعث يعلم ذلك فلما خرج اليها وانتصر على عدوه بانهزامه أمامه غير أن عبد الرحمن لم يلاحقه بل كف عنه ، وكتب بذلك الى الحجاج ، فلما وصل الكتاب الى الحجاج أرسل اليه يعيره بالتقاعس ويطلب منه ملاحقة عدوه ، -

محاولا من وراء هذا أن يكسب ثقة العامة لدعوته . وكان فيما كتب اليه يحذره بأن يتخذ لنفسه الحيطة اكثر مما سبق . أما الحسن نفسه فانا لم نحصل على نص يصرح بأنه أجاب عبد الرحمن الى ذلك أم لا ؟

ولكن الذي يظهر لنا أن الحسن كان مقتنعاً للدوافع التي سبق وان أشرنا اليها . ويذهب إبن حجر يتحدث عن نشاط ابن الاشعث في سبيل أخذ البيعة الى الحسن المثنى يقول : حتى بايعه خلق كثير الأمر الذي هال ملوك بني مروان وجعلوا يتخوفون من عواقبه . ويقول ابن عساكر: « عاتب عبد الملك بن مروان الحسن

- فلم يستجب الى ذلك ، واتفق مع قادة جيشه على خلعه وإخراجه من ارض العراق ، ونشبت بينهما معارك دامية كان النجاح فيها لعبد الرحمن وتم له بذلك ملك سجستان وكرمان والبصرة وفارس إلا خراسان ، وقد كان عليها المهلب والياً لعبد الملك بن مروان . ثم خرجت البصرة من يده فاستولى على الكوفة وقصده الحجاج فحدثت بينهما وقعة « دير الجماجم » و « مسكن » وبدت فى جيشه الانتكاسات الواحدة تلو الأخرى حتى رجع الى رتبيل واتفق معه على بعض الشيء إلا أنه بالتالى غدر به وسلمه الى والى عبد الملك فلما وقع فى قبضة الوالى أرسله الى الخليفة فأفلت من ايديهم وجاء الى دار وصعد على سطحها ورمى بنفسه من عليها الى الارض فسقط ميتاً ولقد قال فيه أعشى همدان :

كم من أب لك كان يعقد تاجه	بجبين أبلج مقول صنديد
ما قصرت بك أن تنال مدى العلى	اخلاق مكرمة وإرث جدود
قرم اذا سامى القروم ترى له	اعراق مجد طارف وتليد
واذا دعا لعظيمة حشدت له	همدان تحت لوائه المعقود

لخصنا هذه الترجمة من المصادر التالية - الكامل لإبن الأثير : ج ٤ ص ١٨٥ و ١٨٦ . شذرات الذهب لإبن العماد الحنبلي : ج ١ ص ٨٧ و ٨٨ ، وتاريخ البصرة ص ٤١ ، مروج الذهب ج ٣ ص ٧٢ و ٧٣ ، الإمامة والسياسة : ج ٢ ص ٣٥ و ٣٦ و ٣٧ .

ابن الحسن (ع) عن شيء بلغه عنه من دعاء أهل العراق إياه الى الخروج معهم على عبد الملك . فجعل يعتذر اليه ويحلف له ، فقال له خالد بن يزيد بن معاوية : يا أمير المؤمنين ألا تقبل عذر ابن عمك وتزيل عن قلبك ما قد أشربته إياه أما سمعت قول أبي الطمحا القيني :

اذا كان في صدر ابن عمك إحنة فلا تستثرها سوف يبدو دفينها
وإن حماة المعروف اعطاك صفوها فخذ عفوه لا يلتبس بك طينها

وانتهى دور عبد الملك وجاء من بعده الوليد فكان أول ما وجه اليه همته كما يقول ابن عساكر اخماد دعوة الشيعة والتنكيل بزعمائها فكتب الى واليه بالمدينة وهو عثمان بن حيان المزي : « انظر الحسن بن الحسن (ع) فأجلده مائة سوط وقفه للناس يوماً ولا أراني إلا قاتله » فلما وصله الكتاب بعث اليه فجيء به والخصوم بين يديه ، وكان الامام علي بن الحسين (ع) قد رآه فقام اليه فقال له : يا أخي تكلم بكلمات الفرج يفرج الله عنك « لا إله إلا الله الحليم الكريم سبحان رب السماوات السبع ورب الأرضين السبع ورب العرش العظيم والحمد لله رب العالمين . » فلما قالها انفرجت فرجة من الخصوم فرآه عثمان - فقال : أرى وجه رجل قد افتريت عليه كذبة خلوا سبيله ، وأنا كاتب الى أمير المؤمنين بعذره ، فان الشاهد يرى ما لا يراه الغائب (١) .

ولم يكن هذا الاجراء الذي يقوم به والي الوليد مبرراً لما كان يخشاه الوليد من أمر الحسن المثنى وما يراه في وجوده من الخطر على سلامة الدولة . فاهتم له اهتماماً بالغاً وفي الأخير أرسل له سماً على يد واليه فسمه ومات .

ولم يؤثر موت الحسن هذا على الدعوة نفسها ، بل إنما أكسبها قوة وزاد القائمين بها حجة على خصومهم الذين اقترفوا جرم سمه .

(١) تاريخ ابن عساكر : ج ٤ ص ١٦٤ - والفرج بعد الشدة الجزء الثاني . وخلاصة تذهيب الكمال ص ٦٦ طبعة الأولى .

لم تزل عوامل النفرة عن البلاط الأموي تتجدد بسبب ما أثاره الأمراء ورجال الحكم فى نفوس العامة من العصبيات ، وتحيزهم لقبيلة دون أخرى . فهم مثلا ينتصرون الى الكلبيين ويؤيدونهم بكل ما لديهم على القيسيين لأن آل الزبير يركنون الى هؤلاء ويؤيدونهم ، واستمر هذا النزاع القبلي قائماً باللسان مرة وباليد أخرى ، الأمر الذي سبب للبيت الأموي أن ينقسم على نفسه « لاختلاف امهاتهم من كلبيات وقيسيات » . ومن جراء هـذا نزع بعضهم الى المطالبة بالسلطان ، واضطرهم ذلك الى جعل ولاية العهد فى رجلين منهم - يلي أحدهما الآخر - درءاً للأخطار المحدقة بالعرش من شتى الجهات ، وقد أدى هذا الاجراء الى المنافسة والتحزب لتكثير الأتباع والمؤيدين « فانه لم يكـد يتم الأمر لأحد أبناء الخليفة المتوفى ، حتى يعمل على إقصاء الآخر من ولاية العهد وإحلال أحد أولاده مكانه . ومما زاد هذه الحالة سوءاً ، أن هـذا النزاع لم يقتصر على افراد البيت الاموي بل تعداهم الى القواد والعمال ، حتى اذا ولي الثاني الخلافة إنتقم من انصار الخليفة الذي قبله واقصاهم عن مناصب الدولة (١) .

ولعل ما جرى للوليد ولسليمان من النزاع وما كان يحاوله الأول من ارغام أخيه على التخلي عن ولاية العهد خير دليل على ما ذكرناه . وعند ما تولى سليمان الخلافة كان أول ما وجه اليه همته الانتقام ممن ساعدوا الوليد على خلعه ، فانتقم من محمد بن القاسم الذي فتح بلاد السند وفعل مثل ذلك مع قتيبة بن مسلم الذي فتح بلاد ما وراء النهر . ولو ان الحجاج كان حياً لنكل به أشد تنكيل ولذلك انتقم من آله شر انتقام .

(١) تاريخ الاسلام السياسى : جزؤ ٢ ص ٦ الطبعة الثالثة .

وقل مثل ذلك في بقية الخلفاء الأمويين عدا عمر بن عبد العزيز الذي رافقه الحظ لسيرته المحمودة وعدله في الحكم ولكن لم تطل أيامه دون أن أدركه القدر فمات ، وعادت الحالة كالسابق في أيام يزيد الثاني الذي انغمس في الشهوات وأخذ يقتل وقته كله في معاشرة القيان مما أدى الى ضعف نفوذه وظهور الفتن في أيامه .

وقد كان للقواد والولاة الذين اقصتهم الحكومات المتعاقبة أعظم الأثر على إثارة تلك الفتن وتقويتها - لأنهم سبروا غور الأمويين أيام اشتغالهم معهم واطلعوا على دخائلهم وعرفوا نقاط الضعف فيهم فراحوا يحشدون قواهم تحت ظل القائمين في مناهضة الحكم الأموي . وهناك من الولاة من تزعم بعض الثورات وكبد تلك الدولة خسائر فادحة في الأنفس والأموال ، أمثال يزيد بن المهلب الذي تعتبر ثورته من أخطر الثورات في أيام يزيد الثاني .

وجاء من بعده هشام بن عبد الملك فأجرى كعادة سلفه تبديلات هامة بين الولاة فعزل ونصب ورفع ووضع . هذا والفتن الداخلية قائمة والثورات ضده من جهة سوء تصرف عماله وشدة وطأتهم على الناس مستمرة . (١) ولا يغيب عنا ما كان لواليه يوسف بن عمر على الكوفة من الأثر السيء لسيرته الهوجاء وسياسته الخرقاء . وما بدا من هشام بالذات مع الشهيد زيد بن علي بن الحسين (ع) أبي الظيم من قارص القول ، الأمر الذي سبب لزيد بن علي ان يتحفز للثورة ضده من يوم فارق مجلسه حتى روى من شاهده أنه كان يردد هذه الكلمة : « ما أحب رجل الحياة إلا ذل » . فجاء الى الكوفة وقام بتلك النهضة الجبارة التي زلزلت أركان الحكم الأموي من أساسه وتركته على وشك الانهدام .

وطبعي ان مثل هذه السياسة الخرقاء التي يسير عليها رجال الحكم الأموي هي اعظم خطراً على سلامة الدولة ، وخير مساعد للحزب المناهض لعرشهم . وما من

---

(١) يراجع من أراد مزيداً من الاطلاع كتاب - محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية للشيخ محمد الخضري بك ج ١ ص ١٩٤ .

شك بأنه لم يكن هناك حزب له قابليـــة فعالة وماض معروف بالتضحية غير الحزب العلوي الذي كان من ضحاياه الامام الحسين (ع) وحفيده الثائر زيد (رض) إذ كان هذا الحزب يهدف لاقامة دولة على غرار الدولة الراشدية ، ويسعى بكل ما أوتي من حول وقوة لثل العرش الاموي الذي تتمثل فيه الدكتاتورية ومضى دعاته متذرعين بتلك الدماء البريئه التي أراقها الاستبداد الأموي ومستغلين فرصة انشغال الأمراء الأمويين فيما بينهم على السلطان . لشق طريق أوسع الى الدعوة .

ولم تكن هذه الجهود التي يبذلها دعاة الدعوة العلوية مجهولة النتائج في نظر بني العباس بن عبد المطلب بل إنهم حسبوا لها الحساب الكثير وتحققوا من أن النتيجة ستكون حتما بجانب آل علي . ونظراً لما كان يتسلح به آل علي من قربى الرسول صلى الله عليه وآله وما هم عليه من التمسك الشديد بعرى الدين . فانهم قد تجنبوا الكيد السياسي والاحتيال في جميع مراحل الدعوة ؛ ومن هذا الجانب فقد استطاع بنو العباس أن يدخلوا انفسهم معهم ويسيرون تحت ظلهم . ولعل القاريء يطلب المزيد من البيان والصورة التي انظم فيها بنو العباس الى معسكر آل علي وأين كانوا ؟

لقد كان بنو العباس وعلى رأسهم أبوهم الاكبر علي بن عبدالله المعروف بالعبادة والزهد . في الحميمة وهي : قرية صغيرة في ارض الشراة بين الشام والحجاز . أقطعها الوليد بن عبد الملك الى علي هـــذا لأنه كان صديقاً له ، فانتقل اليها . و وجميع ولده واستوطنها وكان موالياً للأمويين واضعاً ثقته فيهم . أما ابناءه فكانوا يتفقون معه في الظاهر ولكنهم يختلفون عنه في الباطن ويحاولون الالتحاق ببني عمومتهم المناضلين ولكن حرصهم على ما في ايديهم كان يمنعهم عن ذلك فظلوا يعملون تحت الستار « أما محور النشاط والحركة والفكر عندهم فهو محمد بن علي بن عبدالله ابن العباس » وقد انتهت اليه زعامة البيت العباسي عند وفاة والدهم .

وقد كان أبو هاشم بن محمد بن الحنفية أحد زعماء الدعوة العلوية البارزين . وكان

سليمان بن عبد الملك يخشى أمره ويتخوف من وثبته عليه فاهتم له واخـذ يستعطفه ويستميله بدعوته اليـه فأجابه أبو هاشم الى ذلك وقدم عليه فأكرم سليمان وفادته وألان له جانبه وأظهر له التودّد ، ولـكنه دبر قتله فدس له السم وهو في طريقه الى الحميمة التي يقطن بها ذووه ، وقيل أن أبا هاشم لما شعر بدنو أجله ، قصد محمد ابن علي وأفضى له بأسرار الدعوة وعرّفه بأسماء الدعاة في الاقطار . وهـذا بعيد لاختلاف وجهة نظرهما في الامامة . وهناك قول آخر وهو أقرب الى الصحة وهو : أن أبا هاشم لم يعهد لمحمد هذا بشيء من الأمر ولـكن محمد لما حل عنده أبو هاشم وكان يعرف مكانته من الدعوة . ورأى ما فيه من ثقل حالته لشدة السم اخذ يستدرجه في أحاديثه طيلة الايام التي قضاها معه حتى وقف على كل شيء . ولما مات عثر على الملفات التي كانت فيها أسرار الدعوة واسماء الدعاة في الأقطار (١) .

ومن هذا الطريق إستطاع بنو العباس أن يلجوا باب الدعوة وباسم الوصاية عن أبي هاشم حصلوا على بعض الثقة من الناس الذين استمالوهم اليهم .

هذا وقد بدت إمارات الانتكاسة الأخيرة للحكم الأموي تلوح لـكل ذي عين فذهب آل علي وتحت ظلهم بنو العباس يوجهون الناس الى الثورة ، وكثرت الاضطرابات في كل من العراق والحجاز واليمن . وقد ذكر المسعودي أسباب سقوط الدولة الأموية فقال : سأل أحد شيوخ بني أمية ومحصليها عقب زوال الملك عنهم : ما كان سبب زوال ملككم ؟ قال : إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا ، وتمنوا الراحة منا ، وتحومل على اهل خراجنا فتخلوا عنا ، وخربت ضياعنا ، فخلت بيوت أموالنا ، ووثقنا بوزرائنا ، فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أموراً دوننا اخفوا علمها عنا ، وتأخر عطاء جندنا ،

---

(١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٤٠ - ١٤١ مطبعة مصطفى البابي . من أراد التوسع فليرجع اليه .

فزالت طاعتهم لنا ، وأستدعاهم أعادينا فتظافروا معهم على حربنا ، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة انصارنا ، وكان إستتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا(١)

وهناك حديث آخر يرويه أمير أموي وذلك في الندوة التي كانت زمن بني العباس ، يقول الربيع : اجتمع عند المنصور عيسى بن علي ، وعيسى بن موسى ، ومحمد بن علي ، وصالح بن علي ، وقثم بن العباس ، ومحمد بن جعفر ، ومحمد بن ابراهيم ، فذكروا خلفاء بني أمية وسيرهم وتدبيرهم ، والسبب الذي به سلبوا عزهم فقال المنصور : أما عبد الملك فكان جباراً لا يبالي ما صنع ، وأما سليمان فكان همته بطنه وفرجه ، وأما عمر فكان أعور بين عميان ، وكان رجل القوم هشام ، ولم تزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويحفظونه ويعرفون ما وهب الله لهم منه مع كسبهم معالي الأمور ورفضهم أدانيها ، حتى أفضى الأمر الى أبنائهم المترفين ، فكانت همتهم قصد الشهوات ، وركوب اللذات ، من معاصي الله عز وجل ، جهلاً منهم باستدراجه ، وامناً منهم لمكره ، مع إطراحهم صيانة الخلافة ، واستخفافهم بحق الرياسة ، وضعفهم عن السياسة ، فسلبهم الله العز وألبسهم الذل ، ونفى عنهم النعمة ، فقال صالح بن علي : يا أمير المؤمنين إن عبدالله بن مروان لما دخل أرض النوبة هارباً فيمن اتبعه سأل ملك النوبة عن حالهم وهيئتهم ، فركب الى عبدالله ليسأله عن شيء من امورهم ، والسبب الذي به زالت النعمة عنهم ، وكلمه بكلام سقط عني حفظه ، ثم أشخصه عن بلده ، فان رأى أمير المؤمنين أن يدعو به ليحدثه أمره فعل ، فأمر المنصور باحضاره في مجلسه فلما مثل بين يديه قال له : يا عبدالله ، قص علي قصتك وقصة ملك النوبة قال : يا أمير المؤمنين ، قدمت الى النوبة ، فأقمت بها ثلاثاً ، فأتاني ملكها ،

(١) مروج الذهب : ج ٣ ص ١٥٩ طبع دار الرجاء ـ وخلاصة الباب الثالث من تاريخ الشعر السياسي لأحمد الشايب .

فقعد على الأرض وقد أعددت له فراشاً ، فقلت له : ما منعك من القعود على فراشنا ، فقال : لأني ملك ، وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله عز وجل إذ رفعه الله ، ثم قال : لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم ؟ فقلت : اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا ، قال : فلم تطئون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم في كتابكم ؟ فقلت : فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا لجهلهم ، قال : فلم تلبسون الحرير والديباج والذهب وهو محرم عليكم في كتابكم ودينكم ؟ فقلت : ذهب منا الملك فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا ، فاطرق الى الارض يقلب يده مرة وينكت في الارض أخرى ، ويقول : عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا علينا في ديننا ، ثم رفع رأسه فقال : ليس كما ذكرت ، بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله ، وركبتم ما عنه نهيتم ، وظلمتم فيما ملكتم ، فسلبكم الله العز ، وألبسكم الذل بذنوبكم ، ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها فيكم ، وأنا خائف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدي فينالني معكم ، وإنما الضيافة ثلاث ، فتزود ما احتجت اليه وارحل عن أرضي ، ففعلت »(١) .

نعم تلك هي الأسباب التي جرّت بالعظمة الاموية الى الهوة ، وتركت المجال للثوار بأن يوسعوا رقعة دعوتهم الى أبعد مما هي عليه من قبل ، وخاصة في خراسان .

ولقد كان نصر بن سيار وهو الوالي الاموي هناك يعاني الأمرّين : التعصب القبلي الذي تجدد في خراسان . واستفحال أمر دعاة الشيعة ، وقد كشف عن المضايقة التي ألمّت به من جراء تلك الامور في رسائله الى مروان والتي يقول في بعضها :

أرى بين الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فان لم يطفها عقلاء قوم	يكون وقودها جثث وهام

---

(١) مروج الذهب : ج ٣ ص ٢١١ .

فانّ النار من عودين تذكى ... وان الحرب أولها كلام
أقول من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أميــــة أم نيام ؟
فان يك قومنا أضحوا نياماً ... فقل قوموا فقد حان القيام

ولـكن مروان كان مشتغلا بحروب الخوارج بالجزيرة . وبحربه مع نعيم بن ثابت فى مهد مملـكته وفتن أخرى لا تقل عنها . فأجاب نصر على رسالته : « إن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب ، فاحسم أنت الداء الذي ظهر عندك » فلمـا جاءه الـكتاب وفهم ما فيه وجه كتاباً الى يزيد بن عمر بن هبيرة عامل مروان على العراق يستنجد ويطلب منه العون وقد ضمنه أبياتاً من الشعر يشرح له فيها حالة خراسان وما دهمها ، الأمر الذي يخشى وقوع مثله على العراق يقول :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه ... وقد تبينتُ ألاّ خير فى الـكذب
بأن أرض خراسان رأيت بهـا ... بيضاً لو افرخ قد حدثت بالعجب
فراخ عامين إلا أنهـا كبرت ... لما يطرن ، وقد سربلن بالزغب
فان يطرن ولم يحتل لهن بهـا ... يُلهبن نيران حرب أيما لهب (١)

فلم يجد منه أذناً صاغية لرد جوابه فأرسل رسالة أخرى الى مروان ولـكنها كانت بعد هزيمته من خراسان وقد ضمن تلك الرسالة هذه الأبيات :

إنا وما نكتم من أمرنا ... كالثور إذ قرب للنـاخع
أو كالتي يحسبها أهلهـا ... عذراء بكراً وهي في التاسع
كنا نرقّيها فقـد مُزّقت ... واتسع الخرق على الراقع
كالثوب إذ أنهـج فيه البلى ... أعيا على ذي الحيلة الصانع (٢)

وقد نزل نصر بعـد أن ترك خراسان (ساوة) من بلاد همدان والري فمات بها كمداً .

(١) مروج الذهب : ج ٣ ص ١٧١ طبع دار الرجاء .
(٢) المصـدر نفسه : ج ٣ ص ١٧٣ طبع دار الرجاء .

بين عهدين :

قارئ العزيز لقد وقفنا بك على ما وصلت اليه حالة الحكم الأموي وخاصة في الربع الأول من القرن الثاني للهجرة ، حيث كان يردد النفس الأخير من حياته لكثرة ما يعانيه من الثورات التي تنادي بسقوطه فى مختلف البلاد الاسلامية .

وكان من أعظم تلك الثورات أثراً في ذلك الظرف هي ثورة الهاشميين التي كانت تعبر عن قوة روح الثورة الاجماعية . لما تتميز به عن غيرها من سمو الهدف ، وشرف الغاية ، وجودة التنظيم ، وعدم المبالات في التضحية . ولعدالة موقفها ، ونبل القائمين بها فانها قد قطعت شوطاً بعيداً في التقدم رغم الصعوبات التي اعتورتها فى باديء الأمر ، بيد أن الأمر العجيب في هذه الفترة والذي يسترعي انتباه المتتبع أن العلويين بما فيهم من الحسنيين والحسينيين لم يأت لهم ذكر مع المناضلين ، وهم الذين فتحوا باب النضال لغيرهم ، وقادوا تلك الثورات مدة غير قليلة من الزمن ، ونتيجة لتلك القيادة المحكمة فقد أوشك الحكم الأموي فى تلك الفترة على الانهيار .

وإن المتتبع ليحار في الأسباب التي اجتنب العلويون من أجلها الموقف لأن المصادر والنصوص التاريخية لا تلقي ضوءاً على الأسرار الكامنة وراء هذا الاغفال . غير ما نراه هنا وهناك من تعليل لا يتفق ومكانتهم وترجيح لا يفي بالغرض ، نعم : إنا لا نشك بأن العلويين كانوا يتصيّدون الفرص للايقاع بخصومهم ، ولكن لا كما وصفهم المؤرخ المعاصر الدكتور حسن ابراهيم حسن بقوله : « بل تركوا الأمور تجري فى مجراها الطبيعي ، حتى كونوا لهم ـ عصبية قوية بالمصاهرة ، وكسبوا رضا

أهل المدينة »(١) فلعمري أي مصاهرة كانت هـــذه التي يشير اليها الدكتور في حديثه . بحيث أن آل علي اعوزهم الاعتداد بأنفسهم حتى التجأوا الى الاحتماء بالأصهار ليقوّوا بهم أمرهم او يدافعوا عنهم ؟ - أو أنه يعني فيها مصاهرة زيد بن الحسن للوليد بن عبد الملك ؟ أم هناك مصاهرة أخرى يعنيها ؟ فان كانت مصاهرة زيد بن الحسن ولعل الدكتور لا يقصد غيرها . فالتاريخ يحدثنا بأنه لم يستفد منها غير زيد نفسه - لأنها لم تقع من آل علي موقعاً يجعل بينهم وبين الأمويين وئاماً او صفاءً . كما أن حال زيد غير مجهول بالنسبة الى آل البيت . لأنه كان من الموالين للسلطة الزمنية بحيث يفد على الأمويين ويتقبل منهم الصلاة مع علمـــه بالخصومة الشديدة بين هاتين الطائفتين - وما لبني هاشم من الدماء في رقاب الامويين ، وما يراه من المضايقة الشديدة التي يعانيها أخوه الحسن المثنى من الوليد - كل هذا يراه ويعرفه ولم يمنعه من التردد عليهم وتقبل هداياهم(٢) ، وهذه رواية واحدة نسوقها على سبيل المثال يرويها اكثر من واحد من المؤرخين يقول : ودخل زيد بن الحسن على الوليد بن عبد الملك فأقعـــده على سريره وأكرمه - ووهب له دفعة واحدة ثلاثين ألف دينار(٣) . هذا وتشير بعض المصادر الى اضطلاعه بمنصب من مناصب الدولة أيام الأمويين . فان كان الدكتور يشير الى هذه المصاهرة فمعناه أنه لم يقرأ عن العلويين الشيء الكثير ليتضح له موقف هذا الرجل منهم . وإن وضع الدكتور

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى : ج ٢ ص ١٠٧ طبعة الثالثة ١٩٥٣م .

(٢) تاريخ ابن عساكر : ج ٥ ص ٤٦ حيث ستقف على وشايته بأبى هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية عند الوليد . من أن عبدالله يحاول القيام بالثورة ضده ، وكيف استدعاه الوليد من أجل ذلك وحبسه عنده ، وكيف سعى الامام زين العابدين عليه السلام فى اطلاقه ، - وراجع كذلك تهذيب التهذيب لابن حجر : ج ٣ ص ٤٠٣ وعمدة الطالب ص ٥٤ ، والبحار ج ١٠ ص ١٣٨ طبع كمبانى .

(٣) عمدة الطالب . ص ٥٥ - وابن عساكر .

للمناضلين من العلويين بالأطار الذي وضع المؤرخون فيه زيد لظلم لهم ؛ أو أنه يقصد بذلك مصاهرتهم لآل الزبير ؟ وهذا ما لا يتفق مع المنطق السليم . لأن آل الزبير لم يعرف عنهم بأنهم قد وقفوا يوماً ما يدافعون عن العلويين . بل إنهم جردوا سلاحهم للقضاء على انصارهم . كما فعلوا ذلك بالمختار وانصاره . فاذاً أين هي تلك المصاهرة التي أكسبتهم القوة والمنعة ؟ وليت الدكتور أفصح عن واحدة من تلك المصاهرات التي قوي بها أمر العلويين ليدعم بها حديثه الذي أرسله إرسال المسلمات بدون أي دليل . فكأنّ العلويين في نظره أناس من الطبقة الدنيا او نكرات ليس لهم أي شأن حتى يذهبوا كما يقول في الفقرة الثانية من حديثه : « الى جلب رضا أهل المدينة » وكأنه تناسى تلك التضحيات والمواقف التي شهدها المسلمون في مناسبات شتى للعلويين !

العلويون هم الذين لا يبلغ شأوهم أي مخلوق ، فلهم شرف النسب برسول الله صلى الله عليه وآله ، وفضيلة السبق الى الايمان ، وقوة التمسك بالدين ، والتضحية في سبيل الحق ، كل هذا وغيره يعرفه أهل المدينة وبقية المسلمين بل العالم كله لهم ، وإن من يكون مثلهم لا ينتظر أن يقوّي أمره بالمصاهرة او جلب رضا اهل بلد ينظرون اليهم نظر مرؤس الى رئيسه .

إن هذا في رأيي لم يكن هو السبب المباشر الذي اعتزل العلويون من أجله الموقف في تلك الفتره . بل لا بد وأن تكون هناك أسباب أخرى لا تمت الى ما أشار اليه الدكتور حسن ابراهيم حسن بصلة . والذي يغلب على الظن أن مرد ذلك الى ما اكتنف الدعوة من الملابسات في تلك الفترة . فنحن في الوقت الذي نرى فيه أن الدعوة العلوية قبل عام ١٣٢هـ هي شعار الناهضين من آل البيت ضد الحكم الأموي نجدها في أوائل العام المذكور قد ظهرت بلون آخر وصبغة ثانية باسم ـ العباسيين ـ ومن هذا أصبحت الدعوة ذات صبغتين علوية وعباسية .

وبالنظر الى ما طبع عليه العلويون من طهارة الظمائر وصفاء النيات ، فانهم لم

يهمهم ظهور هذا الاسم بقدر ما كان يهمهم أمر القضاء على اعدائهم « لما يعتقدونه من أن الخلافة حقهم وأن الناس جميعاً يسعون ليردوها اليهم » غير أن العباسيين « كانوا يوهمون العلويين بأنهم يعملون لهم ، ولكنهم في الواقع كانوا يعملون لأنفسهم ، يضمون في أيديهم زمام الموقف ويديرون لأنفسهم دفة الكفاح »(١) .

ويقول الأستاذ محمد عبدالله عنان في الاسباب التي اندمج العباسيون من أجلها في صفوف العلويين : « وقد لبثوا زمناً يتطلعون الى الملك ، ولما لم تكن لهم عصبية كافية اندمجوا في الحركة الشيعية ووجدوا بها وسيلة ناجحة لاستهواء الجموع ، وكانت أول بادرة خطيرة لحركتهم قيام أبي مسلم الخراساني في خراسان بالدعوة الى ابراهيم الامام »(٢) ولما قوي أمر أبي مسلم في خراسان منحه ابراهيم الامام صلاحيات واسعة للتنكيل بالمعارضين له في دعوته ومن جملتها « من اتهمته فاقتله » ولم يكن هذا في نظر الدهاة من بني العباس كافياً لردع المعارضين بل راحوا يبذلون الجهد في تحوير الدعوة بشكل يوهم الذين يعتقدون بأنها لآل علي (ع) في الدعوة الى « الرضا من آل محمد » لينفذوا من خلال هذا التضليل الى أهدافهم وما تصبوا اليه نفوسهم . لأنه كما يبدو اصطلاح عام يشمل العباسيين والعلويين . وقد كان الغالب من الناس يعتقدون أنه علوي كما كان العلويون أنفسهم يعتقدون ذلك . عدا الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) فانه كان يصرح بأن هذا الأمر ليس لهم وأنه لبني العباس وأن كل محاولة تقوم ضدهم ستبوء بالفشل - لأنه (ع) كان ينظر الى العباسيين عن كثب نظراً دقيقاً درس من خلاله أهدافهم من وراء تلك المداورات فاعلن لرهطه رأيه فيهم ، ونصح للشباب الطامحين من العلويين بالركون الى الهدوء والسكينة ليفضح مدعيات بني العباس أمام الذين يوالون آل علي من الدعاة والثائرين المعتقدين أن لآل علي قناعة في تلك المداورات العباسية .

(١) كتاب في قصور الخلفاء العباسيين للدكتور أحمد شلبي : ص ٣ .
(٢) تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة : ص ٢٧ .

— ٢ —

أما العلويون فحسب مايتراءى لي من حالهم في تلك الفترة من الزمن أنهم اعتزلوا الموقف لرد الفعل الذي أصابهم من جراء حركات بني العباس فاجتنبوا كل ماله علاقة في الدعوة .

وقد أدرك بنو العبـاس سر اعتزال آل علي فخشي ذووا الحنكة منهم فوات الأمر من ايديهم بما يفضي اليه هذا الاعتزال من التفكك في صفوف الثائرين ، وما يلحقهم من وراء ذلك من الضعف بصورة خاصة ومن أجله فقد تركوا مقرهم الحميمة وجاؤا الى المدينة ، ولم يكن قصدهم سوى الوقوف على أمر آل علي (ع) بالنسبة لهم . فلم يجدوا في آل الحسين (ع) بغيتهم لتمسك هؤلاء بما رسمـــه لهم زعيمهم الاكبر الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) . فعدلوا الى آل الحسن (ع) فوجدوا فيهم ليناً ينم عن رغبتهم الى هذا الأمر . كما عرفوا من حالهم أنهم يتحفزون لمعارضة كل من يحاول هذا الأمر من غير آل علي (ع) . لمـا يرونه في محمد ذي النفس الزكية من أنه المنتظر الذي سيملىء الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت ظلماً وجوراً .

واستغل بنو العباس تلك الرغبة من بني الحسن (ع) لاخماد روح المعارضة التي يتوقعونها منهم لأنهم لو تركوهم لحالهم لمـا حصلوا على ما حصلوا عليه بالتالي ، فوضعوا أيديهم بأيدي بني الحسن (ع) وجدّوا في تقوية تلك الرغبة وأخـــذوا يهمسون في آذانهم بشتى الطرق أحقيتهم بهذا الأمر من غيرهم لتتقوى روح المطالبة عندهم . تؤيدهم زمرة من الناس ترى ذلك لهم بصورة علنية . فمن ذلك ما رواه أبو الفرج بسنده عن عبدالله بن الحسن بن الفرات يقول : رحت عشية من قرية مع عبدالله والحسن ابني الحسن بن الحسن بن علي (ع) فضمنا المسير الى داود بن علي

وعبدالله بن علي بن عبدالله بن عباس ، فأقبل داود على عبدالله بن الحسن (ع) الى أن يُظهر ابنه محمداً - وذلك قبل أن يملك بنو العباس - فقال عبدالله : لم يأت الوقت الذي يظهر فيه محمد بعد(١) .

وروى أبو الفرج أيضاً بسنده الى يعقوب بن عربي أنه قال : سمعت أباجعفر المنصور يقول فى أيام بني أمية ، وهو فى نفر من بني أبيه (عند محمد بن عبدالله بن حسن) : « ما فى آل محمد - صلى الله عليه وآله - أعلم بدين الله ، ولا أحق بولاية الأمر من محمد بن عبدالله ، وبايع له ، وكان يعرفني بصحبته والخروج معه . قال يعقوب بن عربي : فلما قتل محمد حبسني المنصور عشرة سنة »(٢) ، ولم يكتفوا بهذا الاغراء بل قاموا بتطبيقه بصورة عمليـــة وأظهروا احتياجهم الى زعيم تتمثل فيه المؤهلات الكافية لتكون البيعة له والدعوة باسمه . فانبرى عبدالله بن الحسن يخطب القوم ذات يوم مبيناً لهم مساويء الحكم الأموي وما نالهم فيه من الهوان والظلم ، وحث الناس على الاسراع في التضحية ثم ذيّل خطابه بترشيحه ولده محمد للزعامة لكفائته ورجحانه على غيره .

وطبعي أن مثل هذه الحالة لا ترضي الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) لما ينجم عنها من شق البيت العلوي على نفسه ، وهـــذا في رأيي هو أهم ما يهدف له بنو العباس من وراء تلك المحاولات . غير أنه لم يكن كافياً دون تقوية أحد الجانبين على الآخر والانحياز إلى احـــدهما ، وبدون شك فانهم اذا انحازوا الى آل الحسين (ع) فلابد من خروج الأمر من ايديهم . لما للامام الصادق (ع) من أثر يجعل الناس لا تعدل به سواه . إذاً فانحيازهم الى الحسنيين أمر لابد منه لانهم يعرفون كيف يتخلصوا منهم بأي وقت شاؤا . فانحازوا اليهم واخذوا يعقدون الاجتماعات للتداول في أمر الدعوة وهاهو أبو الفرج يحدثنا عن واحد منها فيقول :

« إن نفراً من بني هاشم اجتمعوا « بالابواء » من طريق مكة ، فيهم

---

(١) المقاتل طبع مصر : ص ٢٤٧ . (٢) المقاتل : ص ٢٥٣ .

وابراهيم الامام ، والسفاح ، والمنصور ، وصالح بن علي ، وعبد الله بن الحسن ، وابناه محمد وابراهيم ، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان فقام فيهم صالح بن علي وقال :

« إنكم القوم الذين تمتد أعين الناس اليهم ، فقد جمعكم الله في هذا الموضع فاجتمعوا على بيعة أحدكم فتفرقوا في الآفاق ، وادعوا الله . لعل الله أن يفتح عليكم وينصركم » فقام أبو جعفر المنصور وقال :

« لأي شيء تخدعون أنفسكم والله لقد علمتم ما الناس الى أحد أميل اعناقا ، ولا أسرع إجابة منهم الى هذا الفتى - وأشار بيده الى محمد بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن (ع) - قالوا : والله صدقت ، إنا لنعلم هذا فبايعوا جميعاً محمداً ، وبايعه ابراهيم الامام ، والمنصور والسفاح ، وسائر من حضر ذلك الاجتماع » (١) .

واستفاد بنو العباس من نتائج هذا الاجتماع بما اشغلوا به ذهنية من يخشون منهم المعارضة من آل الحسن (ع) بتلك البيعة التي كان سداها الكيد ولحمتها الغدر ، غير أن الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) اعترض على هذه البيعة ونصح لبني عمه في بيانه بأنها سابقة لأوانها وصرح بما يخبئه لهم المستقبل من نكبات . لما يراه من مواتات الامور لبني العباس « دون غيرهم من الهاشميين » ولكنهم لم يقتنعوا بذلك للطموح الذي اشربت به نفوسهم من جهة . ووثوقهم ببيعة بني العباس لهم من جهة أخرى .

واتخذ بنو العباس هذه الثقة التي تيقنوها من بني الحسن فيهم ستاراً تسللوا من خلاله الى الأقطار لاكمال مهمتهم التي يحاولون الوصول اليها ، وكانت الثورة حينذاك ناشبة بين الهاشميين والامويين أيام مروان بن محمد الخليفة الأموي وكان السهم الأوفر لبني العباس دون غيرهم في تعزيز جانب الثائرين فانهم ، قد ضاعفوا من

(١) المقاتل طبع مصر ص ٢٥٦ ، وكتاب أعلام الورى لائمة الاسلام الطبرسي ص ١٤٢ و ١٤٣

جهودهم في التصدي لقيادة تلك الثورة حتى ركزوا أنفسهم وأهلوها المسؤلية وأبقوا جماعة منهم في المدينة يتشاغلون في تأييد الحسنيين بصورة كانت الى الاغراء أقرب منهـــا الى الواقع فكانوا يجتمعون فيما بينهم للتداول في أمر الدعوة يقول أبو الفرج :

« وبيناهم مجتمعون ذات يوم ولم يكن محمد فيهم ، واذا برجل قد جاء الى ابراهيم الامام ونص عليه وشاوره ، فقام وتبعه العباسيون ، فسأل العلويون عن ذلك ، فاذا الرجل قد قال لابراهيم : قد اخذت لك البيعة في خراسان واجتمعت لك الجيوش ، فقام بنو العباس متكتمين في أمرهم حذراً من مغبة انتشاره في المدينة لما في رقابهم من البيعة لآل الحسن وتركوا المدينة وعادوا الى الحميمة بصورة سرية ليهيؤا أنفسهم الى الحملة الأخيرة وبعثوا بانصارهم الى الاقطار الاسلامية الأخرى لمحاولة بلورة شكل الدعوة وصرفها الى صالحهم بصورة خاصة .

يقول جرجي زيدان : أما دعاة الشيعة العلوية الذين كانوا يدعون للعلويين في العراق وفارس وخراسان قبل البيعة الى العباسيين فقد رضوا بذلك الانتقال غير مخيرين » (١) لأن ما هم بصدده من ازالة الحكم الأموي والقضاء عليه أهم من تعيين الخليفة .

---

(١) التمدن الاسلامى : ج ٤ ص ١١٦ الطبعة الثالثة .

ابو سلمة الخلال*

— ١ —

هو حفص بن سليمان الكوفي مولى بني الحارث بن كعب سمي بالخلال نسبة الى خلل السيوف وهي اغمادها فقد قيل : أنه كان أول أمره يعملها ، وهي مصدر ثروته . وكانت العرب تسمي من يعملها الخلال . ورواية أخرى تشير الى أن سبب تسميته بذلك هو انه كانت له حوانيت يعمل فيها الخل .

والحديث عن هذا الرجل هو حديث عن شخصية عصامية لعبت دوراً هاماً على مسرح السياسة في تلك الفترة من الزمن . نشأ فى الكوفة وترعرع فيها واندمج مع شبانها غير تارك ما تطمح به نفسه من مزاولة الأندية والمجالس وما تتطلبه طبيعتها من التحلي بصفتي العلم والأدب ، فجد في سبيلها حتى أصبح « عالماً وأديباً وفكهاً ممتعاً » . ولا يفوتنا أن ثراءه الواسع كان خير عون له فى التوصل الى ما تصبوا اليه نفسه . ومن مجموع هذا أصبحت له شخصية مرموقة فى المجتمع الكوفى ، يضاف الى ذلك ما عرف به من الخبرة الواسعة فى ضروب السياسة حتى قيل فيه :

---

* راجعنا فى كتابة هذا الفصل المصادر التالية : الجهشيارى : ص ٨٤ ، والفخرى : ص ١٣١ . والتمدن الاسلامى : ج ٤ ص ١١٦ ، والفرج بعد الشدة : ج ٢ ص ١٢٠ . وأعيان الشيعة : ج ٢٧ ص ٤٠٧ ، ومحاضرات فى تاريخ الامم الاسلامية ج ٢ ص ٢١ الى ٢٨ ومؤرخ العراق ابن الفوطى ج ١ ص ٦٠ و ٦١ ، وتاريخ الاسلام السياسى : ج ٢ ص ٨١ و ٨٢ ، والامامة والسياسة ج ٢ ص ١٥٢ الى ص ١٥٦ ، وتاريخ اليعقوبى : ج ٣ ص ٨٦ . ومروج الذهب : ج ٣ ص ١٨٢ وكتاب فى قصور الخلفاء العباسيين ص ١٢٠ . والكنى والالقاب ، والطبرى وابن الأثير حوادث سنة ١٢٨ الى سنة ١٣٢ هـ

« أنه كان عالماً في السياسة » ، ومما ساعد على سعة شهرته وتقدمه وهو في ذلك السن مناهضته للحكم الأموي عن طريق الدعاية السيئة لهم والتشهير باعمالهم ، وقد عرف عنه العباسيون هذه الناحية كما عرفوا عن سعة نفوذه الشخصي في العراق وخاصة في الكوفة ، فراح (بكير بن ماهان) وهو صهره ، وكاتب ابراهيم الامام الخاص يتقرب اليه ويستعين به للتعرف على المزيد من اخبار الكوفة الخفية عليهم ، وكان هو بدوره لا يألو جهداً في تقديم المساعدات له ، الأمر الذي ساعد الدعوة بان تتركز في الكوفة بفضل ما يبذله أبو سلمة من خدمات كبرى في سبيلها تجاوبا مع مبدإه وتقديراً لصهره ، فلما دنت الوفاة من صهره - بكير بن ماهان - إغتم بنو العباس من أجله وتبين ذلك عليهم فاشار لهم بتقريب أبي سلمة الخلال اليهم بقوله : « إن لي صهراً بالكوفة يقال له : أبو سلمة الخلال ، وقد جعلته عوضي في القيام بامر دعوتكم » ، فكان لهذه الوصية أعظم الأثر في توطيد ثقة ابراهيم الامام وبقية أقطاب الدعوة فيه . وكتب اليه ابراهيم بما أشار عليه بكير يعلمه بأنه قد أناط به مهمة تحمل مسؤلية القيام باعباء الدعوة كما يأمره بالسفر الى خراسان في الحال للوقوف على سير الدعوة هناك ، وكتب الى أهل خراسان يخبرهم بأنه قد اسند أمرهم الى أبي سلمة . واصبح مركزه في الكوفة نقطة الاتصال بين الحميمة وخراسان .

ومما زاد في ثقة الخراسانيين فيه تفانيه في سبيل الدعوة وبذله المال لهم بسخاء وتوطنه بينهم مدة غير قصيرة ، حتى جاءه أمر ابراهيم الامام يطلب منه الرجوع الى الكوفة . وقد استرعى هذا الأمر انتباه ابي سلمة ، وبعث فيه فكرة التحري عن نوايا العباسيين من وراء قيامهم بالدعوة كما أخذ يحسب لمستقبله معهم الف حساب وحساب . ثم راح يوازن بينهم وبين العلويين فاتضح له أن بني العباس (غير صالحين للامامة) لأنهم يظهرون غير ما يبطنون ، كما عرف أنه قد خدع بدعوة الحميمة التي كانت تسير باسم الرضا من آل محمد (ص) .

فلما كتب للدعوة أن تنجح وجد أبو سلمة أن الواجب يحتم عليه تعيين الخليفة وذلك في الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية الأموية « ترتعد تحت الخليفة الأموي الأخير ـ مروان بن محمد ـ وكان مروان نفسه لا يعرف اليد الكامنة التي تحرك هذه العاصفة » الى أن عثر على كتاب ابراهيم الامام لأبي مسلم الذي يأمره فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية فعرف مروان أن غريمه ابراهيم الامام ، فارسل في الحال الى عامله بدمشق يأمره بالكتابة الى صاحبه بالبلقاء أن يسير الى الحميمة ويأخذ ابراهيم بن محمد الامام ويوجهه اليه ، ففعل العامل ما أمر به وقبض على ابراهيم .

ولما أحس ابراهيم بما يراد به وأن نهايته تقترب أوصى بالأمر لأخيه السفاح وأمر أهله بمغادرة الحميمة الى الكوفة فامتثلوا أمره وغادروا مقرهم متجهين الى الكوفة ، فلما وصلوا اليها أنزلهم أبو سلمة في دار الوليد بن سعد الجمال مولى بني هاشم وكتم أمرهم عن الناس أربعين ليلة وقيل شهرين ، تمهيداً لما نوى على القيام به من صرف الأمر الى العلويين ولم تمض إلا أيام قلائل من ورودهم عليه حتى وافاه نبأ وفاة ابراهيم الامام مسموماً ، فلاقى هذا النبأ منه ارتياحاً بالغاً وكتمه على بني العباس وغيرهم ، واستمر في تشديد الرقابة عليهم إذ وكل بهم أناساً من خاصته يراقبونهم في عامة أحوالهم ريثما ينكشف له الأمر .

— ٢ —

وفي تلك الأيام التي كان فيها العباسيون تحت قبضة ابي سلمة ، رأى أبو سلمة أن يكتب الى العلويين في أمر إسناد منصب الخلافة لهم ، فكتب الى ثلاثة منهم يعرض عليهم ما اهتدى اليه مؤخراً ، وهم كل من الامام جعفر بن محمد (ع) وعبد الله المحض ، وعمر الأشرف بن الامام زين العابدين (ع) ، وسلم الرسائل الثلاث الى مولى من مواليهم الذين يقطنون الكوفة وأوصاه بقوله : اقصد أولا جعفر بن محمد الصادق (ع) فان أجاب فابطل الكتابين الآخرين ، فان لم يجب

فالق عبد الله المحض فان أجاب فابطل كتاب عمر الأشرف ، وان لم يجب فالق عمر ، فذهب الرسول حتى اذا وصل المدينة بدأ بابي عبد الله الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وسلمه الكتاب ليلا ، فاخذ الامام الكتاب بعد ما اعلمه الرسول بأنه من ابي سلمة الخلال ، فقال الامام : وما أنا وابو سلمة وهو شيعة لغيري ؟ فقال الرسول : تقرأ الكتاب وتجيب عليه بما رأيت ، فقال الامام لخادمه : أدن السراج مني فادناه فوضع الكتاب على النار حتى احترق ، فقال الرسول ألا تجيبه ؟ فقال قد رأيت الجواب ثم تمثل ببيت الكميت .

فيا موقـداً ناراً لغيرك ضوءها ويا حاطباً في غير حبلك تحطب

ثم مضى الرسول الى عبد الله المحض ودفع اليه الكتاب فقرأه وقبله وركب في الحال الى الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) وقال هذا كتاب أبي سلمة يدعوني فيه الى الخلافة قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان ، فقال له الصادق عليه السلام : ومتى صاروا أهل خراسان شيعتك ؟ أأنت وجهت إليهم أبا مسلم . هل تعرف منهم أحداً باسمه أو بصورته ؟ فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ؟ فقال عبد الله : كان هذا الكلام منك لشيء ، فقال له الصادق عليه السلام : قد علم الله اني اوجب النصح على نفسي لكل مسلم ، فكيف أدخره عنك ؟ فلا تمن نفسك الاباطيل ، فان هذه الدولة ستتم لهؤلاء ، وقـد جاءني مثل الكتاب الذي جاءك فانصرف عبد الله من عنده وقـد عدل عن الاستجابة لدعوة أبي سلمة . وأما عمر الأشرف فانه رد الكتاب وقال : أنا لاأعرف صاحبه فاجيبه .

والآن لنتساءل عما كان يقصده أبو سلمة من وراء تلك المحاولات ؟ أفهل أن ما فكر به من صرف الأمر الى العلويين كان بدافع الاخلاص لهم ؟ فان كان كذلك فلماذا لم يقم بمراسلتهم قبل مجيء العباسيين الى الكوفة والفرصة يومئذ سانحة له ، فيضم الكوفة المشهورة بعلويتها الى المدينة وهي مركز العلويين ، ويكون بهذا قـد ضمن النجاح لمحاولته في ابقاء بني العباس بين خطرين خطر الأمويين

الذين قاموا بمطاردتهم وخطره هو فى تحصنه بمركزه في الكوفة .

وحسب ما اعتقده أنه لم يفكر بهذا إلا عند ورود العباسيين الى الكوفة ونزولهم عليه وتعرفه بهم وفحصه لقابلياتهم . فاتضح له أن عظمته ستتلاشى أمام عظمة تلك النسور وأن ظله سيتقلص بما يراه من ازدياد نفوذ ابي مسلم فلذلك فكر فيما فكر فيه مؤخراً .

ثم أن هناك سؤال آخر له علاقته بعقيدة هذا الشخص . فانه اذا كان كما قيل علوي النزعة . فما هو معتقده أزيدياً ؟ أم إمامياً ؟ فان كان زيدياً فالزيدية ترى أن لا إمامة إلا لمن يقوم بالسيف . والحالة نرى الامام الصادق (ع) كان لا يرى هـذا وخاصة في تلك الفترة العصيبة ، وهو يمثل الامامية ولا يقر للزيدية بشيء .

وإن كان إمامياً لا كتفى برسالة واحدة الى الامام يعرض الأمر عليه دون إشراك الآخرين : غير أن الذي نراه من وراء إرسال تلك الرسائل هو قلقه الشديد وارتباكه على الاحتفاظ بمركزه كزعيم له نفوذه ، محاولا أن يظفر باحد هؤلاء الثلاثة فيستجيب له بتبنى فكرته ليفوز في محاولته وليأتي على العباسيين الذين تحت قبضته فيبيدهم عن آخرهم ، وبهذا العمل يكون قد ربح الموقف وكتب لشخصيته بروزاً أكثر .

ولكن هذه المحاولات لم تكن خفية على الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) فانه قد اكتشف أسرارها وأزاح الستار عن نوايا أبي سلمة وأعطى حكمه فى فشل سياسة أبي سلمة للرسول الذي بعثه اليهم بتمثله في بيت الكميت :

فيا موقداً ناراً لغيرك ضوءها ويا حاطباً فى غير حبلك تحطب

كما أنه لم يكتم نصحه لابن عمه عبد الله بل أخذ يلفت نظره الى خطل رأي أبي سلمة ، ويحذره عما يخبأه لهم المستقبل من فتن ومحن حينما يمسك بنو العباس على زمام الحكم .

ولقد أصاب عليه السلام في نظرته تلك كبد الحقيقة ، وذلك بما مني به أبو سلمة من الفشل الذريع ، فانه في الوقت الذي كان ينتظر فيه ردود العلويين بفارغ الصبر ، واذا بابي العباس يبرز من ذلك البيت خليفة للناس على الرغم من ابي سلمة رضي أم سخط .

واتضح لأبي سلمة نفسه خطل رأيه في تلك المحاولات التي جاءت متأخرة عن وقتها .

وكانت خاتمة المطاف لسياسته أن جاء صاغراً الى ابي العباس فقبل يده وبايعه بعد أن سمع في المجلس ـ عند دخوله اليه ـ مالا يحب سماعه . كما قد صار ماكان يخشاه ، فاصبح يتطلب رضا السفاح بكل وسيلة ، حتى أعلن عنه رضاه بعدما دبر خطة اغتياله .

الزعيم الحسني *

هوعبدالله المحض ـ بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن ابي طالب (ع) ـ شيخ الهاشميين والشخصية اللامعة فيهم ، وقد ساعد على ظهور شخصيته في تلك الفترة عوامل فعالة ومتأصلة فيه منذ الصغر وهي :

أولا : الوراثة ، وهوأول علوي اجتمعت له ولادة الحسن والحسين عليهما السلام ،

---

* رجعنا فى كتابة هذه الترجمة الى المصادر التالية : الاغانى ج ١٨ ص ٢٠٥ الى ٢٠٨ ، تاريخ ابن عساكر : ج ٧ ص ٣٥٤ ، شرح النهج لابن ابى الحديد ج ٣ ص ٤٧٤ و٤٧٥ . الطبقات الكبرى لابن سعدطبع ليدن : ج ٥ ص ٢٣٥ تنقيح المقال للمامقانى . ومروج الذهب : ج ٣ ص ٣١١ مقاتل الطالبيين طبع مصر ١٨٠ . البيان والتبيين ج ١ ص ٢٥٠ و ٢٦٣ . ومؤرخ العراق ابن الفوطى ص ٩٣ والاقبال للسيد ابن طاووس ص ٥٨٧

ومن أجله فقد لقب بالمحض . لأن امه فاطمة بنت الحسين (ع) وقد اختارها أبوها من بين ابنتيه لأبن اخيه الحسن المثنى ، فأنجبت له أربعة من الولد كان عبدالله أسنهم كما صار أعظمهم أثراً .

ثانياً التربية : ومعلوم ما للتربية الهاشمية من اثر على صقل نفوس ناشئتهم ، وابرازهم الى دنيا المسلمين مزودين بسلاح الاخلاق والهداية ، مطعمين بالأنفة والاباء ، والصبر والجلد فى سبيل بلوغ أمانيهم .

ثالثاً المحيط : وهو المدينة المنورة التي تعج باحفاد الصحابة ورجال الفكر والقادة ، وحسبنا منها تلك الأندية التي دون التاريخ ما يجري فيها من مختلف شؤون الفكر وما تتطلبه هذه الحياة من عتاد ، وما من شك بأن مثل هذه الأندية هي خير مساعـــد على تنمية فعالية الشباب الطامحين كما إنها من أعظم العوامل لابراز طاقاتهم .

وقد جعلت هذه العوامل الثلاث من عبدالله المحض زعيما من زعماء الهاشميين المرموقين ، وخطيباً بارعاً من خطبائهم الموهوبين ، لما يتحلى به من علم واسع ، وأدب رفيع ، وبيان حلو ، وفكر ثاقب ، وخلق سام ، وصورة حسنة . حتى كان « اذا قيل من اجمل الناس ؟ قالوا : عبدالله ، فاذا قيل من أكرم الناس ؟ قالوا : عبدالله ، فاذا قيل من أشرف الناس ؟ قالوا : عبدالله ، فاذا قيل من أفضل الناس ! قالوا : عبدالله .

اخلاقه ومزاياه

يقول أبو الفرج فى المقاتل بسنده الى سعيد بن عقبة الجهني أنه قال : اني لعند عبدالله بن حسن بن حسن إذ أتاني آت فقال : هذا رجل يدعوك فخرجت فاذا بابي عدي الأموي الشاعر ، فقال : أعلم أبا محمد ، فخرج إليه عبدالله وابناه ، وهم خائفون ، فامر له عبدالله باربعمائة دينار ، وأمر له ابناه باربعمائة دينار ، وأمرت له هند - زوجة عبدالله - بمائتي دينار ، فخرج من عندهم بالف

دينار . وقد كان يصدر منه مثل هذا كثير وخاصة في أيامه الاخيرة .

أما بلاغته فقد كان « أمراء الدولتين يهابونه ويحسبون لأثرها على النفوس الف حساب وحساب ، فمن ذلك ما يحدثنا به ابن ابي الحديد عما قاله الجاحظ فى رسالته يقول : وفد عبدالله المحض على عمر بن عبدالعزيز أيام خلافته فلما وصل اليه اكرمه وأجله ولكنه لم يمكنه من أن يبيت فى الشام ، وكان فيما قال له : الحق باهلك فانك لم تبغهم شيئاً انفس منك ولا أرد عليهم من حياتك . أخاف عليك طواعين الشام ـ وستلحقك الحوائج على ما تشتهي وتحب » يقول الجاحظ : وإنما كره أن يروه ويسمعوا كلامه فلعله يبذر فى نفوسهم بذراً أو يغرس في صدورهم غرساً .

أما أمير الدولة الثانية أبو جعفر المنصور فكان يصف كلام عبدالله بالسحر، ويقول ما ساير عبدالله بن الحسن أحداً إلا فتله عن رأيه .

أما علمه فقد كتب له أن يكون مورداً ينتهل منه الكثير من رجال عصره كرؤساء المذاهب وكبار العلماء ، وقد احتج مالك بن انس برأيه في بعض المسائل الفقهية منها مسألة السدل في الصلاة (١) وكان يقول فيـــه رأيت او سمعت من يرضى فعله .

وسأله اليقطري ، فقال له : ما تقول فى المراء ؟ فقال : ما عسى أن أقول فى شيء يفسد الصداقة القديمة ويحتل العقدة الوثيقة ؟ وإن كان لأقل ما فيه أن يكون دربة المغالبة ، والمغالبة من أمتن اسباب الفتنة .

وكان عبدالله يطعم اولاده بالمثل الساميـــة ، والصفات النبيـــلة ،

---

(١) والسدل . هو أن يضع وسط الرداء على رأسه ويرسل طرفيه عن يمينه وشماله من غير أن يجعلهما على كتفيه وهو شعار اليهود ـ ، ومنه حديث علي (ع) إنه رأى قوماً يصلون وقد سدلوا ثيابهم فقال : كأنهم اليهود ـ راجع النهاية لابن الاثير ج ٢ ص ١٦٧ ومجمع البحرين مادة سدل ـ

ويحفزهم على النهوض بها فمن ذلك قوله فى وصيته لابنه محمد :

« أي بني ، إني مؤد اليك حق الله فى تأديبك فأد الي حق الله فى حسن الاستماع ، أي بني كف الأذى وارفض البذاء واستعن على الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك نفسك فيها الى القول ، فان للقول ساعات يضر فيها الخطأ ولا ينفع فيها الصواب ، واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً كما تحذر مشورة العاقل اذا كان غاشاً ، يوشك أن يورطاك بمشورتهما فيسبق اليك مكر العاقل وتوريط الجاهل . »

مكانته عند الامام الصادق (ع)

ونكتفي منها بما ذكره السيد ابن طاووس (رض) في الاقبال وهذا نص ما ذكره السيد يقول :

« وسأذكر تعزية لمولانا جعفر بن محمد الصادق عليه السلام كتبها الى بني عمه رضوان الله عليهم لما حبسوا ليكون مضمونها تعزية عن الحسين (ع) وعترته واصحابه رضوان الله عليهم ، رويناها باسنادنا الذي ذكرناه من عدة طرق الى جدي ابي جعفر الطوسي عن المفيد محمد بن محمد بن النعمان والحسين بن عبيدالله عن ابي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه عن محمد بن الحسن بن الوليد عن محمد ابن الحسن الصفار عن محمد بن الحسين بن ابي الخطاب عن محمد بن ابي عمير عن اسحاق ابن عمار .

ورويناها ايضاً باسانيدنا الى جدي ابي جعفر الطوسي عن ابي الحسين احمد بن محمد بن سعيد ابن موسى الاهوازي عن ابي العباس احمد بن محمد بن سعيد ، قال : حدثنا محمد بن الحسن القطراني قال : حدثنا حسين بن أيوب الخثعمي قال : حدثنا صالح بن ابي الاسود عن عطية بن نجيح بن المطهر الرازي واسحاق بن عمار الصيرفي قالا معاً : إن أبا عبدالله جعفر بن محمد عليه السلام كتب الى عبدالله بن الحسن رضي الله عنه حين حمل هو وأهل بيته يعزيه عما صار اليه :

بسم الله الرحمن الرحيم الى الخلف الصالح والذرية الطيبة من ولد اخيه وابن عمه .

أما بعد فلان كنت تفردت انت وأهل بيتك ممن حمل معك بما أصابكم ما انفردت بالحزن والكآبة واليم وجع القلب دوني ، فلقد نالني من ذلك من الجزع ، والقلق ، وحر المصيبة مثل ما نالك ، ولكن رجعت الى ما أمر الله جل جلاله به المتقين من الصبر وحسن العزاء حين يقول لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم « فاصبر لحكم ربك فانك باعيننا » وحين يقول : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت » وحين يقول .. وحين يقول الخ . يقول : واعلم أي عم وابن عم إن الله جل جلاله لم يبال بضر الدنيا لوليه ساعة قط ، ولا شيء احب اليه من الضر والجهد والاذاء مع الصبر ، وإنه تبارك وتعالى لم يبال بنعيم الدنيا لعدوه ساعة قط :.. الى أن يقول : ولولا ذلك ما بلغنا أن رسول الله (ص) كان اذا خص رجلا بالترحم عليه والاستغفار استشهد فعليكم يا عم وابن عم وبني عمومتي وإخوتي بالصبر والرضا والتسليم والتفويض الى الله عز وجل والرضا والصبر على قضائه والتمسك بطاعته ، والنزول عند أمره · افرغ الله علينا وعليكم الصبر وختم لنا ولكم بالأجر والسعادة وانقذكم وإيانا من كل هلكة بحوله وقوته إنه سميع قريب وصلى الله على صفوته من خلقه محمد النبي وأهل بيته » ·

ويأتي السيد (رض) فى التعليق على هذه الرسالة الكريمة ليقيم الحجة منها على الذين يسيئون الى شخصية عبدالله وطعنهم فيه بعدم الانسجام مع الامام جعفر ابن محمد الصادق عليه السلام . فيقول : وهذا آخر التعزية من أصل صحيح بخط محمد بن علي بن مهجناب البزاز تاريخه في صفر سنة ثمان واربعين واربعمائة ، وقد اشتملت هذه التعزية على وصف عبدالله بن الحسن بالعبد الصالح والدعاء عند جانبها له وابني عمه بالسعادة ودلائل الصفا الراجح وهذا يدل على أن هذه الجماعة

المحمولين كانوا موالين للصادق (ع) ومعذورين وممدوحين ومظلومين وبحبه عارفين

ويقول ابن طاووس : وقـــد يوجد في الـكتب أنهم كانوا للصادقين عليهم السلام مفارقين ، وذلك محتمل للتقية لئلا ينسب اظهارهم لانكار المنكر الى الأئمة الطاهرين ، ومما يدلك على أنهم كانوا عارفين بالحق وبه شاهدين ما رويناه باسنادنا الى ابن العباس احمد بن نصر بن سعد من كتاب الرجال مما خرج منه وعليه سماع الحسين بن علي بن الحسن وهو نسخة عتيقة بلفظه قال : اخبرنا محمد ابن عبدالله بن سعيد الـكندي : قال : هذا كتاب غالب بن عثمان الهمداني ، وقرأت فيه اخبرني خلاد بن عمير الـكندي مولى حجر بن عدي الـكندي قال : دخلت على ابي عبدالله الصادق عليه السلام فقال : هل لـكم علم بآل الحسن الذين خرج بهم مما قبلنا وكان قد اتصل بنا عنهم خبر فلم نحب أن نبدأه به فقلنا نرجوا أن يعافيهم الله . فقال : واين هم من العافية ، ثم بكى حتى علا صوته وبكينا . ثم قال : حدثني ابي عن فاطمة بنت الحسين (ع) قال سمعت ابي (ع) يقول يقتل منك او يصاب منك نفر بشط الفرات ما سبقهم الأولون ولا يدركهم الآخرون ، وأنه لم يبق من ولدها غيرهم .

يقول السيد ابن طاووس : وهذه شهادة صريحة من طرق صحيحة بمدح المأخوذين من بني الحسن (ع) وانهم مضوا الى الله بشرف المقام والظفر بالسعادة

ولعل هذا القدر مما دلل به السيد ابن طاووس كافياً لاشباع نهمة المتتبعين الى معرفة مكانة شخصية عبدالله المحض من الامام الصادق (ع) وأن ما احتج به بعض المتأخرين من الذهاب الى عكس هذا فليس له مجال من الصحة لأن اقل ما يقال عنه ضعف بعض رجال سندهم والجهل بحال بعضهم هذا وهي رواية واحـــدة والرواية لا تقوم دليلا على دحض ما أقامه السيد من البراهين على صحة حالهم واستقامتهم على الموالاة للامام الصادق (ع).

مكانته السياسية

في اوائل تشكيل الحكم العباسي دخل الحسنيون في مرحلة جديدة من النزاع مع القائمين بالحكم وكان على رأسهم عبدالله المحض واولاده الخمسة واخوته وبنو اخوته ما عدا آل زيد بن الحسن .

وقد اتخذ هؤلاء في مناهضتهم لذلك الحكم تشكيلات كثيرة من المنظمات السرية وكان نقطة الاتصال بين محمد ذي النفس الزكية وبين تلك المنظمات هو هذا الشيخ الحسني وكان يهيب بالآخرين لمساعدتهم في هذه المهمة ، وكان العباسيون يشعرون بهذا كله فاهتموا له اهتماماً كبيراً .

المصب*

— ١ —

وتم لبني العباس – بعد نضال مرير دام بين اليأس والرجاء مدة غير قصيرة – ما يتوقعون من الحصول عليه ، فاصبحت خلافة المسلمين لهم ، ونودي بابي العباس خليفة في الكوفة ، وانقادت لهم الامور عن طريق الرهبة والرغبة . وذهبوا وعلى رأسهم الخليفة الجديد الى القيام بانشاء مدينة الانبار لجعلها عاصمة لملكهم . غير أن الذي كان يقلق بالهم ولا يجمل لهم استقرار هو ما يشعرون به

* مراجع هذا الفصل هي : تاريخ بغداد للخطيب : ج ٧ ص ٢٧٣ ، ومقاتل الطالبيين طبع مصر ص ١٧٤ وغاية الاختصار في اخبار البيوتات العلوية المحفوظة من الغبار : ص ٢٨ ، ومؤرخ العراق ابن الفوطي ج ١ ص ٩٨ . والعقد الفريد ج ٣ ص ٣٥ مطبعة الزاهرة سنة ١٣٠٢ ه . والاغاني ج ١٨ ص ٢٠٨ . وتاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٩٦ .

من الخطر الجسيم في وجود محمد ذي النفس الزكية ، الذي سبق وأن بايعوا له في مؤتمر الأبواء ، فلابد اذاً من تحديد موقفهم حياله لاجتياز هذه العقبة الكأداء التي تقف أمامهم ، فاستعدوا لمجابهة الموقف بشتى ضروب السياسة ، وفي هذا يقول أبو الفرج : « ولما ملكوا حرص السفاح والمنصور على الظفر بمحمد وابراهيم لما في اعناقهم من البيعة لمحمد الخ . »

وكان اول ما فكر به أبو العباس السفاح هو دعوة عبدالله بن الحسن والد محمد ذي النفس الزكية ومن يرغب بصحبتهم من الطالبيين الى الكوفة للتفاوض معه في هذا الشأن علّه يزيل بعض ما في النفوس ، ويذهب بعض المؤرخين ومن بينهم معالي العلامة الشبيبي الى أن بني الحسن لم يأتوا الى ابي العباس بدعوة منه بل إنما وفدوا عليه من تلقاء انفسهم يقول : ولما استخلف أبو العباس السفاح وفدت عليه ـ وهو في الانبار قاعدة ملكه الجديدة ـ وفود العرب من كل فج وكان في طليعتها وفد كبير من الطالبيين والعلويين وكلهم من أهل المدينة يتقدمهم عميد بني الحسن عبدالله بن الحسن وأخوه الحسن الخ . » والذي يترجح لدينا أن الحسنيين بصورة خاصة إنما قدموا عليه بدعوة منه لما تفرضه عليه طبيعة الظرف الذي هو فيه من تصفية الجو وإزالة الوحشة من النفوس بين البيتين ولا يستبعد هذا على ابي العباس لما عرف عنه من المرونة واللين في عامة ادوار حياته مع الحسنيين يقول أبو الفرج : ولما قدم عبدالله على أبي العباس وآخاه وآثره وكان يتفضل بين يديه في ثوب ، وقال له ما رأى أمير المؤمنين غيرك على هذا الحال ، ولكن أمير المؤمنين إنما يعدك عماً ووالداً ، ثم عطف عليه قائلا : إني كنت أحب أن اذكر لك شيئاً . فقال عبدالله : ماهو يا أمير المؤمنين ؟ فذكر ابنيه محمداً ، وابراهيم ، وقال ما خلفهما ومنعهما أن يفدا مع من وفد عليّ من أهل بيتهما ، قال : ماكان تخلفهما لشيء يكرهه أمير المؤمنين .

يقول معالي العلامة الشيخ محمد رضا الشبيبي : « ولم يكن الغرض من ذلك

الالحاف تفقداً أو حباً وإنما هو الاطمئنان والوقوف على مذهب الأخوين أو نيتهما في طلب الخلافة ، وفى وسعك أن تحكم على سياسة السفاح ومبلغ مجاملته لبني الحسن من تظاهره بقبول المعاذير عن الأخوين الغائبين على مضض» فمن ذلك ما ابداه مرة اخرى فى التساؤل مع عبدالله ، واعتذار عبدالله له بمثل عذره السابق فاشتد معه بقوله : غيبتهما بعينك ، أما والله ليقتلن محمد على سلع ، وليقتلن ابراهيم على النهر العياب .

فرجع عبدالله ساخطاً مكتئباً ، فقال له أخوه الحسن بن الحسن (١) : مالي أراك مكتئباً ، فاخبره ، فقال : هل أنت فاعل ما أقول لك ؟ قال : ما هو ؟ قال : إذا سألك عنهما فقل : عمهما الحسن أعلم الناس بهما ، فقال : وهل أنت محتمل ذلك لي ؟ قال : نعم .

فدخل عبدالله على أبي العباس كما كان يفعل ، فرد عليه ذكر ابنيه ، فقال له : عمهما يا امير المؤمنين أعلم الناس بهما فاسأله عنهما ، فصمت عنه حتى افترقا ، ثم أرسل الى الحسن فقص عليه ذلك ، فقال : يا امير المؤمنين ، اكلمك على هيبة الخلافة ، أو كما يكلم الرجل ابن عمه ؟

قال : بل كما يكلم الرجل ابن عمه ، فانك وأخاك عندي بكل منزلة .

قال: إني أعلم أن الذي هاج لك ذكرهما بعض ما قد بلغك عنهما ، فانشدك الله

---

(١) يعرف بالحسن المثلث وهو الحسن بن الحسن المثنى بن الحسن السبط (ع) ولد سنة ٧٧ للهجرة ونشأ فى المدينة أمه فاطمة بنت الامام الحسين عليه السلام يقول ابن ابى الحديد فيما حكاه عن الجاحظ وغيره من المفاخرة بين هاشم وامية . وكان الحسن المثلث : متألهاً فاضلا ورعاً يذهب فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مذهب أهله . وكان يقال له ـ لسان العلويين ـ وتفصيل مراحل حياته داخل فى هذه الموسوعة . وكان من الذين القاهم المنصور فى تلك السجون المطبقة فماتوا ابشع ميتة وذلك سنة ١٤٥ للهجرة الخ .

هل تظن أن الله إن كان قد كتب فى سابق علمه أن محمداً وابراهيم وال من هذا الأمر شيئاً ، ثم أجاب أهل السماوات والارض بأجمعهم على أن يردوا شيئاً مما كتب الله لمحمد وابراهيم أكانوا رادّيه ؟ وإن لم يكن كتب لمحمد ذلك أنهم حائزون اليه شيئاً منه ؟ فقال لا والله ، ما كائن إلا ما كتب الله . فقال : ففيم تنغيصك على هذا الشيخ نعمتك التي أوليته وإيانا معه ؟ قال : فلست بعارض لذكرها بعد مجلسي هذا ما بقيت إلا أن يهيجني شيء فاذكره .

ويذهب ابن عبد ربه في وصف حالة ابي العباس مع عبدالله وما داخله من الارتياب منه بقوله : « والذي خشن قلب ابي العباس حتى اساء به الظن أنه لما بنى مدينة الأنبار دخلها مع أبي جعفر اخيه وعبدالله بن الحسن وهو يسير بينهما ويريهما بنيانه وما اقام فيها من المصانع والقصور فظهرت من عبدالله فلتة فجعل يتمثل بهذين البيتين :

ألم ترجو شناً قد صار يبني	قصوراً نفعها لبني نفيله (١)
يؤمل أن يعمر عمر نوح	وأمر الله يحدث كل ليلة (٢)

فتغير وجه أبي العباس ، وقال له أبو جعفر : أتراها ابنيك والأمر صائر اليها لا محالة ؟ قال : لا والله ما ذهبت هذا المذهب ولا أردته ولا كانت إلا كلمة جرت على لساني لم ألق لها بالا ، فاوحشت تلك الكلمة أبا العاس . يقول ثم آن خروج بني الحسن من أبي العباس فارسل معهم رجلا من ثقاته فقال له قم بانزالهم ولا تألو في الطافهم ، وكلما خلوت معهم فاظهر الميل اليهم والتحامل علينا وعلى

---

(١) ولهذا البيت صور شتى . ففى زهر الآداب : « حوشباً لما تبنى » ، وفى الاغانى : « ألم تر حوشباً أمسى يبنى » .

(٢) ويختلف أبو الفرج على نفسه فى هذا البيت فى كل من المقاتل والاغانى ؛ ففى المقاتل « أن يعمر الف عام » وفى الاغانى « أن يعمر عمر نوح » .

ناحيتنا . وإنهم أحق بهذا الامر منا واحص لي ما يقولون وما يكون منهم في مسيرهم ومقدمهم .

والشيء الذي يلاحظه الباحث في جميع هذه المراحل التي قضاها بنو الحسن مع بني العباس في تلك الأيام التي وردوا فيها الكوفة أنهم تتناول احاديثهم موضوع البيعة . « كما أن المؤرخين الذين عنوا بسرد قصصهم وأحاديثهم لم يشيروا اليها، ولاشيء أهم من الدخول فيها اذ ذاك » ومن الجائز أن يكون العلويون قد اتفقوا فيما بينهم على غلاق كل حديث يمت اليها بصلة ، ولما عرف السفاح منهم ذلك لم يلح عليهم رغم رغبته ، وليس ذلك إلا « لخبرته بدخائل بني عمه الهاشميين وإلمامه بما يخالج نفوسهم من الشعور بالأنفة والاباء » ولأجله فقد جعل معهم ذلك العين حينما غادروا الانبار ليحصي له ما هم صانعون او متكلمون .

وحينما جاء عبدالله المدينة اجتمع به ولده وسألوه عن كل صغيرة وكبيرة فاخذ يشرح لهم الحالة هناك مبيناً لهم خطورة الموقف باجلى مظاهرها ، وكان الرجل الذي بعثه السفاح حاضراً أحديثه فحفظ كل ما دار بينهم، وتعرف على بعض احوال محمد وابراهيم ، فلما عاد الى ابي العباس اطلعه على جميع ما شاهده من بني الحسن فوغر صدره عليهم واشتد غضب المنصور لما سمع » .

وهكذا فقد اخذوا يتعقبون اخبارهم بكل ما أوتوا من حول وقوة ، وكانت الفرصة سانحة لمبغضي آل علي ، وضعاف النفوس الذين يتزلفون ويتملقون ذوي النفوذ من الحكام ، فاهتبلوها بخلق الاخبار الكاذبة والوشايات المفتعلة عن العلويين وكان كل ذلك يجد في العباسيين المكان الخصب ، وفي نفوسهم الهوى والرغبة ، وحتى أصبح العباسيون ميداناً يتسابق اليه بالمين والاختلاق ذوو الاغراض فكل يتفنن في تهويل وضع العلويين حسب ما أوتي من لباقة ومقدرة ، فضاق أبو العباس من ذلك ذرعاً ، ولم يكن منه إلا أن كتب لعبدالله المحض كتاباً شفعه بهذا البيت :

أريد حياته ويريد قتلي | عذيرك من خليلك من مراد

فلما وصل الكتاب الى عبدالله أجابه :

وكيف يريد ذاك وأنت منه | بمنزلة النياط من الفؤاد
وكيف يريد ذاك وأنت منه | وزندك حين يقدح بالزناد
وكيف يريد ذاك وانت منه | وأنت لهاشم رأس وهاد

والتزم عبدالله مع أبي العباس جانب الحياد كما طلب من إبنه أن يلزمه ولا يهيجه باذى ريثما تنقضي أيامه والتزم محمد الرضوخ لأمر أبيه . فكان أبو العباس كلما بلغه عن محمد ما يؤذيه ذكر ذلك لعبدالله عن طريق المراسلة فيقول عبدالله في بعض اجوبته له : « يا امير المؤمنين إنا نحميها بكل قذاة يخل ناظراك منها » فيقول ابوالعباس : « بك أثق وعلى الله أتوكل » .

وبهذا الضرب من السياسة قد ظمن أبو العباس لنفسه الراحة من تظاهر الحسنيين له بالعداء والمقاومة ، وكم كان أبو جعفر المنصور يخاطبه في تغيير هذه السياسة فمن ذلك قوله له : « إن هؤلاء شنؤنا فآنسهم بالأحسان فان استوحشوا فالشر يصلح ما عجز عنه الخير ، ولا تدع محمداً يمرح في أعنة العقوق . فقال السفاح : « من شدد نفر ، ومن لان تألف ، والتغافل من سجايا الكرام (١) .

وشاءت الصدف أن يكون المنصور أميراً لموسم الحج في عهد اخيه ابي العباس ولما وصل المدينة حضره بنو هاشم جميعاً إلا محمد وابراهيم ، فسأل المنصور عنهما ؟ فقال له زياد بن عبيدالله الحارثي أمير المدينة : ما يهمك من أمرهما أنا آتيك بهما فضمنه إياهما وأبقاه عاملا على المدينة . ثم إنه دعا بني هاشم رجلا رجلا كلهم يخليه فيسأله عن محمد فيقول : يا أمير المؤمنين قد علم أنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم فهو يخافك على نفسه وهو لا يريد لك خلافاً ولا يحب لك معصية وما اشبه

(١) شذرات الذهب للعماد الحنبلي المتوفى سنه ١٠٨٩ ; ج ١ ص ١٥٩ .

المقالة إلا الحسن (١) بن زيد بن الحسن بن علي (ع) فانه اخبره خبره وقال : والله ما آمن وثوبه عليك فر رأيك ، فايقظ بقوله من لا ينام .

— ٢ —

لقد أثار إمتناع الاخوين محمد وابراهيم عن الحضور في مجلس المنصور بالمدينة - عند جولته في ربوع الحجاز لأخذ البيعة لأخيه السفاح - مع من حضر من اسرتهم شكوك ابي جعفر وارتيابه في ولائهم لعرش الخلافة ، وخشي أن تؤدي سياسة اخيه السفاح التي عرفت بالتساهل واللين مع هؤلاء الى نفس المصير الذي أدت

(١) والحسن بن زيد هذا هو أمير المدينة من قبل المنصور . ولد عام ٨٨ هج على اشهر الأقوال ونشأ فيها . وكان كأبيه بالنسبة الى أهل بيته ، فانه قد انخرط في سلك المشايعين للدولة العباسية ، فكان مظاهراً لرجالها على بني عمه الحسن المثنى ، وهو أول من لبس السواد (شعار العباسيين) من العلويين وفي أيام ولايته على المدينه أمر أبو جعفر المنصور بحرق دار الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) فاحرقت . ولست ادرى كيف عد من جملة أصحاب الصادق وهو بهذه الحالة من الاساءة لهم .

وكان الى جانب هذا سمحاً كريماً حتى عد من اجواد الطالبيين . تولى إمارة المدينة خمس سنوات وفي السنة الخامسة غضب عليه المنصور فعزله عنها ، واستلب جميع ما عنده ، وحبسه ببغداد ، فلم يزل محبوساً حتى مات المنصور ، فلما ولي المهدي الامر من بعد أبيه اخرجه من الحبس ورد عليه كل شيء ذهب له . ولم يزل معه حتى خرجا يريدان الحج ، وكان الماء في الطريق قليلا فخشي المهدي على من معه العطش فرجع ولم يحج تلك السنة ومضى الحسن بن زيد يريد مكة ، فأشتكى أياماً ثم مات بالحاجر فدفن هناك وذلك في سنة ١٦٨ هج .

قف على تفاصيل ذلك في اعيان الشيعة ج ٢١ ص ٣٠٨ - ٣٢٤ ومناقب ابن شهراشوب ص ٣١٥ و ٣١٦ ، وعمدة الطالب ص ٥٥ ، والكامل لابن الأثير ج ٥ ص ٢٤٣ و ٢٦١ ، ومؤرخ العراق ابن الفوطي ص ٩٥ ومحاضرات في تاريخ الامم الاسلامية ج ٢ ص ٦٠ و ٦١ ، وراجع ص ٢٨ من هذا الكتاب .

اليه الدولة الأموية ، فرجع وقلبه مفعم بالحنق الشديد عليهما ، واخذ يلح على اخيه بابدال سياسته معهم ، وابدى له مخاوفه على مركزهم من جراء وجود محمد ذي النفس الزكية ، ولكن السفاح لم يستجب لرأيه وظل متمشياً مع رغبات الهاشميين وعلى الاخص مع الحسنيين لثقته بوعود عبدالله المحض في عدم المعارضة له من جهة وليحتفظ بما لديه من قوى ليوجهها الى المعارضين الآخرين من جهة اخرى .

ولم تكن هناك فتنة تهمهم اكثر من فتنة ابن هبيرة (١) الرابض بالقرب من مهد مملكتهم والذي يقاتل لحساب الامويين ، ولما علم بزوال ملكهم كتب (٢) الى محمد ذي النفس الزكية يعلمه بانه يدعو له وهو يقاتل من أجل ذلك . ولكن الرسالة ويا لسوء الصدف جاءت الى محمد بعد استسلام ابن هبيرة أما السبب الذي تأخرت من اجله الرسالة فلم نقف عليه .

واستسلم ابن هبير بعد ما اعطاه المنصور أماناً حسب ما يرتضيه، وكادت الحالة أن تهدأ فتعود المياه الى مجاريها بفضل ما يبذله ابو العباس من العطف واللين لجميع

(١) هو يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري . كان أميراً جليلا . وقائداً مدبراً . وشجاعاً باسلا . واسع المروءة . عظيم الخطر . يقسم على زواره في كل شهر خمسمائة درهم . ولاه مروان بن محمد العراقين فظل فيها خمس سنين . ولما ظهرت الدعوة العباسية صمد لها وحاول مقاومتها . وكان مشيروه قد أشاروا عليه بان يذهب الى الكوفة فيقاتل حتى يقتل او يظفر وحذروه واسطاً كيلا يصير في حصار وليس بعد الحصار إلا القتل فخالف تلك الشورى . وسير أبو سلمة اليه الجيوش تحت قيادة الحسن بن قحطبة الطائي فالجأه الى التحصن بواسط فيمن بقي معه . ولما تمت البيعة لابي العباس السفاح وولى أخاه أبا جعفر على واسط حاصره احد عشر شهراً . ثم صالحه على أن يكتب له اماناً بذلك . فمكث يشاور العلماء فيه اربعين ليلة حتى رضيه ابن هبيرة ثم انفذه الى ابي جعفر فانفذه أبو جعفر الى السفاح فامر بامضائه . ولكنهم بالتالي غدروا به وقتلوه . وكان لهذه الفعلة والحنث باليمين اكبر الأثر في استجابة الناس الى الحسنيين الناهضين لمعارضة ذلك الحكم .

(٢) الطبري مطبعة الاستقامة ج ٦ ص ١٠٧ .

طبقات الأمة عدا الأمويين الذين تتبعهم قتلا وتمثيلا في كل مكان محاولة منه أن يرضي العلويين بما فيهم الحسنيين فيما يتظاهر فيه من الاخذ بثارهم من الامويين ، وهو بهذا العمل يكون قد رمى (حجراً بعصفورين) انتقاماً من العنصر الاموي القريب العهد بالخلافة ، وارضاء للهاشميين الذين وترهم الامويون ، وسبب آخر يكمن وراء ذلك كله ، وهو أن هذا الاسراف في قتل الامويين والتنكيل بهم لم يكن في واقعه لتلك الغاية التي أشرنا اليها فقط ، بل إنما كان الغرض منه إشاعة الخوف والرهبة في نفوس الآخرين من الذين تسول لهم انفسهم بالمعارضة ، ومن اجله فقد اطلق على نفسه لقب (السفاح) رمزاً للبطش والفتك .

ومجمل القول فيه أنه سلك مسلك الرجل اليقظ والسياسي المحنك في تدبير أمور دولته الناشئة لتثبيت قواعدها واستمر على ذلك حتى سنة ١٣٦ هج وهي السنة التي وافاه فيها أجله ، فخلفه أخوه الاكبر أبو جعفر المنصور . وقد كشرت له الفتن عن نابها . واضطرمت جذوة ثورات المبيضين وغيرهم في كل مكان ، ورأى الناس بفقدهم لأبي العباس أنهم فقدوا الهدوء والاستقرار ، وتراءت لهم سحب الفتن الهائجة يومذاك تبرق في كل من الشام والحجاز .

ففي الشام مثلا عمه عبدالله بن علي (١) يطالب بالخلافة باعتبار سنه واولويته

---

(١) وعبدالله بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب - هو من أنبه الامراء العباسيين - ندبه السفاح لقتال مروان الجعدي فظفر به وبغيره من امراء بني مروان في واقعة الزاب . وعلى يده انقرضت دولتهم . ومن ثم استخلص الشام ومصر . وكان ساعده الايمن في ذلك أخاه صالح بن علي الذي جهزه السفاح على طريق السماوة فطارد مروان وفلول الجيش الاموي الى مصر وقتله في (أبي صير) .

وعبدالله هذا هو عم السفاح كان يحدث نفسه بالخلافة بل كان يرى أنه احق العباسيين بعد السفاح بان يكون خليفة . وكان يظن أن ابن اخيه لا يعدوه في الوصية بولاية عهده لأنه نائبه في الجهاد وقيادة الجيوش وغزو الروم . ولكن السفاح عهد في مرض موته بولاية العهد الى اخيه المنصور ثم الى ابن اخيه عيسى بن موسى وما -

فيما كان يبديه من نشاط في بدء تأسيس الدولة . فلم يكن من المنصور إلا إرسال الجيش اليه بقيادة أبي مسلم الخراساني الذي تعهد له بالقضاء عليه ، فجاء أبو مسلم الى الشام ، والتقى الجمعان في (نصيبين) وكان عبدالله قد تأخر عن جيشه ، فاستطاع أبو مسلم أن يكتسح جيش عبدالله ويهزمهم ، وعند بلوغ خبر هزيمة الجيش الى عبدالله هرب متسللا الى البصرة والتجيء باخيه ليحتمي به . أما أبو مسلم فانه استولى على جميع ممتلكات عبدالله واخذها ولم يوصلها الى ابي جعفر ، فتيقظ أبو جعفر من عمله هذا ، فاخذ يستعطفه ويستميله حتى اوقعه فى الفخ وتعلقت فيه براثن غدر ابي جعفر فقتله شر قتلة .

أما المدينة فكان فيها الحسنيون ، وقد الجأهم المنصور بما قام به من الاجراءات الصارمة كتشديد الرقابة عليهم ومنعهم العطاء ، واستهانة الولاة بهم الى الدفاع عن انفسهم ، والثأر لكرامتهم ، فاخذ محمد وابراهيم يضاعفان من جهدهما الى توسعة نطاق المنظمات السرية الرامية الى اطاحة الحكومة العباسية لتقام بعدها خلافة علوية يرأسها خليفة علوي . كانا يقومان بهذا فى المدينة ويعضدهما الكثير من العلويين واحفاد الصحابة على ذلك .

ولكن المنصور لم يكن يدخر وسعه دون القضاء على دعوة محمد وابراهيم وقد توخى كل وسيلة توصله في بداية الأمر الى معرفة اخبار محمد الخفية عليه ، فجعل للتجسس على ذلك شبكة واسعة النطاق وفرض للقائمين بها فروضاً مالية جسيمة وكان يعدهم بالحضوة عنده إن هم توصلوا الى نتيجة يرضاها يقول الطبري :

« فاشترى أبو جعفر رقيقاً من رقيق الاعراب ، ثم اعطى الرجل منهم

ـ أن علم عبدالله بن على ببيعة المنصور فى العراق ، حتى جاهر بالدعوة الى نفسه وعدل بجيشه الى العراق . والسبب الرئيسى فى فشله بتلك الحركة هو عدم خبرته السياسية . راجع مؤرخ العراق بن الفوطى ص ٤١ . وغيره .

البعير ، والرجل البعيرين ، والرجل الذود (١) وفرقهم في طلب محمد فى ظهر المدينة فكان الرجل منهم يرد الماء كالمار وكالضال فيفرون عنه ويتجسسون .

وهذا لون آخر من ألوان التجسس الذي فرضه أبو جعفر على محمد ذي النفس الزكية واخيه يحدثنا عنه أحد موالي المنصور ـ السندي بن شاهك ـ فيقول مخاطباً لمحمد بن عباد بن حبيب المهلبي : «أتدري ما الذي رفع عقبة بن سلم عند امير المؤمنين؟ قلت : لا . قال اوفد عمي عمر بن حفص وفداً من السند فيهم عقبة بن سلم فدخلوا على أبي جعفر فلما قضوا حوائجهم نهضوا فاسترد عقبة فأجلسه ثم قال له : من أنت؟ قال : رجل من جند امير المؤمنين وخدمه صحبت عمر بن حفص ، قال : ما اسمك؟ قال : عقبة بن سلم بن نافع ، قال : ممن أنت ؟ قال : من الازد ثم من بني هناءة ، قال : إني لأرى لك هيئة وموضعاً وإني لاريدك لأمر أنا معني به لم ازل أرتاد له رجلا عسى أن تكونه فان كفيتنيه رفعتك ، فقال : أرجو أن اصدق ظن امير المؤمنين في . قال : فاخف شخصك واستر أمرك وأتني فى يوم كذا وكذا فى وقت كذا وكذا ، فأتاه في ذلك الوقت . فقال له : إن بني عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيداً لملكنا واغتيالا له ، ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسلون اليهم الصدقات من أموالهم والطاف من ألطاف بلادهم ، فاخرج بكسي والطاف وعين حتى تأتيهم متنكراً بكتاب تكتبه عن أهل هـذه القرية ثم تسير ناحيتهم فان كانوا قد نزعوا عن رأيهم فاحبب والله بهم واقرب ، وإن كانوا على رأيهم علمت ذلك وكنت على حذر واحتراس ، فاشخص حتى تلقى عبدالله بن حسن متقشفاً متخشعاً فان جبهك وهو فاعل فأصبر وعاوده فان عاد فاصبر حتى يأنس بك وتلين لك ناحيته فاذا ظهر لك ما فى قلبه فأعجل علي ، قال : فشخص حتى قدم على عبـــدالله فلقيه بالكتاب فأنكره ونهره وقال ما أعرف هؤلاء القوم ، فلم يزل ينصرف ويعود اليه حتى قبل

(١) الذود من الأبل ما بين الثلاث الى العشرة وهى مؤنثة لا اواحـد لها وجمعها اذواد .

كتابه وألطافه وأنس به فسأله عقبة الجواب فقال : أما الكتاب فاني لا اكتب الى احد ، ولكن انت كتابي اليهم فاقرأهم السلام واخبرهم أن ابني خارجان لوقت كذا وكذا قال : فشخص عقبة حتى قدم على ابي جعفر فاخبره الخبر .

ولم تكن هذه البادرة محمودة من عبد الله لطغيان الجانب العاطفي عليه وتناسيه المسؤلية الملقاة على عاتقه ، وافشاءه اسرار ولده التي احاطها بكل ما يستطيع به من الكتمان ، وحينما علم محمد بالأمر قرر ترك المدينة فخرج متوجهاً الى العراق ليبذر دعوته هناك لما تيقنه من عدم الرقابة فيه عليه وخصوصاً بعد أن اطلع المنصور على اسرار ذلك الجاسوس . وقدم محمد البصرة ونزل على احد انصاره فيها يقال له : عبد الله بن شيبان من بني مرة بن عبيد ، فأقام ستة أيام ، فبلغ المنصور قدومه البصرة « فأقبل مغذاً(١) كما تقول الرواية حتى نزل الجسر الأكبر ، يقول الزعفراني وهو احد الحضور لما نزل المنصور الجسر اردنا عمراً للقائه فأبى حتى غلبناه ، فلقيه ، فقال له أبو جعفر : يا أبا عثمان هل بالبصرة أحد نخافه على أمرنا ؟ قال : لا . قال : فأقتصر على قولك وأنصرف ؟ قال نعم ، فانصرف وكان محمد قد خرج منها قبل مقدم أبي جعفر اليها بستة أيام ، وذهب الى عدن ثم الى السند ، ثم الى الكوفة ، ومنها الى المدينة .

وقد كان لرحلة محمد هذه اكبر الأثر في استفزاز شعور الناس ضد المنصور بما اوجده من الوعي في تلك الأقطار التي اجتازها وخاصة البصرة لما فيها من العلماء الذين يعرفون لمحمد فضله وهديه منهم اولئك الذين تلمذوا على ابيه . الأمر الذي جعلهم يحصون على ابي جعفر كل هناة ويتطلعون الى نجاح دعوة محمد بكل لهفة .

---

(١) مسرعاً

النفس الزكية *

١٠٠ ١٤٥ هج

التعريف به

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن الأمام علي بن ابي طالب (ع)

أمه : هند بنت أبي عبيدة بن عبد الله بن زمعة بن الاسود بن المطلب بن اسد ابن عبد العزى بن قصي . تزوج بها عبد الله بعد ان مات عنها زوجها الأول عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، وقد كان المحفز له على اختياره لها هو ما عرفت به أسرتها من النبل وطيب المحتد يقول أبو الفرج : وكان أبو عبيدة من سادات قريش واجوادها ، ويستمر في سرد قصة زواج عبد الله بهند فيقول : لما مات عبد الله بن عبد الملك ورجعت هند بميراثها منه ، قال عبد الله بن الحسن لأمه فاطمة : اخطبي

---

* رجعنا في كتابة هذا الفصل الى المصادر التالية : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٠٩ وتاريخ الكامل لابن الأثير ج٥ ص ١٩٠ المقاتل طبع مصر ص ٢٣٢ الى ص٢٥٧ وتاريخ الخلفاء الراشدين للسيوطي ص ٢٣٤ و ٢٦١ ، والفخري ص ١٤٢ وعمدة الطالب ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ط النجف ، وطبقات ابن سعد ج ٣ ص ١٧٣ ط ليدن وميزان الاعتدال ج ٢ ص ٥٧ ، والصواعق المحرقة ص ١٩٠ . وفرق الشيعة ٥٩ ومحاضرات في تاريخ الدول الاسلامية ج ٢ ص ٦١ الى ٦٨ ، ومؤرخ العراق ابن الفوطي ج ١ ص ٩٦ ، وتاريخ الطبري ج ٦ ص ١٩٠ ، ومختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي للسيد أمير علي ص ١٨٩ ، والعمدة لابن رشيق ج ١ ص ٥٨ ، وتاريخ القطبي ص ٨٨ ، وتنقيح المقال ج ٣ ص ١٤٠ و ١٤١ والمهدية في الاسلام ص ١١٢ و ١٢٥ ، تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ١١٠ و ١١٢ وتاريخ الخميس ج ٢ ص ٣٦٤ و ٣٦٥

لي هنداً . فقالت : إذن تردك ، اتطمع في هنـد وقد ورثت من عبد الله ما ورثته وأنت ترب لامال لك ؟ فتركها ومضى الى ابي عبيدة والد هند ، فخطبها اليه، فقال : في الرحب والسعة ، أما مني فقد زوجتك ، مكانك لا تبرح ، فدخل على هند فقال: يا بنية هـذا عبد الله بن الحسن أتاك خاطباً ، قالت : فما قلت له ، فقال : زوجته إياك . قالت : قد أجزت ما صنعت . وارسلت الى عبد الله لا تبرح حتى تدخل على اهلك . قال : فتبشرت لذلك ، فبات بها معرساً من ليلته لا تشعر به امه ، فأقام سبعاً ثم اصبح في يوم سابعه غادياً على امه وعليه درع الطيب ، وفي غير ثيابه التي تعرفه بها فقالت : يا بني من أين لك هذا ؟ قال : من عند التي زعمت أنها تردني .

وبهذه الصورة تم زواج عبد الله بهند ، وظلت الاسرتان تترقبان ما تنجبه هذه الزوجة الـكريمة ، حتى مضت عليها قرابة الاربع سنوات وهي لما تلد ، وما مضت على هذا الانتظار إلا أياماً قلائل واذا بصراخ وليدها يدوي في حجرتها على رأس المئة الأولى للهجرة ، فذهب البشير الى ابي عبيدة وأخبره فسر به وحمد الله على ذلك . إما آل البيت فناهيك ما ابدوه من الغبطة والفرح في يوم ولادته واصبح ذلك اليوم مسرحاً يتبارى فيـــه شعراء الهاشميين بمديحهم المعروف فمن ذلك ما قال ابراهيم بن علي بن هرمة :

لا والذي أنت نعمة سلفت	نرجوا عواقبها في آخر الزمن
ما غيرت وجهه أم مهجنة	اذا القتام يغشي اوجه الهجن

ومحل النكتة من هذا الشعر هي في البيت الأخير « ما غيرت وجهه أم مهجنة » لأنه « لم تقم عنه أم ولد في جميع آبائه وأمهاته وجداته » حتى قيل فيه صريح قريش . ونستمع الى شاعر آخر يقول في تلك المناسبة مرجياً أن يكون محمد هو الذي سيضع السيف في رقاب الأمويين .

ليهنكم المولود آل محمد	امام هدى هادي الطريقة مهتدي

يسوم أمي الذل من بعد عزها وآل بني العاص الطريد المشرد
فيقتلهم قتلا ذريعاً ، وهـــذه بشارة جديه ، علي واحمـــد
هما أنبآنا أن ذلك كائن برغم أنوف من عداة وحسد
أمية صبراً طال ما أطّرت لكم بنو هاشم آل النبي محمد

ونال محمد الحضوة عند ولادته من جميع أسرته واتجه الكل الى المشاركة في تربيته ، ولم يكن هـذا عند الرجال فحسب بل تعداه الى النساء فهذه فاطمة بنت الأمام علي (ع) على كبر سنها وجلالة قدرها تأتي الى عبد الله طالبة منه محمدا لتقوم بتربيته ، ولم يكن من عبد الله إلا الأجابة لما طلبت ، فاخذته واهتمت في تنمية روح الفضيلة فيه ، فكانت طفولته فريدة في حياة الأطفال ، حس مرهف ، وطموح عال ، وروح متوثبة ، ودقة في المراقبة لكل ما تقع عليه عينه .

أما صفته فلقد كان اسمراً شديد السمرة بين كتفيه خال اسود ، واسع المنكبين مفتول الذراعين ، ذو سمنة لم تجهده عن القيام باي حركة . قوياً فى منتهى القوة ، روى له مترجموه احاديثاً عن قوة ساعده فى صغره اعرضنا عنها حذراً من الاطالة .

مواهبه

لقد وفق ذو النفس الزكية في طفولته توفيقاً قلما يحصل عليه أترابه ، وكان هو بذاته يشعر بهذا لما لديه من الاستعداد الذاتي من صفاء الذهن وقوة الذاكرة ، فنرى والده عبد الله لم يقتصر في توجيهه له على مدرستهم الخاصة بل أخذ يصحبه معه الى مشايخ عصره ، ويطلب منهم تثقيف محمد بالشكل الذي يرضاه هوله ، فمن ذلك : انه اخـذه واخاه ابراهيم ذات مرة واتى بهما الى عبد الله بن طاووس (١)

(١) عبد الله بن طاووس من اعلام المسلمين فى عصره كان عالماً فى النحو والفقه يحدث عن ابيه طاووس بن كيسان اليمانى النحوى . دخل مع مالك بن انس على المنصور فقال له : حدثنى عن ابيك . قال : حدثنى أبى أن اشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل اشركه الله فى سلطانه فادخل عليه الجور فى ملكه. فامسك المنصور —

ـ المحدث المشهور ـ فقال له : حدثها لعل الله ينفعها .

ولم يدخر محمد من طاقته شيئاً دون طلب العلم كما أنه كان ضنيناً بالوقت فلا يدع فرصة تمر إلا اغتنمها ، حتى أنه كان يقول عن نفسه : إن كنت لأطلب العلم في دور الأنصار حتى لأتوسد عتبة باب احدهم فيوقضني الأنسان ـ الخادم ـ فيقول إن سيدك قد خرج الى الصلوه ما يحسبني الا عبده . ولم يقتصر على هـذا بل راح نشطاً الى الاستماع من المعروفين برواية الحديث فلقي نافعاً وسمع منـه ، ولقي أبا الزياد وسمع منه وحدث عنها وعن ابيه وعن غيرهم إلا أن حديثه كان قليلا ، ويرجع ذلك حسب ما اعتقدالى رتة في لسانه ، كانت تحبس الكلام في صدره فلا يكاد يبين .

وكان موضع ثقة الجميع لما يمتاز به من « التنسك والزهد والعبادة » حتى قيل فيه أنه كان صواماً قواماً واطلقوا عليه « النفس الزكية » لهذه الميزة . يضاف الى هذا أنه كان قليل الاختلاط بالناس الآخرين . وتكونت له من مجموع هـذا شخصية عظيمة فـــذة أخذت تتجاذبها الطوائف اليها فـكل يقول : ذو النفس الزكية منا وليس ذلك إلا لعدالة موقفه وعدم عنايته بما شغل به متكلموا عصره من الجدل الذي سبب لهم الانقسام فرقاً واشياعاً وشغلوا الناس معهم ايضاً بتلك المسائل التي لم يعد بعضها على الدين بطائل .

فنرى القدرية مثلا تعتبره منها ، حتى أن عبد العزيز الماجشون لما كلمه محمد فى القدر قال إن محمداً قدرياً فذكر ذلك لأخيه موسى بن عبد الله فأجابه موسى بانه « إنما كان يشمل الناس » (١)

وذهب آخرون الى القول بأنه من المعتزلة وأنه استجاب الى مقالة واصل بن

ـــ قال مالك : فضممت ثيابى خوفاً أن يصيبنى دمه . توفى سنة ١٣٢ هـ ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ١ ص ١٨٨ وابن الأثير ج ٥ ص ١٦٧

(١) يشمل الناس : أى يعمهم

عطاء (١) عن طريق داعيته أبو أيوب بن الأوبر وأنه مال اليـه هو وجماعة من آل ابي طالب .

وقيل عنه أنه زيدي واستدلوا بنهضته وقيامه بالسيف وما اشبه ذلك من الأقوال التي لا طائل بها بالنسبة الى واقع نزعته وميوله فهو على كل حال رجل علوي ونزعته علوية بحتة . وليس فيما كان يقوم به من تلك التنقلات بين مشايخ المسلمين والاستماع الى احاديثهم دليلا على القطع بأنه انحاز الى فرقة ما من تلك الفرق . والذي يغلب على الظن أن محمد بما كان له من الحنكة السياسية الواسعة فانه حاول أن يسلك هذا الطريق ليصل منه الى آراء هؤلاء المشايخ بالنسبة الى شرعية السلطة الزمنية لما يخالجه من الأفكار في القيام بنهضة واسعة النطاق لاعادة الحكم العلوي الى دنيا المسلمين .

وقد كان له من التجربة في هذا السبيل ما دعاه بان يسلك هذا المسلك الذي جعل من كل فرقة تقول فيه بأنه منها وتعتز بالانتساب اليه .

مهدويته

إن كلمة المهدي التي يرددها الـكثير من المسلمين اذا رجعنا اليها من حيث تفسيرها اللغوي العام نجدها تعبر عن كل رجل عرف بالهداية والصلاح . اما من حيث مفهومها الخاص فانها ذلك الأمل المنشود والامنية المحببة لدى المتطلعين الى الاصلاح والرشاد على يد رجل يؤمل فيه الناس أن يكون هو ذلك المصلح المنتظر ، ولهذه الفكرة على نحو هـــذا التفسير واقعها التاريخي اذ أنها لم تكن وليدة عصر محمد ذي النفس الزكية ، ولا جديدة على المسلمين ، بل إنما يرجع تاريخها الى ما قبل الاسلام وقد اشارت اليها الاديان السماوية مبشرة بظهور رجـل الاصلاح المنتظر سواء كان نبياً

---

(١) هو أبو حذيفة رأس المعتزلة وزعيمهم - سمى اصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصرى . وهو الذى نشر مذهب الاعتزال فى الآفاق ، ولد سنة ٨٠ هـ ونشأ بالبصرة ، وكان يلثغ بالراء فيجعلها غيناً فهجر الراء طول حياته توفى سنة ١٨١ هـ

أو شخصاً آخر ينهض فيهم عندما يعم الفساد ليسلك بالناس الطريق القويم وينقذهم من براثن الظلم والجور لئلا يتولد عندهم القنوط أو تصيبهم خيبة امل من المصلحين ، وعلى ضوء هـذا الأمل فقد اطلق المسلمون هذه اللفظة على جماعة من الناس الذين شموا منهم روح العـدالة الاجتماعية ، والسير بهم حسب ما يقتضيه منطق الدين . إنتضاراً منهم أن يكون صاحبهم الذي وجدوا فيه هذه الخصال الحبيبة هو ذلك المصلح المنتظر والذي اسماه النبي (ص) بالمهدى وبشر المسلمين بظهوره .

فمن ذلك ما اطاقه البعض على عمر بن عبـــد العزيز لما رأوه فيه من المشاركة الوجدانية والتنسك فنرى مثلا وهب بن منبه يقول : إن كان فى هذه الأمة مهدي فهو عمر بن عبد العزيز ، والحسن البصري يقول : إن كان مهدي فعمر بن عبد العزيز وإلا فلا مهدي ، وقال ابراهيم بن ميسرة : قلت لطاووس : هو المهدي ؟ - يعني عمر بن عبد العزيز - قال : هو مهدي ، وليس به . إنه لم يستكمل العدل .

إذاً فامارة مهدية من يتسمى بهـذا الاسم أن يستكمل العدل فى حكمه للحديث الوارد عن النبي (ص) « أنه يملأ الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجورا » .

وإمارة اخرى وهي اضيق نطاقاً من سابقتها كما حددها النبي (ص) في حديثه لمزيد التعريف بالمهدي « أنه من ولد ابنتي فاطمة » وإمارات أخرى لم تكن متوفرة لكل من قام باستخدام هذه الفكرة سواء كان من الهاشميين أو من غيرهم .

ولسنا الآن بحاجة الى التدليل على صحة هذه الفكرة فانه قد كفتنا الموسوعات القديمة والمؤلفات الحديثة ومن رجع اليها وجد أن الأخبار الواردة في تأييد هذه الفكرة تبلغ حـد التواتر فنرى ابن حجر يذكر في صواعقه ما يزيد على الخمسين طريق في صحة حديث المهدي . وإن شذ من ناقش فيها فليس مرد ذلك الا لقلق الضمير وخطل المعتقد . إذ أنها مسألة لا يختلف فيها اثنان ، كما أنها عند غالبية طوائف المسلمين جزء من المعتقد .

وقد استخدمها بنو العباس لاغراضهم السياسية فيما اشاعوه من مهدية صاحبنا « ذي النفس الزكية » بادىء ذي بدء للوصول عن طريقها الى مصالحهم الخاصة ، ولثل العرش الأموي ، وخاصة فيما كانوا يبدونه بعد بيعتهم له . لما يرونه من اكبار الناس له واحترامهم مقامه ، فكان المنصور يبذل نشاطاً كبيراً في هذا الشأن . فمن ذلك مايرويه أبو الفرج بسنده عن عمير بن الفضل أنه قال : رأيت أبا جعفر المنصور يوماً وقد خرج محمد بن عبد الله من دار ابنه وله فرس واقف على الباب مع عبد له اسود وابو جعفر ينتظره ، فلما خرج وثب أبو جعفر فاخذ بردائه حتى ركب ، ثم سوى ثيابه على السرج ، ومضى محمد فقلت وكنت حينئذ اعرف المنصور ولا اعرف محمداً . من هذا الذي اعظمته هذا الاعظام حتى اخذت بركابه وسويت عليه ثيابه ؟ قال : او ما تعرفه ؟ قلت : لا . قال : هذا محمد بن عبد الله بن الحسن هذا مهدينا اهل البيت .

ولم يكن المنصور قد استخدم هذه اللفظة في محمد ذي النفس الزكية وحده بل إنما استخدمها في ولده محمد المهدي ثانية بعد أن اصبح مهديه الأول في رأيه كذاباً ، وأن المهدي حقاً هو ولده . واخذ يندد بالذين اغراهم في مهدية محمد بعد ذلك .

أما آل البيت وعلى رأسهم عبد الله فكانوا ينكرون على من يدعي مهدية محمد وقد بذل عبد الله قصارى جهده في سبيل إقلاعها عن ولده ، فمن ذلك قوله لمن سأله عن سبب تسميته له بالمهدي : إني إنما لقبته بذلك تيمناً بذلك الاسم الميمون »

ثورته

لقد كان محمد النفس الزكية بحكم ميوله ورغباته ذا اتصال وثيق بقادة الرأي ورجال الفكر وعن طريق هذا الاتصال استطاع أن يختلط بمختلف الطبقات فاطلع على احوالهم وسمع شكاواهم وتعرف على موطن الداء فراح يفكر في اسباب شقاء

الطبقة الكبرى منهم . والطرق التي يمكن ان تخفف عنهم وطأة الظلم والفقر . فكان لذلك الترداد على تلك المجالس وهذا الاختلاط بالناس والاصغاء الى احاديثهم مدرسة عملية اعدته لأن يكون ذلك العامل الاجتماعي والمصلح الكبير الذي عقدت عليه الآمال لانقاذ ذلك المجتمع مما يرزح فيه . وكان لتشجيع شيوخه له أعظم الأثر في ثقته بنفسه .

فكان من نتيجة تلك التفاعلات في نفس محمد أن يصبح العامل الثوري في حياته من اقوى العوامل ، حيث القوة والأباء . والحماس والعزيمة . مع تقدير المسؤلية من وراء ذلك كله . وكان اهم ما لديه أن يجد الفرصة سانحة للنهوض بأمره ، ولهذا نراه حينما اعلن زيد بن علي بن الحسين (ع) ثورته في العراق بادر للاشتراك معه في خوض تلك المعركة . ولكن بالنظر لأن تلك الحركة جائت سابقة لأوانها أو أنها اشبه ما تكون بالمرتجلة فانها لم يكتب لها النجاح الآني . غير أن صاحبنا رجع وهو كبير الأمل بما تعقبه تلك الحركة من الوعي والنتائج الحسنة ولو بعد حين . ومن الجدير بالذكر أن هذا لم يكن من شأن القادة الذين اذا اصيبوا بنسكة كتلك النكسة . فبدلا من خيبة الأمل وضعف الثقة باولئك الناس الذين خرجوا معهم واسلموهم عند الوثبة. فانه راح يعزز الثقة في انفسهم من جديد بمختلف السبل والوسائل لما عقد عليه النية من اعادة الكرة . فأخذ يتحرى نواح الضعف التي منيت بها تلك الحركة ليتجنبها ، واستمر على هذا العمل وهو على اتصال دائم مع قادة الفكر يومذاك حتى اشتهر أمره عند حكام عصره فانتابتهم الخشية والرهبة منه وخاصة مروان بن محمد الخليفة الأموي فاتجه في سياسته معه تجاها خاصاً محاولة منه أن يكسب وده. لما يراه من تأييد تلك الطبقة له ، فمن ذلك ما كان يكتب به الى واليه على المدينة حينما يرسل اليه خبر نشاط أمر محمد فيكتب اليه مروان : « إن استتر بثوب منك فلا تكشفه عنه ، وإن كان جالساً على جدار فلا ترفع رأسك اليه » ويلتفت الى عبد الله والد محمد ذات مرة وكان قد جاء اليه في حاجة فقال له : « أأتني بابنك

محمد . فقال عبد الله : وما تصنع به ؟ قال : لا شيء إلا أنه إن أتانا اكرمناه ، وإن قاتلنا قاتلناه ، وإن بعد عنا لم نهجه » كانت هذه سياسة مروان بالنسبة الى محمد ، ولم يكن يعمل هذا معه إلا لما يراه من الوعي الذي أثاره ضدهم ، وما كان يلاقيه من التشجيع في هذا السبيل .

وكان بنو العباس يرقبون نشاط محمد فلما تيقنوا أن الوعي قد تكامل ضد الأمويين في اتجاهه الى العلويين ادخلوا رؤسهم في زمرة بني عمومتهم . وكانوا قبل هذا يعملون على انفراد ، ولما لم تكن لهم مثل تلك المكانة التي يتمتع بها محمد فانهم رأوا من المصلحة لهم أن يندمجوا معهم . وابدوا في اختيار محمد للزعامة من حسن النية ما ساعد الآخرين على توطيد الثقة فيهم . ومن ثم طالبوا بالبيعة له ، فبايعوه ولقد كان لهذه البيعة أثرها من نفس محمد ، حيث أنه وجد أن بعض حلمه قد تحقق كما أنه رأى أن هذه البيعة « لا يمكن نقضها شأنه في ذلك شأن ذوي العقائد او المبادىء الراسخة والمثل العليا ، وأنها عقد لا يصح إبطاله ، وأن الخلافة اصبحت حقاً له لا ينازع فيه ، والحق فوق القوة .

وحينما تم لتلك المغامرات أن تنجح - كما مر عليك في الفصول السابقة - قلب العباسيون للنفس الزكية واهل بيته « ظهر المجن » وقاموا في ملاحقتهم لئلا يصروا في مطالبتهم بالبيعة . لأنهم يرون أن هؤلاء إن اصروا على المطالبة فيها ، فان الأمر سوف يفلت من ايديهم . وكما قدمنا ايضاً أن بني الحسن لما ضويقوا بتلك المطاردة التي شنها عليهم المنصور ، فانهم لم يروا بدآ من الصمود أمامها واخذوا يعملون بكل مافي وسعهم ضد المنصور ، وراح محمد يستعيد نشاطه من جديد للنهوض بالأمر فوجه اهتمامه الى تشكيل المنظمات السرية في المدينة وبقية الاقطار واختفى هو بدوره وابقى والده كحلقة اتصال بينه وبين الناس .

موقف الأمام الصادق (ع) من نهضة محمد

لقد نال محمد في نهضته التأييد التام من قبل العلويين والطالبيين وغيرهم من علماء

الأمة واحفاد الصحابة ، والتابعين وعدد من النساك ، والقراء ، والفقهاء ، ونقلة الحديث والأثر ، وكان لموقف الأمام جعفر بن محمد الصادق (ع) اعظم الأثر في استجابة الناس اليها .

يقول أبو الفرج في مقاتله : حدثنـــا علي بن العباس ، قال : أنبأنا بكار بن احمد ، قال : حدثنا الحسن بن الحسين عن سليمان بن نهيك ، قال : كان موسى ، وعبد الله ابنا جعفر بن محمد الصادق (ع) عند محمد بن عبد الله ، فأتاه جعفر فسلم عليه ، ثم قال : تحب أن يصطلم أهل بيتك ؟ قال : ما احب ذلك . قال : فان رأيت أن تأذن لي فانك تعرف علتي . قال : قـد أذنت لك . ثم التفت محمد بعدما مضى الأمام جعفر (ع) الى موسى وعبد الله فقال : الحقـا بابيكما فقد أذنت لكما ، فانصرفا . فالتفت جعفر اليهما فقال : مالكما ؟ قالا : قد أذن لنا . فقال جعفر (ع): إرجعا فما كنت بالذي ابخل بنفسي وبكما عنه ، فرجعافشهدا محمدا .

وهذه رواية أخرى تبين لنامدى قناعة الأمام (ع) في تلك الثورة يرويها أبو الفرج ايضاً يقول : حدثني علي بن العباس ، قال أنبأنا بكار بن احمد ، قال : حدثنا يحي ابن محمد بن الحسين . قال : حدثني حماد بن يعلى قال : قلت لعلي بن عمر بن علي ابن الحسين (ع) : أمتع الله بك . أسمعت جعفراً يذكر في محمد وابراهيم شيئا ؟

قال سمعته حين أمره أبو جعفر أن يسير الى الربذة فقال : يا علي بنفسي أنت سر معي فسرت معه الى الربذة . فدخل على أبي جعفر . وقمت انتظره فخرج علي جعفر (ع) وعيناه تذرفان فقال لي : يا علي ما لقيت من ابن الخبيثة والله لا امضي ثم قال : رحم الله ابني هند ـ يعني محمد وابراهيم ـ إنهما كانا لصابرين كريمين . والله لقد مضيا ولم يصبهما دنس » .

واملي في هـذه التصاريح الصادرة عن الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) كفاية للذين يذهبون الى سلبية موقف الأمام من مثل هذه النهضات الهادفة الى اطاحة عروش اولئك الجلادين .

قلنا أن نهضة محمد امتازت بتأييد هذه الطبقة لها تأييداً كاملا . حتى أنهم لو استطاعوا من مباشرة الحرب بايديهم لفعلوا . ومرد ذلك الى أن خلافة المنصور لم تلاقي رغبة عندهم . لما لاساليبه « المكيافيلية » التي انتهجها مع الناس الآخرين من أثر عليهم باعتبارهم الطبقة المسؤلة . والتي تعبر عن احاسيس المجتمع في تلك الميادين. فنرى مثلا مالك بن أنس (١) حينما يستفتى فى خلع بيعة المنصور والألتحاق بمحمد

(١) أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك الأصبحى المدنى . ولد سنة ٩٥ هج وقيل ٩٣ أو ٩٤ احد المذاهب الاربعة عذبه المنصور بسبب معارضته لحكمه عذاباً كبيراً . يقول الواقدى كان مالك يأتى المسجد ويشهد الصلوات والجمعة والجنائز ويعود المرضى ويقضى الحقوق ويجالس فى المسجد ويجتمع اليه اصحابه ثم ترك الجلوس فى المسجد فكان يصلي وينصرف الى مجلسه . وترك حضور الجنائز فكان يأتى اهلها فيعزيهم ثم ترك ذلك كله فلم يكن يشهد تلك الصلوات فى المسجد ولا الجمعة. ولا يأتى احداً يعزيه ولا يقضى له حقاً واحتمل له ذلك الناس حتى مات عليه وكان ربما قيل له فى ذلك فيقول ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره . ويذهب بعض المؤرخين الى سرد بقية الاسباب التى استوجب مالك من اجلها سخط المنصور عليه حتى ضرب ذلك الضرب المبرح فمن ذلك ما يرون من أن مالكاً كان شديد الميل الى الأمويين . وأن فتواه تلك لم تكن بدافع الولاء لمحمد ذي النفس الزكية بل إنما كانت بدافع البغض للعباسيين . وقد استدل ابن خلدون على ذلك فى رأى مالك بعدالة الطبقة الاولى من امراء بنى مروان . ولا يخفى أن الجنوح الى امراء بنى امية ذنب لا يغتفر عند بنى العباس . ويقول المؤرخون أن مالكاً كان على اتصال مع ملوك بنى أمية فى الاندلس ولهذا السر نرى مذهبه اكثر انتشاراً من غيره فى تلك الديار . وكان مالك يقول بالرأى . يقول الحافظ أبو عبد الله الحميدى فى كتاب جذوة المقتبس قال : حدث القعنبي قال : دخلت على مالك بن أنس فى مرضه الذى مات فيه فسلمت عليه ثم جلست فرأيته يبكى فقلت يا أبا عبد الله ما الذى يبكيك ؟ فقال لي : يا ابن قعنب ومالي —

ومبايعته يقول : « إنما بايعتم مكرهين وليس على كل مكره يمين » وكان مالك يعلم بخطورة هـــذه الفتوى وأنها ستجر عليه البلاء يوماً ما . غير أنه أبى كتمان رأيه في عدم شرعية بيعة المنصور . وقل مثل ذلك في أبي حنيفة (١) فانه كان يقول في بيعة المنصور واشياعه « لو ارادوا بناء مسجد وأرادوني على عد آجره لما فعلت » ويرد على أمرأة كلمته في ولدها المقتول أمام ابراهيم استجابة لفتواه . وكان مما قالت له : « أشرت الى ابني بالخروج مع ابراهيم ومحمد ابني عبد الله حتى قتل فقال : ليتني كنت مكان ابنك » وكان يجهز ابراهيم بما يتيسر لديه من النقود ويشفعها

ـــ لا أبكي . ومن احق بالبكاء مني . والله لوددت أني ضربت بكل مسألة افتيت فيها برأي بسوط سوط وقد كانت لي السعة فيما قد سبقت اليه وايتني لم افت بالرأي. وتوفي بالمدينة لعشر مضين من شهر ربيع الأول سنة ١٩٩ وقيل سنة ١٧٨ هج

فهرست ابن النديم ص ١٩٨ . ومقدمة ابن خلدون ص ١٤٧ ط البهية . ودائرة المعارف لفريد وجدي ج ٩ ص ٤٢٥

(١) النعمان بن ثابت بن زوطى من اهل كابل . وقيل غير هـذا . وهو النعمان ابن ثابت التيمي . ولكن الاول اصح لأن زوطى كان مملوكا لبني تيم الله بن ثعلبة فاعتق . ومن اجله قيل له التيمي . ولد أبو حنيفة سنة ثمانين للهجرة . وكان خزازاً في بداية أمره وله دكان معروف ثم راح في طلب العلم وتحصيله وجد في سبيل ذلك حتى اصبح من الذين يشار اليهم في العلم حضر على الأمام محمد الباقر (ع) ثم زيد ثم بعد ذلك على الأمام جعفر بن محمد الصادق (ع) . وبايع زيداً واخذ يوصله بالأموال ولما قتل زيد حاول يزيد بن هبيرة أن يجلب جانبه الى الأمويين فعرض عليه ثلاث مناصب كبرى : رئاسة ديوانه أو أمانة بيت المال أو رئاسة القضاء. فاحجم عن ذلك كله واعتذر ولكن ابن هبيرة ابى أن يقبل له عذراً فجلده ثلاثين سوطاً فلم يقتنع ولم يرضخ فلما رأى منه هذه الشدة كف عنه . وكان يؤاخذ من قبل علماء عصره لأخذه بالقياس ومن يرجع الى تاريخ بغداد للخطيب يجد تفصيل مراحل حياته . وكانت وفاته سنة ١٥١ وقيل سنة ١٥٠ هـ تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٤٣٢ وما بعدها .

باعذاره التي تعوقه عن اللحوق به فكان مما كتبه اليه :

« أما بعد فاني قد جهزت اليك اربعة آلاف درهم ولم يكن عندي غيرها ولولا أمانات للناس عندي للحقت بك . فاذا لحقت القوم وظفرت بهم فافعل كما فعل أبوك في اهل صفين » وشاءت الصدف بأن تقع هـذه الرسالة بعد ذلك في يد المنصور فتكون من جملة الاسباب الموجبة لسخطه عليه .

ونرى واصل بن عطاء يجتمع بعمرو بن عبيد (١) في بيت عثمان بن عبد الرحمن المخزومي من اهل البصرة فيتذاكرون الجور والظلم فيقول عمرو بن عبيد : فمن يقوم بهذا الأمر ممن يستوجبه وهو له اهل ؟ فقال واصل : يقوم به والله من اصبح خير هذه الأمة . محمد بن عبد الله بن الحسن . فقال عمرو ما أرى أن نبايع ولا نقوم إلا مع من اختبرناه . وعرفنا سيرته . فقال واصل والله لو لم يكن في محمد ابن عبد الله أمر يـــدل على فضله إلا أن أباه عبد الله بن الحسن في سنه وفضله وموضعه قد رآه لهذا الأمر اهلا وقدمه على نفسه لكان لذلك يستحق ما نراه له . فكيف بحاله في نفسه وفضله .

ومثل هذا كان لسفيان الثوري (٢) في حديثه مع اسماعيل بن محمد كما يتحدث اسماعيل نفسه عن ذلك يقول : بعث الي سفيان ليعرف مني حالة محمد وما أنا صانع

(١) عمرو بن عبيد البصري شيخ المعتزلة في عصره كان جده من سبي فارس وأبوه نساجاً ثم شرطياً للحجاج في البصرة . وفيه قال المنصور الدوانيقي : كلكم يطلب صيد - غير عمرو بن عبيد . ولد سنة ٨٠ وتوفي بمران - بقرب مكة - سنة ١٤٤ هـ .

(٢) هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري الفقيه المعروف ولد سنة ٩٤ هج ونشأ شغوفاً بطلب العلم فاخذ يتنقل في سبيل ذلك حتى حصل على مرتبة لا بأس بها وكان من الساخطين ايضاً على حكم المنصور وبقي على ذلك حتى مماته سنة ١٦٠ هج ونظراً لمذهبه الخاص في التصوف فقد اصبحت شخصيته بين الأخذ والرد عند طوائف المسلمين .

تجاهها فقال : كيف محمد ؟ فقلت في عافية ، فقال إن يرد الله بهذه الأمة خيراً يجمع أمرها على هذا الرجل ، فقلت : ما علمتك إلا سررتني قال سبحان الله ! وهل أدركت خيار الناس إلا الشيعة .

يضاف إلى هذا موقف الشعراء الذين كان له السهم الأوفر في استفزاز الناس ضد حكم المنصور فمن هؤلاء سديف الشاعر الذائع الصيت فانه وقف ذات يوم في المدينة قائلا :

إنا لنامل أن ترتد الفتنا	بعد التباعد والشحناء والاحن
وتنقضي دولة أحكام قادتها	فينا كأحكام قوم عابدي وثن
فانهض ببيعتكم تنهض بطاعتنا	إن الخلافة فيكم يابني الحسن

وقوله معرضاً بالمنصور :

أسرفت في قتل البرية جاهداً	فاكفف يديك أظلها مهديها
فلتأتينك غارة حسنية	جرارة يحثها حسنيها
حتى يصبح قرية كوفية	لما تغطرس ظالماً حرميها

فشعر المنصور بخطورة الموقف لما يراه من الوعي ضده وانتابه القلق وتنغص عليه عيشه في تلك الأيام فراح يواصل تفكيره في أمر هذه المشكلة فأوحت له نفعيته بأن يتخذ كل وسيلة للقضاء على محمد واتباعه وأن يباشر العمل بيده لأن الاتكالية في هذا الشأن لم تكن مجدية :

منهج محمد لا يبيح الاغتيال :

ومن نتيجة ما طرق سمع أبي جعفر وما أوصله الوشاة والجواسيس اليه عن إقبال الناس على دعوة محمد فقد أصبح في قلق متزايد وصراع فكري دائم ترجح له بالتالي فكرة الذهاب إلى الحج وذلك في عام ١٤٠ هـ ليطلع بصورة شخصية على أوضاع الناس هناك ومدى تأثير دعوة محمد فيهم وأشياء أخرى كان قد نوى على تنفيذها عند حلوله بالمدينة ، ومن أجل هذه الغاية فانه قد حمل معه الاضبارة

الخاصة في بني الحسن كما اصطحب معه بعض الجواسيس الذين أرسلهم من قبل على هيئة بعض أنصارهم في الأقطار ليأتوا له بما عندهم . واستعد لكل ما ينبغي له من تطمين سلامته خشية من أن يغتاله أحـــد من أصحاب محمد . وجاء إلى مكة وهو على تلك الحالة من الاستعداد .

وكان محمد قد عزم أيضاً على الحج فخرج في ذلك العام وبصحبته أخوه ابراهيم وجماعة من أنصاره قد انبثوا هنا وهناك بين صفوف الحجاج . وكان من بينهم عبدالله الأشتر (١) بن النفس الزكية قد جاء أيضاً لتأدية الفريضة . ولما اجتمع بصحب

---

(١) عبدالله الأشتر بن النفس الزكية بن عبدالله المحض . أمـه أم سلمة بنت محمد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع) كان من المعروفين بالعلم ورجاحة العقل إنتدبه أبوه مع جماعة من أنصاره وأمرهم بالذهاب إلى السند لبث الدعوة هناك يقول الطبرى : « لما خرج محمد بالمدينة ، وابراهيم بالبصرة ، وجه محمد بن عبدالله ابنه عبدالله الذى يقال له الأشتر فى نفر من صحبه إلى البصرة وأمرهم أن يشتروا مهارة خيل عتاق بها ، ويمضوا بها معهم إلى السند ليكون سببا له إلى الوصول إلى عمر بن حفص وإنما فعل ذلك به لأنه كان فيمن بايعه من قواد أبى جعفر وكان له ميل إلى آل أبى طالب فقدموا البصرة على ابراهيم بن عبدالله فاشتروا منها وليس فى بلاد السند والهند شيء أنفق من الخيل العتاق ومضوا فى البحر حتى صاروا إلى السند ثم صاروا إلى عمر بن حفص فقالوا نحن قوم نخاسون ومعنا خيل عتاق ، فأمرهم أن يعرضوا خيلهم فعرضوا عليه ، فلما صاروا اليه قال له بعضهم: أدننى منك أذكر لك شيئاً ، فأدناه منه وقال له : إنا قد جئناك بما هو خير لك من الخيل ، ومالك فيه خير الدنيا والآخرة . فاعطنا الأمان على خلتين : إما أنك قبلت ما أتيناك به ، وإما سترت وأمسكت عن أذانا حتى نخرج من بلادك راجعين ، فأعطاهم الأمان ، فقالوا : ما للخيل أتيناك ولكن هذا ابن رسول الله (ص) عبدالله ابن محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن أرسله أبوه اليك ، وقد خرج بالمدينة ـ

أبيه وتداول معهـــم أمر الدعوة وخطورة وجودهم في الموسم . وفي ختام تلك المداولات عنّ لبعضهم رأي اغتيال المنصور فطرحه امامهم فاستصوبوه وتعاقدوا على ذلك . ولـكنهم تحاشوا من أن ينفذوا هذه الفكرة قبل استشارة محمد وابراهيم وطلب الأذن منهما في سبيل تنفيذ خطتهم . وما أن التقوا بهما وطرحوا الفكرة عليهما إلا وقابلها محمد بالاستنكار وعدم الرضى وردهم بقوله : « والله لا أقتله أبداً غيلة . حتى ادعوه . يقول الطبري فنقض امرهم ذلك وما كانوا اجمعوا عليه »

ويحدثنا الطبري ايضاً عن جماعة اخرى من انصار محمد كانت قد جاءت لنفس هذا الغرض يرأسها عبدويه . وكان يصرح لصحبه عن مزيد اهتمامه فيما أزمع على القيام به : « إني أريد أن اوجر أبا جعفر هذه الحربة بين الصفا والمروة » فبلغ

ـــ ودعا لنفسه بالخلافة، وخرج أخوه ابراهيم بالبصرة وغلب عليها . فقال: بالرحب والسعة ثم بايعهم له ، وأمر به فتوارى عنده ، ودعا أهل بيته وقواده وكبراء أهل البلد للبيعة ، فأجابوه ، فقطع الأقبية والقلانس البيض ، وهيأ له لبسة من البياض يصعد فيها المنبر ، وتهيأ لذلك يوم الخميس ، فلما كانوا يوم الأربعاء إذا حراقة قد وافت من البصرة ، فيها رسول لخليدة بنت المعارك امرأة عمر بن حفص بكتاب اليه تخبره بقتل محمد بن عبدالله ، فدخل على عبدالله فاخبره الخبر وعزاه . . . ثم قال له : هاهنا ملك من ملوك السند عظيم المملكة ، وهو على شركه أشد الناس تعظيما لرسول الله(ص)، وهو رجل وفي فارسل اليه فاعقد بينك وبينه عقداً واوجهك اليه تكون عنده فلست ترام معه . قال : افعل ما شئت ففعل ذلك فصار اليه فأظهر اكرامه وبره براً كثيرا وتسلل اليه من انصاره زهاء اربعمائة إنسان يركب فيهم فيصيد ويتنزه في هيئة الملوك وآلاتهم . وانتهى خبره إلى أبي جعفر وما بذله عمر ابن حفص له من المساعدة . فكتب أبو جعفر إلى عمر هذا بولايته على افريقية وولى على الهند هشام بن عمرو التغلبي وأمره أن يكاتب ذلك الملك فان أطاعه وسلم اليه عبدالله بن محمد وإلا حاربه ولما صار هشام إلى السند كره أخذ عبدالله وأقبل يرى الناس أنه يكاتب الملك ويرفق به فاتصلت الأخبار بأبي جعفر بذلك فجعل ـــ

ذلك عبدالله بن الحسن فلحق به ونهاه وكان من جملة ما قاله له : أنت فى موضع عظيم فما أرى أن تفعل » (١)

وكان عبدالله مصيباً في رده لهذه المحاولة واحباطها من عدة وجوه الوجه الأول وهو الأهم : مراعاة حرمة تلك البقعة المقدسة . الثاني : المحافظة على كيان دعوتهم لئلا يؤخذ فى مفهومها أنها تبيح الاغتيال تلك الجريمة النكراء التى يترفع عنها ذوو الهمم العالية والنفوس الأبية . الثالث إنهم يدعون إلى فكرة لا إلى القضاء

ـ يكتب اليه يستحثه فبينا هو كذلك إذ خرجت خارجة ببعض بلاد السند فوجه اليهم أخاه سفنجا فخرج بجر الجيش وطريقه بجنبات ذلك الملك فبينا هو يسير إذا برهج قد ارتفع من موكب فظن أنه مقدمة للعدو الذي يقصده فوجه طلائعه فرجعت فقالت : ليس هذا عدوك الذى تريد ولكن هذا عبدالله بن محمد الأشتر العلوى ركب متنزهاً يسير على شاطىء مهران فمضى يريده فقال له نصاحه هذا ابن رسول الله وقد علمت أن أخاك تركه متعمداً مخافة أن يبوء بدمه ولم يقصدك وإنما خرج متنزهاً وخرجت تريد غيره فأعرض عنه فقال : ما كنت لادع أحداً يحوزه ولا أدع أحداً يحظى بالتقرب إلى المنصور بأخذه وقتله وكان فى عشرة فقصد قصده وذمر أصحابه فحمل عليه فقاتله عبدالله وقاتل أصحابه بين يديه حتى قتل وقتلوا جميعاً فلم يفلت منهم مخبر وسقط بين القتلى فلم يشعر به وقيل إن أصحابه قذفوه فى مهران لما قتل لئلا يؤخذ رأسه فكتب هشام بن عمرو بذلك كتاب فتح إلى المنصور يخبره أنه قصده قصدا فكتب اليه المنصور يحمد أمره ويأمره بمحاربة الملك الذى آواه وذلك أن عبدالله كان اتخذ جوارى وهو بحضرة ذلك الملك فأولد منهن واحدة محمد بن عبدالله وهو أبو الحسن محمدالعلوى الذى يقال له : ابن الاشتر فحاربه حتى ظفر به وقتله ووجه بأم ولد عبدالله وابنه إلى المنصور فكتب المنصور إلى واليه بالمدينة يخبره بصحة نسب الغلام وبعث به اليه وأمره أن يجمع آل أبى طالب وأن يقرأ عليهم كتابه بصحة نسب الغلام ويسلمه إلى أقربائه .

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٦١ ط الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٣٩ .

على أشخاص معينين والفكرة إن كانت طيبة صالحة فالاشخاص الذين يقفون أمامها سوف يندحرون بطبيعة الحال ولو بعد حين .

واتضح للمنصور نبأ هذه المؤامرات التي أحبطها أهلها عن طريق أحـــد جواسيسه الذين بثهم للغرض نفسه فاضطرب من أجل ذلك وراح يضرب أخماساً باسداس للتخلص من أمر محمد فلم ير بداً من التعجيل فى اتيان المدينة لانهاء ما هو بصدده من اتخاذ الاجراءات مع بني الحسن . والذي زاد فى ازعاج المنصور وسبب له القلق الدائم هو ما بلغه عن التحاق أحد القادة المشهورين فى خراسان بمحمد . وكان ذلك القائد قد جاء إلى المنصور بأموال كثيرة فلما وصل إلى مكة واطلع على الحال مال بما معه من الأموال إلى محمد . فلم يكن من محمد إلا أن دعى بالمحاويج من أنصاره وقسم عليهم تلك الأموال .

يقول الطبري بسنده عن أبي هبار المزني ـ وهو أحـد أصحاب محمـد الذين يعتمد عليهم ـ « لما جاء ذلك القائد بالأموال وكان خائفاً من طلب المنصور أمرني محمد بالاهتمام فى أمره . فاشتريت له أباعر وجهزته وحملته فى قبـــة وقطرته (١) وخرجت أريد به المدينة حتى أوردته إياها . ولما قدم محمـد المدينة ضمه إلى أبيه عبدالله ووجهها إلى ناحية في خراسان . والذي يغلب على الظن أنه ضمه الى ابنه عبدالله لا إلى أبيه حسب ما يظهر لنا من سياق الحوادث التى جاءت من بعد ذلك مباشرة والتى تشير إلى وجود عبدالله بالمدينة واجتماع المنصور به عند وروده اليها . ولما شعر المنصور بهذا التدبير الذي قام به محمد بعد التحاق ذلك القائد عـزل واليه المعروف بابي داود عن ولاية خراسان . وولي عليها عبدالجبار بن عبدالرحمن .

يقول الطبري : « وسار عبدالجبار اليها وحينما قدمها أخذ بها أناساً من القواد ذكر انه اتهمهم بالدعاء إلى ولد علي «ع» منهم مجاشع بن كثير وهو صاحب ـ قوهشار ـ والحريش بن محمد الذهلي ابن عم أبي داود فقتلهم . وحبس الجنيد

---

(١) اى بخرته بالقطران .

ابن خالد بن هريم التغلبي ومعبد بن الخليل المزني بعد ما ضربهما ضرباً مبرحاً وحبس عدة من وجوه قواد خراسان ، والح على استخراج ما على عمال أبي داود من بقايا الأموال .

حالة المنصور في المدينة :

ونترك الحديث إلى والي المنصور زياد بن عبدالله ونشترك بالاستماع اليه مع من يتحدث اليهم عن وصف حالة أبي جعفر عند دخوله المدينة يقول : « ألا اخبركم عجباً مما لقيته الليلة ؟ فقيل له بلى : فقال طرقني رسل أمير المؤمنين نصف الليل وكان قد أتى الحج ومنه أتى إلى المدينة . وكنت قد تحولت عند قدومه من داري إلى غيرها لأجملها له . قال : فدقت علي رسله الباب فخرجت ملتحفاً بأزاري ليس علي ثوب غيره فنبهت غلاماً لي في سقيفة الدار ، فقلت لهم : إن هدموا الدار فلا يكلمنهم منكم أحد . قال : فدقوا الباب بجُرزة الحديد وصيحوا فلم يكلمهم أحد فرجعوا وأقاموا ساعة ثم طلعوا بجرز(١) شبيه أن يكون معهم مثلهم مرة أو مرتين فدقوا الباب بجرزة الحديد وصيحوا فلم يكلمهم أحد فرجعوا فأقاموا ساعة ثم جاؤا بامر ليس عليه صبر فظننت والله أن قد هدموا الدار فأمرت بفتحها وخرجت اليهم فاستحثوني وهموا ان يحملوني وجعلت اسمع العزاء من بعضهم حتى اسلموني إلى دار مروان . فأخذ رجلان بعضدي فاخرجاني على حال الزفيف على الأرض أو نحوه حتى أتيا بي حجرة القبة العظمى فاذا الربيع واقف فقال : ويحك يازياد ماذا فعلت بنا وبنفسك منذ الليلة ؟ ومضى بي حتى كشف ستر باب القبة فادخلني ووقف خلفي بين البابين فاذا الشمع بين نواحي القبة فهي تزهر ووصيف قائم بناحيتها ، وأبو جعفر محتب بحمائل سيفه على بساط ليس تحته وسادة ولا مصلى ، وإذا هو منكس رأسه ينقر بجرز في يده . قال : فاخبرني الربيع انها حاله من حين صلى

(١) تعبيراً عن الكثرة لما يسمعه من الضوضاء .

العتمة إلى تلك الساعة قال: فما زلت واقفاً حتى إني لا نتظر نداء الصبح واجد لذلك فرجا فما يكلمني بكلمة ، ثم رفع رأسه للمرة الثانية ، فقال : يابن الفاعلة اين محمد وابراهيم ؟ قتلني الله إن لم أقتلك ، قال : فقلت : اسمع مني ودعني اكلمك فقال : قل ؟ . فقلت له : أنت نفرتهما عنك بعثت رسولا بالمال الذي أمرت بقسمه على بني هاشم فنزل القادسية ثم أخرج سكيناً يحده ، وقال : بعثني أمير المؤمنين لاذبح محمداً وابراهيم فجاءتهما بذلك الأخبار فهربا ثم أمرني بالانصراف فانصرفت .

وبعد أن أنهى المنصور حديثه مع واليه زياد واقتناعه بوجهة نظره ، وأمره بالانصراف عنه ، عاد إلى اطراقه مفكراً ، واستمر على هذا حتى كاد الهزيع الأخير من الليل أن ينقضي ولما يعاود الكرى طرفه نتيجة لتلك الانفعالات النفسية المستوحاة من تفكيره في حاضره الراهن ومستقبله الجاهم . ولما يشعر به من الخطر المحدق الذي يهدده بالهزيمة إن هو تهاون في أمره واليك صريح قوله غير مرة لعبدالصمد بن علي - وقد لامه على اسرافه في القتل والعقوبة حتى كأنه لم يسمع بالعفو - : « إن بني أمية لم تبل رممهم وإن آل أبي طالب لم تغمد سيوفهم ونحن قوم رأونا بالأمس سوقة واليوم خلفاء ولا تتمهد الهيبة في صدورهم إلا باطراح العفو واستعمال العقوبة » .

كان هذا جانباً من جوانب صورة الجزار العباسي خططه بريشته ، وقد أقر علماء النفس الحديث بأن مرد هذه الحالة إلى الشعور بالنقص الذي يرافق الانسان منذ طفولته .

ومن هذا راح المنصور يخلص من تفكيره إلى نتيجة واحـدة إلا وهي مطالبة الحسنيين أثناء وجوده في المدينة - في تسليمهم محمداً وابراهيم ابني عبدالله وهي الغايه التي من أجلها انشأ الحج ، واصطحب لها جاسوسه المعروف عقبة بن سلم الذي أخبره بخبر نشاط محمد وابراهيم وماكان لأبيهما من شان في مساندتهما . يقول الطبري بسنده إلى محمد بن عباد : قال : قال السندي : لما اخبر عقبة بن سلم

أبا جعفر أنشأ الحج وقال لعقبة إذا صرت بمكان كذا وكذا لقيني بنو حسن فيهم عبدالله فأنا مبجله ورافع مجلسه وداع بالغداء فاذا فرغنا من طعامنا فلحظتك فامثل بين يديه قائماً فانه سيصرف بصره عنك فدر حتى تغمز ظهره بابهام رجلك حتى يملأ عينه منك ثم حسبك . وإياك أن يراك ما دام يأكل ، فخرج حتى إذا تدفع فى البلاد لقيه بنو حسن فاجلس عبدالله إلى جانبه ثم دعا بالطعام فأصابوا منه ثم أمر به فرفع فأقبل على عبدالله فقال : ياأبا محمد قد علمت ما أعطيتنى من العهود والمواثيق ألا تبغيني سوءاً ولا تكيد لي سلطاناً قال : فأنا على ذلك ياأميرالمؤمنين قال : فلحظ أبو جعفر عقبة فاستدار حتى قام بين يديه فاعرض عنه فرفع رأسه حتى قام من وراء ظهره فغمزه بأصبعه فرفع رأسه فملأ عينه منه فوثب حتى جثا بين يدي ابي جعفر فقال : أقلني ياأميرالمؤمنين أقالك الله قال : لا أقالنى الله إنلم اقتلك ثم أمر بحبسه . وفي رواية اخرى وهى اقرب إلى الصحه وهى ان اباجعفر حينما قال لعبد الله : اين ابنك؟ قال عبدالله لا ادرى، فقال : لتأتينى به قال عبدالله : لو كان تحت قدمي ما رفعتها عنه فقال ابو جعفر : ياربيع قم به إلى الحبس .

وكانت خاتمة المطاف لحجة المنصور فى ذلك العام هى زج عبدالله زعيم الحسنيين في السجن تمهيداً لما ينوي القيام به من الاجراءات الصارمة ضدهم وذلك بعد عودته إلى عاصمة ملكه .

* * *

٣

وانصرف أبو جعفر من المدينة وبنظره أنه قد أتم عملا يجديه من وراء سجنه لعبدالله المحض . وعزم على عزل واليه زياد لأنه لحظ فيه عدم الاهتمام وظن فيه أنه يداهن فيما كلف فيه . والواقع ان ذلك ناتج من تأثير عبدالله عليه ، وعبدالله كما قدمنا يمتاز بسرعة التأثير على الغير مهما سمت عقليته لبيانه الحلو ، واسلوبه الأخاذ وحجته القوية . فكان من تأثيره على زياد والي المنصور أن جعله يهابهم

ويخشاهم حتى بلغ به الحال أن طلب من محمد أن يخرج وإياه إلى السوق ليعلم الناس ذلك. فخرجا ونادى زياد هذا محمد بن عبدالله، فتصايح الناس .المهدي. المهدي، ولم تكن هذه الحالة تخفى على المنصور بفضل جاسوسيته في المدينة ، فكتب اليه بعزله عنها ، وولى مكانه محمد بن خالد القسري وأعطاه في سبيل الجد بطلب محمد صلاحيات واسعة وأغدق عليه المال مضافاً إلى الكميات الموجودة في بيت مال المدينة . فكانت المدينة مرتعاً خصباً للمتملقين ومسرحاً واسعاً للجاسوسيه العباسية .

يقول الطبري : استعمل أبو جعفر على المدينة محمد بن خالد القسري بعد زياد وأمره بالجد في طلب محمد وبسط يده في النفقة في طلبه ، وأغذ السير حتى قدم المدينة هلال رجب سنة ١٤١ هـ ولم يعلم به أهل المدينة حتى جاء رسوله من الشقرة - وهي بين الأعوص والطرف على ليلتين من المدينة - فوجد في بيت المال سبعين الف دينار والف الف درهم ، فاستغرق ذلك المال ، ودفع في محاسبته أموالا كثيرة أنفقها في طلب محمد فاستبطأه أبو جعفر واتهمه فكتب اليه يأمره بكشف المدينة وأعراضها (١) ، فأمر محمد بن خالد أهل الديوان أن يتجاعلوا لمن يخرج فتجاعلوا رباع الغاضري المضحك وكان يداين الناس بألف دينار فهلكت وتويت (٢) وخرجوا إلى الاعراض لكشفها عن محمد وأمر القسري أهل المدينة فلزموا بيوتهم سبعة أيام وطافت رسله والجند بيوت الناس يكشفونها ولا يحسون شيئاً ، وكتب القسري لأعوانه صكاكا يتعززون بها لئلا يعرض لهم أحد ، فلما استبطأه أبو جعفر ورأى ما استغرق من الأموال عزله (٣) .

وإن هذه الحملة التفتيشية التي وجهها المنصور للكشف عن محمد هي الأولى من نوعها في تاريخ الأمة الاسلامية في تلك العهود . إذ لم يكن معهوداً لديها مثل هذا

(١) مجموعة قرى المدينة وبساتينها .
(٢) وتوى لغة بمعنى الهلاك أو الخسارة
(٣) الطبرى مج ٦ ص ١٦٦ ط الاستقامة

الاجراء على أى شخص مهما كانت خطورته وجرمه . وهذا ما يدلنا على أن أبا جعفر لم يكن يطلب الخلافة إلا لمصلحته الفردية ، ولا يرى للطقوس الاسلامية أى أثر . وإن عمله هذا ليعتبر تحدياً للآية الكريمة وهي قوله تعالى « ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلك خير لكم لعلكم تذكرون . فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم » (١) . وإن مايخشاه سياسياً لم يكن مبرراً له دينياً .

ولقد كان لهذا العمل أثره في استفزاز شعور الجماعات بتحديه لكرامتهم في هذا الاسلوب النابي عما تقتضيه روح الدين وطبيعة المجتمع . أما المنصور فانه قد شعر بالفشل في هذه الحملة وما أعقبها من بقاء ولاية المدينة شاغره ، فأخذ يستشف الآراء ليرى من هو ذلك الرجل الذي يسلم بيده ولايتها ليقضي على حركة محمد ، واستدعى من أجل ذلك أحد رجاله المعروفين بالرأى فقال له : « ويلك أشر علي فى أمر هذين الرجلين - يعني محمداً وابراهيم - فقد غمني أمرهما ؟ فقال الرجل : أرى لك أن تستعمل رجلا من ولد الزبير أوطلحة فانهم يطلبونهما بذحل فأشهد لا يلبثونهما أو يخرجونهما اليك . قال : قاتلك الله ما أجود رأياً جئت به ، والله ما غبي هذا علي ولكني أعاهد الله أن لا أثأر من أهل بيتي بعدوي وعدوهم، ولكني أبعث عليهم صعليكا من العرب فيفعل ما قلت . فبعث رياح بن عثمان بن حيان .
ويحدثنا الطبري عن كيفية الاتفاق بين أبي جعفر ورياح يقول : « لما أراد أبو جعفر عزل محمد بن خالد عن المدينة ركب ذات يوم فلما خرج من بيته أستقبله يزيد بن أسيد السلمي فدعاه وساره ، ثم قال أما تدلني على فتى من قيس اغنيه وأشرفه وأمكنه من سيد اليمن يلعب به - يعني ابن القسري - قال : بلى قد وجدته ياأميرالمؤمنين ، قال من هو ؟ قال : رياح بن عثمان بن حيان المري ، قال : فلا

(١) سورة النور آية ٢٧ ، ٢٨

تذكرن هذا لأحد . ثم انصرف فأمر بنجائب وكسوة ورجال فهيئت للمسير فلما انصرف من صلاة العتمة دعا برياح فأتي به اليه فلما مثل أمامه ذكر له ما بلي من غش ابن زياد وابن القسري فى ابني عبدالله وعهد له بالمدينة وولاه عليها وأمره بالمسير من ساعته قبل أن يصل إلى منزله وأمره بالجد فى طلبهما ، فخرج مسرعاً حتى قدمها يوم الجمعة لسبع ليال بقين من شهر رمضان سنة ١٤٤ هج وقيل غير هذا وهو أن رياح ضمن للمنصور القبض على محمد وابرهيم أو أحدهما لقاء توليته المدينة شريطة أن يمنحه نفس الصلاحيات التي منحها لسلفه من ولاة المدينة فأجابه المنصور إلى ذلك وولاه .

واستقبل أهل المدينة نبأ توليته عليهم بنوع من الاستغراب لحطته وعدم سابقته واحجموا عنه ، ولم يعتنوا فيه حينما دخل المدينة ، أما هو فقد تريث في امره ولم يهتم إلى ما لاقاه من الجفاء ، وبقي كأنه يريد أن يدرسهم ليقف على ذوى الخطر منهم فيحتاط لنفسه . وانتهى من ذلك إلى انتهاج سياسة الشدة والعنف فكان دوره فى المدينة يمثل دور الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق ، والتفت ذات يوم إلى غلامه فقال له : خذ بيدى ندخل على هذا الشيخ - يعني عبدالله ابن الحسن وكان محبوساً في قبة الدار التى على الطريق إلى المقصورة - فأقبل متكئاً على غلامه حتى وقف على عبدالله بن الحسن فقال : أيها الشيخ إن أميرالمؤمنين والله ما استعملني لرحم قريبة ولا يد سلفت اليه والله لا لعبت كما لعبت زياد وابن القسري ، والله لأزهقن نفسك أو لتأتيني بابنيك محمد وابراهيم ، قال : فرفع عبدالله رأسه اليه وقال : نعم أما والله إنك لأزيرق قيس المذبوح كما تذبح الشاة . قال أبو البخترى - وهو غلام رياح - فانصرف رياح والله آخذاً بيدى أجد برد يده وإن رجليه ليخطان مما كلمه . قال : قلت والله إن هذا ما اطلع على الغيب قال : إيهاً ويلك فوالله ما قال إلا ما سمع . قال : فذبح والله فيها ذبح الشاة (١)

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٦٨ نفس الطبعة

- ٤ -

« كان محمد خبيراً بالتنكر والاختفاء جوابة للبوادي ورّاداً على المياه الأواجن وقد تزيا بشتى الأزياء ، فمرة يتزيا بزي الأعراب ، وأخرى بزي العمال إلى ما شاكل ذلك ، ولم يزل يتنقل من موضع إلى موضع آخر » حتى أصبحت حالته مريبة لأبي جعفر المنصور ، وأصبح أمر محمد عنده هو شغله الشاغل اينما حل، فملأ الجزيرة بالعيون والأرصاد وبذل الأموال الطائلة وفرق الأعراب يفتشون عليه وعلى أخيه ابراهيم في البوادي والوديان ويتلقون منه تعاليم دقيقة لذلك الغرض نفسه » (١)

اما محمد فقد بدا له رأي له أهميته بالنسبة إلى مصلحة دعوته ، وهو أن يزج برجل من أصحابه ـ يمتاز بالحنكة والرأى ـ في بلاط المنصور ليكون عيناً له عليه ، وليكون أيضاً على اتصال دائم معه ليخبره عن كل رأى يستجد للمنصور فيه ، وبالوقت نفسه فقد استطاع أحدهم بأن يتوصل إلى ذلك بعد رياضة شاقة تلون فيها ذلك الرجل بالوان شتى حتى كسب ثقة البلاط وأصبح من كتمة السر هناك ، غير أن المنصور له حالة خاصة وهي أن بعض الأمور الهامة التي يرى فيها كتم السر ضرورة لا بد منها فانه لا يفضيها إلى غيره ولو كان من أقرب الناس اليه وأحظاهم منزلة عنده . فمن جملة ماكان يصنعه المنصور تحت الستار هو ارساله الرسائل الموقعة باسماء أشخاص من قواد جيشه أو المبرزين من أهل فارس إلى محمد بيد رسل يتأكد من بطولتهم في هذا الميدان ، وخصوصاً على حث محمد في دعواه وأخذ الأجوبة على تلك الرسائل ، وهذا هو السبب الذى أوقع محمداً في الفخ وفت بعضده يوم نهض ، فانه كان يظن بأن جميع الأقطار ستثور معه على أبي جعفر ، وقد نجح أبو جعفر

(١) مؤرخ العراق ابن الفوطى ج ١ ص ١٠٢

في هذا التدبير ايما نجاح .

اما ذلك الرجل الذى يعمل في بلاط المنصور لمصلحة محمد فانه لم يكن يتوصل إلى هذه الأمور السرية بسرعة وإن جد واجتهد لهذا الغرض . وفي ذات يوم وعلى سبيل الصدفة بلغه هذا الخبر الذى يرويه الطبرى بقوله : « لما حبس أبو جعفر المنصور عبدالله بن الحسن في طلب ابنيه بعث له عيناً (١) وكتب معه كتاباً على ألسن الشيعة إلى محمد يذكرون له طاعتهم ومسارعتهم ، وبعث معه بمال والطاف ، فقدم الرجل المدينة فدخل على عبدالله بن الحسن فسأله عن محمد فذكر له أنه في جبل جهينة . وقال أمرر بعلي بن الحسن الرجل الصالح الذى يدعى بالأغر (٢)وهو

(١) اسمه خلاد وهو جد أبى العيناء الأديب المشهور والعالم المحدث المعروف ترجم له غالب المؤرخين ، وتحدث أبو العيناء نفسه عن جده الذى قام بالتجسس للمنصور فقال : إن المنصور دعا جدى خلاداً وكان مولاه فقال له أريدك لأمر قد همنى ، وقد اخترتك له ، وأنت عندى كما قال أبو ذؤيب الهذلي :

ألكنى اليها ، وخير الرسو ... ل أعلمهم بنواحى الخبر

فقال أرجو أن أبلغ رضى أمير المؤمنين ، فقال : صر إلى المدينة على أنك من شيعة عبدالله بن الحسن وابذل له الأموال وأكتب إلي بانفاسه وأخبار ولده فأرضاه. ثم علم عبدالله بن الحسن أنه أتى من قبله ، فدعا عليه وعلى نسله بالعمى . قال فنحن نتوارث العمى إلى يوم الساعة . راجع تاريخ بغداد للخطيب ج ٣ ص ١٧١ والعماد الحنبلي فى شذرات الذهب ج ٢ ص ١٨٢ .

(٢) ولد أبو الحسن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن السبط (ع) سنة ١٠٠هـ ونشأ نشأة صالحة حتى قيل فيه: علي الخير وعلي الأغر وعلي العابد . أمه أم عبدالله بنت عامر بن عبدالله بن بشر بن عامر بن ملاعب الأسنة بن مالك بن جعفر بن كلاب زوجه عبدالله بابنته زينب . حاز على مرتبة علميه عظيمة . أما عبادته فناهيك عنها فلقد بلغ به الحال من الاخلاص لله سبحانه ما يتجاوز حدود المعقول . يقول —

بذى الابر فهو يرشدك ، فأتاه فأرشده ، وكان لأبي جعفر كاتب على سره ، وكان متشيعاً فكتب إلى عبدالله بن حسن بأمر ذلك العين ومابعث له فقدم الكتاب على عبدالله فارتاعوا وبعثوا أبا هبار المزني إلى علي بن الحسن وإلى محمد ليحذرهم الرجل ، فخرج أبو هبار حتى نزل بعلي بن حسن فسأله عن الرجل فأخبره أنه أرشده إلى محمد قال أبو هبار : فجئت محمداً في موضعه الذى هو به فاذا هو جالس في كهف معه عبدالله بن عامر الاسلمي وابني شجاع وغيرهم ، والرجـل معهم أعلاهم صوتاً وأشدهم انبساطاً فلما رآني ظهر عليه بعض النكرة وجلست مع القوم فتحدثت ملياً ثم أصغيت إلى محمد فقلت له : إن لي حاجة فنهض ونهضت معـه

ـأبو الفرج : كان علي بن الحسن قائماً يصلي فى طريق مكة فدخلت أفعى فى ثيابه تحت ذيله حتى خرجت من زيقته فصاح به الناس : الأفعى فى ثيابك وهو مقبل على صلاته ثم انسابت فمرت فما قطع صلاته ولا تحرك ولا رئي أثر ذلك فى وجهه . اما قراءته للقرآن فكانت لها ميزة خاصة يقول موسى بن عبدالله : لما حبسنا فى المطبق لم نكن نعرف أوقات الصلوات لشدة الظلام إلا باجزاء من القرآن يقرؤها علي بن الحسن . وكان من الموصوفين بالجلد والصبر حتى أنه لما طالت عليهم المدة وهم فى السجن ضجر بعضهم من شدة ما يعانونه فأقبل عبدالله على علي بن الحسن فقال : ياعلي أترى ما نحن فيه من البلاء . ألا تطلب إلى ربك عز وجل أن يخرجنا من هذا الضيق والبلاء ؟ قال فسكت عنه طويلا ثم قال ياعم إن لنا فى الجنة لدرجة لم نكن لنبلغها إلا بهذه البلية أو بما هو أعظم منها . وإن لأبى جعفر فى النار موضعاً لم يكن ليبلغه حتى يبلغ منا مثل هذه البلية أو أعظم منها فأن تشأ أن تصبر فما أوشك فيما اصبنا أن نموت فنستريح من هذا الغم كأن لم يكن منه شيء . وإن تشأ أن ندعو ربنا عز وجل ان يخرجك من هذا الغم ويقصر بأبى جعفر غايته التى له فى النار فعلنا . قال : لا بل اصبر فما مكثوا إلا ثلاثاً حتى قبضهم الله اليه وهم بـذلك السجن المهول . وقد اتينا على بعض جوانب حياته بضمن مناسباتها فى هذا العرض .

فأخبرته بخبر الرجل ، فاسترجع وقال : فما الرأى ؟ فقلت : إحدى ثلاث أيها شئت فافعل . قال : وماهي ؟ قلت : تدعني فاقتل الرجل ، قال : ما أنا بمقارف دماً إلا مكرهاً . أو ماذا ؟ قلت : توقره حديداً وتنقله معك حيث انتقلت . قال : وهل بنا فراغ له من الخوف والاعجال . أو ماذا ؟ قلت : تشده وتوثقه وتودعه أهل ثقتك من جهينة . قال : هذه إذاً .

يقول أبو هبار : فرجعنا وقد نذر الرجل فهرب فقلت اين الرجل ؟ قالوا : قام بركوة فاصطب ماء ثم توارى بهذا الضرب يتوضأ . قال : فجلنا بالجبل وما حوله فكأن الأرض التأمت عليه . قال : وسعى على قدميه حتى شرع على الطريق فمر به أعراب معهم حمولة إلى المدينة فقال لبعضهم افرغ هذه الغرارة (١)وادخلنيها أكن عدلا لصاحبتها ولك كذا وكذا قال نعم ففرغها وحمله حتى أقدمه المدينة. ثم قدم على أبي جعفر فأخبره الخبره كله وعمي عليه اسم أبي هبار وكنيته وعلق وبرأ عنده فكتب أبو جعفر في طلب المزنى فحمل اليه رجلا يدعى وبراً فسأله عن قصة محمد وما حكى له العين فحلف أنه ما يعرف من ذلك شيئاً فأمر به فضرب سبعمائة سوط وحبس حتى مات أبو جعفر . وهذه هى المرة الاخرى التي يبرهن فيها محمد على شرف النفس وعظمة الدعوة التي يدعو لها . فانه قد استفدح اراقة الدماء . ودم هذا الرجل بصورة خاصة حينما ألح عليه ناصحه أبو هبار . وهو يعلم أن هـذا الرجل هو رجل سوء سوف يربك سير دعوته يوماً ما . ولكن الذى يظهر أن محمداً كان يحذر أن يأخذ لنفسه سمة السفاح أو ما شاكلها من الألقاب التي تشعر الناس بالخوف والرهبة إنه كان يحاول إقناع الناس بالطرق الايجابية المحببة لاالسلبية المرهبة .

(١) الغرارة : وعاء من الأوعية التى توضع فيها الآثاث عند العرب .
ـ لسان العرب ـ

وعلى أثر ما وصل إلى المنصور من أخبار محمد فقد أصدر أوامره إلى واليه على المدينة بملاحقته واتباعه وقتلهم . بعدما عين له الجهة التي يرتاد اليها محمد كثيراً إذ هي موضع رحله وثقله . وقام رياح فور وصول تلك الأوامر اليه بتنفيذ ماطلب منه وأخذ يرسم الخطط من أجل ذلك . وافتعل اسطورة المرآة بالوقت نفسه ، محاولة منه تثبيط المؤيدين لمحمد ليستطيع من مطاردته على انفراد . وأعطى فرفع ومنع فوضع ثم قام بشن حملته الأولى يقول الطبرى : « أخبر رياح بأن محمداً في شعب من شعاب رضوى جبل جهينة وهي من عمل ينبع فاستعمل عليها عمر بن عثمان بن مالك الجهني أحد بني جشم وأمره بطلب محمد فطلبه فلم يدركه .

ويتحدث محمد نفسه عن مضايقة رياح له فيقول : بينا أنا في رضوى مع أمة لي ام ولد معها بني لي ترضعه إذا ابن سنوطي مولى لأهل المدينة قد هجم علي في الجبل يطلبني فخرجت هارباً وهربت الجارية فسقط الصبي منها فتقطع ، وقد قال محمد فى هـــذا :

منخرق السربال يشكو الوجى	تنكبه اطراف مرد حداد
شرده الخوف فأزرى بـــه	كذاك من يكره حر الجلاد
قد كان في الموت له راحة	والموت حتم في رقاب العباد

واستمر رياح في ملاحقته حتى أعياه أمره فكتب إلى المنصور بذلك . يقول الطبرى :

« ولما طال على المنصور أمره ولم يقدر عليه وعبدالله بن الحسن محبوس آتاه عبدالله بن عمران بن أبي فروة فقال له . ياأميرالمؤمنين أتطمع أن يخرج لك محمد وابراهيم . وبنو حسن مخلون ؟ ـ والله للواحد منهم أهيب في صدور الناس من الأسد ! قال ؛ فكان ذلك الذى هاجه على حبسهم ، قال : ثم دعاه فقال : من

أشار عليك بهذا الرأي .

ثم أن أبا جعفر كتب إلى رياح بحبس بني الحسن جميعاً ووجه في ذلك أبا الأزهر المهري : فلما وصل الرسول إلى رياح اخذ « حسناً وابراهيم ابني الحسن ابن الحسن. وجعفر بن الحسن بن الحسن. وعباس بن الحسن بن الحسن بن الحسن» وقيل ان أبا جعفر عبدالله بن الحسن بن الحسن وأخيه المعروف بالعابد أخذا معهم وكان من أمر علي انه لما حبس هؤلاء وهم الوجبة الأولى من بني الحسن جاء إلى باب رياح وهو متلعف في ساج له فقال له رياح : مرحباً بك وأهلا ماحاجتك ؟ قال : جئتك لتحبسني مع قومي . ولما حبس هؤلاء تمادى رياح فى غيه وأظهر جبروته وبطشه فكان لا يراعي في الناس إلاً ولا ذمة واستمر على هـذا العنف مجاهراً في شتم محمد وابراهيم وانتقاص أهل المدينة حتى روي أنه صعد المنبر ذات يوم فأخذ ينال من محمد وابراهيم واصفاً إياهما بقوله : الفاسقين الخالعين الخارجين . ثم ذكر ابنة أبي عبيدة أمهما فأفحش لها فسبّح الناس وأعظموا ماقال ! فقال : الصق الله بوجوهكم الذل والهوان أما والله لا كتبن إلى خليفتكم فلاعلمنه غشكم وقلة نصحكم فقال الناس : لا تسمع منك ياابن المحدود وبادروه بالحصى فبادر واقتحم دار مروان وأغلق عليه الباب وخرج الناس حتى حفوا واجهه فرموه وشتموه ثم تناهوا عنه فكفوا

أما الوجبة الثانية فكان فيها موسى بن عبدالله ، وعلي بن محمد بن عبدالله وكان قد آتي به من مصر مقيداً . لأن أباه أرسله اليها داعياً له فيها . وكان عند وصوله اليها موضع تجلة واحترام من الطبقات التي تعرف مكانتهم واستجاب لدعوته كثير من الناس على قصر المدة التي مكث فيها هناك غير ان شبكة التجسس العباسي كانت واسعة إلى أبعد حد وأساليبها متعددة الأمر الذي مكنهم من التعرف على نشاطه فاوصلوا خبره إلى أبي جعفر فأرسل اليهم يأمرهم بالقبض عليه وحمله اليه وفوجيء حينما جاء هذا الأمر اليهم بالقبض عليه وهو على غرة . ورواية أخرى تنفي أنه سجن فى المدينة بل إنما سجن في العراق وهو على انفراد حتى إذا جيء بعمومته

وبذيهم جموه معهم في السجن ولعل هذه الرواية أقرب إلى الصحة من غيرها بقرينة طلب المنصور حمله اليه لاستجوابه .

وأن أهم ما يؤخذ عليه علي هذا هو افضاؤه بالأسرار الهامة بالنسبة إلى دعوة أبيه وتسمية طائفة كبيرة من أنصارهم فى مختلف البلدان . ولعل اهم عامل حد من نشاط الدعوة نفسها هو هذا لأن المنصور اخذ يتعقب الرجال الذين ذكرهم علي فتخاذل الآخرون عن اللحاق بركب ابيه لما رأوه من سجن من سماهم علي للمنصور ومكثوا فى السجن جميعاً اياماً قلائل اخذت منهم مأخذها من حيث الشدة والضيق الذي يعانونه من رياح يقول موسى بن عبدالله : « لما حبسنا ضاق الحبس بنا فسأل ابى رياحا أن يأذن له في أن يشتري داراً فيجعل حبسنا فيها ففعل. فاشترى أبى داراً فنقلنا اليها فلما امتد بنا الحبس أتى محمد أمه هند فقال : إنى قد حملت أبى وعمومتي ما لا طاقة لهم به ولقد هممت أن أضع يدي فى أيديهم فعسى ان يخلى عنهم قال : فتنكرت ولبست أطماراً ثم جاءت السجن كهيئة الرسول فأذن لها فلما رآها أبي أثبتها فنهض اليها فأخبرته عن محمد فقال : كلا . بل نصبر فوالله إني لأرجو أن يفتح الله به خيراً ، قولي له فليدع إلى أمره وليجد فيه فان فرجنا بيد الله ، قال : فانصرفت وتم محمد على بغيته (١) .

- ٦ -

أثار سجن بني الحسن في الحجاز بصورة عامـة موجـة شديدة من الاستياء ضد رياح وأصبحت المدينة من جراء تلك التحديات على فوهة بركان من أجـل الانتقام منه . وهو بدوره يتلون في سياسته الارهابية لبث روح الذعر والخوف بين الناس مضافاً إلى هذا معاملته السيئة للسجناء من بني الحسن ، وتواترت أخبار المدينة هذه إلى أبي جعفر فقرر ان يحج وحينما جاء جعل طريقه على المدينة فلما

(١) الطبرى مجلد ٦ ص ١٧٣ الطبعة السالفة الذكر .

وصلها شرع فى المفاوضة مع السجناء يقول الطبري بسنده عن موسى بن عبدالله :
« لما حج المنصور أرسل محمد بن عمران بن ابراهيم بن محمد بن طلحة ، ومالك بن أنس إلى أصحابنا ، فسألهم أن يدفعوا اليه محمداً وابراهيم ابني عبدالله ، قال فدخل علينا الرجلان وأبي قائم يصلي فأبلغاهم رسالته فقال حسن بن حسن : هذا عمل ابني المؤمنة . أما والله ما هذا رأينا ولا عن ملأ منا ولا لنا فيه حيلة . قال : فاقبل عليه ابراهيم فقال : علام تؤذي أخاك فى ابنيه ؟ وتؤذي ابن أخيك في أمه ؟ قال : وانصرف أبى من صلاته فأبلغاه فقال لا والله لا أرد عليكما حرفاً أن أحب أن يأذن لي فألقاه . فليفعل ، فانصرف الرجلان فأبلغاه ، فقال : أراد أن يسحرنى لا والله لا ترى عينه عيني حتى يأتيني بابنيه يقول ابن الأثير : وكان عبدالله لا يحدث أحداً قط إلا قلبه عن رأيه .
لهذا السبب خشي أبو جعفر الاجتماع بعبدالله فقطع المفاوضات وانصرف إلى مكة ليحج وبعدما قضى مناسك حجه عاد فجعل طريقه على الربذة ونزل فيها فجاء اليه رياح مستقبلا إياه فرده إلى المدينة وأمره باشخاص بني الحسن اليه ومعهم محمد ابن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان أخو بني الحسن لأمهم على رواية كل من العماد الحنبلي في الشذرات وابن الأثير في الكامل وابن جرير فى تاريخه والمسعودي فى مروج الذهب وغيرهم كالأصفهانى في المقاتل الذي ترجم له بالضمن ' فرجع رياح إلى المدينة وقام فى تنفيذ ماطلب منه فى أمر نقل بني الحسن وشاع خبر ماأزمع عليه فى عامة أرجاء المدينة فتقاطر الناس على باب السجن وازدحمت تلك البقعة من الأرض بالمجتمعين الذين ينتظروا خروج السجناء ليروا على أي حالة سيخرجون وهم أسياد المدينة ومطمح أنظار الناس. وبينا هم وقوف وإذا برياح يخرج والسجناء خلفه قدوضع في أيديهم الحديدفجيء بهم حتى اوقفوا عند باب المسجد وهم يتظاهرون بالجلد وعدم الاكتراث أما رياح فأحب أن يودعهم بنوع من التحدي لعل المنصور يقدره له فراح يشتمهم ويطلب من الناس شتمهم، فأخذ الناس يردون عليه

سباً وشتما له ولمن ولاه . تقول خديجة بنت عمر بن علي : لما اوقفونا عند باب مسجد رسول الله (ص) الباب الذي يقال له باب جبرئيل أطل علينا أبو عبدالله الصادق عليه السلام ـ وعامة ردائه مطروح بالأرض ثم اطلع من عند باب المسجد فقال : لعنكم الله يامعاشر الأنصار . ثلاثاً . ما على هذا عاهدتم رسول الله ولا بايعتموه أما والله إن كنت حريصاً ولكني غلبت وليس للقضاء مدفع ، ثم قام وأخذ إحدى نعليه وأدخلها في رجله وبقيت الأخرى وعامة ردائه يجره في الأرض. فدخل بيته فحم عشرين ليلة لم يزل يبكى فيها الليل والنهار حتى خفنا عليه . وتروى له حالة غير هذه وهى تعبر عن مدى استياء الامام عليه السلام . لما ألم ببنى عمه من الخطب وتعطينا صورة صادقة عما يكنه لهم من التقدير والاكبار . يقول الحسين ابن يدر: « غدوت إلى المسجد فرأيت بني الحسن يخرج بهم من دار مروان مع أبى الأزهر يراد بهم الربذة فانصرفت فأرسل إلي جعفر بن محمد فجئته ، فقال : ما وراءك فقلت رأيت بنى حسن يخرج بهم في محامل قال : اجلس فجلست فدعا غلاماً له ثم دعا ربه دعاء كثيراً ثم قال لغلامه اذهب فاذا حملوا فأت فاخبرنى ، فأتاه الرسول فقال : قد أقبلوا بهم فقام الامام جعفر بن محمد (ع) فوقف من وراء ستر شعر يبصر من ورائه ولا يبصره أحد فطلع بعبدالله بن الحسن فى محمل معادله مسود(١) وجميع أهل بيته كذلك ، قال : فلما نظر اليهم الامام(ع) هملت عيناه حتى جرت دموعه على لحيته ثم أقبل علي فقال ياأبا عبدالله والله لا يحفظ الله حرمة بعد هؤلاء .

ولما صاروا بقصر نفيس على ثلاثة أميال من المدينة دعا رياح الحدادين بالقيود والأغلال فألقى كل رجل منهم فى كبل وغل ، فضاقت حلقتا قيد عبدالله بن الحسن فعضتاه فتأوه فأقسم عليه أخوه الحسن ليحولن حلقتيه عليه إن كانتا أوسع فحولتا عليه وساروا بهم متوجهين إلى الربذة . يقول ابن الأثير : « ولما حمل بنو الحسن كان

(١) المسود كناية عن الرجل العباسي الذي يرتدى السواد وهو شعار العباسيين

محمد وابراهيم يأتيان معتمين كهيئة الأعراب فيسايران أباهما ويسائلانه ويستأذنانه في الخروج فيقول لا تعجلا حتى يمكنكما ذلك . ويقول : إن منعكما أبو جعفر أن تعيشا كريمين فلا يمنعكما أن تموتا كريمين .

لقد أثار هذا المنظر المؤلم في نفس محمد وابراهيم ألماً وحزناً كما أثر فيهما من النشاط ما جعلهما يواصلان الجد في أمرهما الليل والنهار وتيقنا أن تقرير مصيرهما واولئك السجناء منوط بهما وعرفا أن الفرصة واتتهما لما لمساه من استياء الناس عامة من والي المنصور وتحدياته . ولعل المنصور قد أدرك ذلك عند مروره في المدينة أول الأمر فألح بحملهم لئلا تشتد الوطئة عليه حينما يثور محمد والناس بهذا الشكل فلا يبعد أن يكونوا معه . كل هذا مما دعا المنصور ان يحملهم إلى الربذة ومن ثم يوجههم إلى العراق وكان ممن حمل معهم محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان المعروف بـ « الديباج » بسعاية رياح وافترائه عليه واتهامه له بأنه يراسل أهل الشام في أخذ البيعة لمحمد وخلع المنصور . كما أنه صوره بصورة انشط عضو فعال تقوم عليه دعوة محمد مما أوغر صدر المنصور عليه وجعله يتحرق للقبض عليه .

يقول الطبري : « لما صار بنو حسن إلى الربذة دخل محمد بن عبدالله بن عمر ابن عثمان على أبي جعفر بأمر منه وكان عليه قميص وساج وأزار رقيق تحت قميصه فلما أوقف بين يديه أخذ يكيل له الشتم والسب المقذع ونسبه إلى أمور لا تتناسب معه ويربأ التحدث بها أي رجل يدعي الشرف بغض النظر عن كونه خليفة ولم يكتف بذلك بل راح يهيل له سيلا من قارص القول والاتهامات التي يبرأ منها مثله ثم صاح السياط السياط فجاءه رجال بايديهم السياط فأمرهم بتجريد ثيابه وشق قميصه عن ازاره وكشف عورته وبعدهذا أشاراليهم بضربه. فضرب خمسين ومائة سوطاً فبلغت منه كل مبلغ ثم أمر أبو جعفر بأن يردفوه ثلاثين سوطاً فضرب حتى لم يستطع بعدها من الحراك ثم دعا أبو جعفر بساجور من خشب شبيه به في طوله وكان طويلا فشد في عنقه وشدت به يده ثم اخرج ملبباً فلما طلع به من حجرة

أبي جعفر وثب اليه مولى له فقال : بأبي أنت وأمي ألا ألوثك بردائي ؟ قال : بلى جزيت خيراً فوالله لشفوف أزاري أشد علي من الضرب الذي نالني ، فألقى عليه المولى الثوب ومضى به إلى أصحابه المسجونين ووضع إلى جنب أخيه عبدالله ابن الحسن ، فأخذ عبدالله يمرضه حتى تحسنت حالته بعض الشيء (١) وبينما هم كذلك وإذا برسول أبي جعفر إلى عبدالله كما يروي ذلك موسى بن عبدالله يقول : « أرسل أبو جعفر إلى أبي أرسل إلي أحدكم واعلم أنه لا يعود اليك أبداً فابتدره بنو اخوته يعرضون أنفسهم عليه فجزاهم خيراً وقال : « أنا أكره أن أفجع بكم ولكن اذهب أنت ياموسى ، قال : فذهبت وأنا يومئذ حدث السن ، فلما نظر إلي قال : لا أنعم الله بك عيناً السياط ياغلام قال : فضربت والله حتى غشي علي فما أدري بالضرب ، ثم رفعت السياط عني واستدناني ، فقربت منه ، فقال : أتدري ما هذا ؟ هذا فيض فاض مني ، فافرغت عليك منه سجلا ، لم استطع رده ، ومن ورائه والله الموت أو تفتدي منه . قال : قلت : والله ياأمير المؤمنين إن كان ذنب فاني لبمعزل عن هذا الأمر . قال : فانطلق فأتني بأخويك . قال : فقلت : تبعثني إلى رياح بن عثمان فيضع علي العيون والرصد ، فلا أسلك طريقاً إلا أتبعني له رسول ، ويعلم أخواي فيهربان مني . قال : فكتب إلى رياح : لا سلطان لك على موسى . ثم أرسل معي حرساً أمرهم أن يكتبوا اليه بخبري . فقدمت المدينة فنزلت فى دار ابن هشام بالبلاط ، فأقمت بها شهوراً » (٢)

وهناك رواية تقول : بأن عبدالله هو الذي فاتح المنصور في أمر اطلاق ولده موسى بحجة التفتيش عن أخويه محاولة منه أن يستخلصه من الحالة التي هم يعانونها. وهي مردودة للأسباب الآتية :

أولا — ان المنصور يرفض الاجتماع بعبدالله مطلقاً حذراً من أن يؤثر عليه .

---

(١) الطبري ج ٦ ص ١٧٥ ط الاستقامة .

(٢) المقاتل ص ٣٩١ ط مصر ، والطبرى .

ثانياً : إن عبدالله من شرف النفس وعلو الهمة بمكان أسمى من أن يكون ضنيناً بابنه على اخوته وبنيهم .

أما كيف اتصل موسى بابيه وكيف حمله أبوه رسالته لولديه التي يحتج فيها انصار رواة تلك الرواية فذاك مما لا يمكن الشك فيه لأن موسى حين خروجه من المنصور جعل طريقه على أبيه فساره وحمله هذين البيتين :

يابني أمية إني عنكما غان وما الغنى غير أني مرعش فان
يابني أمية إن لا تدعا كبري فإنما أنتما والثكل مثلان (١)

وبعد هذا صمم المنصور على الرحيل من الربذة عائداً إلى العراق ، وأمر بحمل بني الحسن إلى العراق أيضاً ليكونوا بالقرب منه إذا احتاج التنكيل بهم ولأغراض أخرى أشرنا اليها فيما تقدم .

- ٧ -

إلى قبور الأحياء

جو مكفهر ، وموقف راهن ، وأعناق مشرأبة ، وبلبلة فكرية ، وآهات متصاعدة ، ودموع تتلألأ في المآقي فلا تكاد تتساقط ، من أجل ذلك المنظر المؤلم . كانت هذه حالة الناس في ذلك اليوم الذي أخرج به السجناء من بنى الحسن يراد بهم العراق . إنها حالة خشي المنصور أن يخرجهم على مثلها من المدينة . لئلا يثأر أهلها لأسيادهم ويكون بالنتيجة ضحية لمثل هذه الأجرء .

وأخرجوهم وهم يرسفون بالقيود والاغلال وأركبوهم ذلك المركب الخشن بدون وطاء وفيهم الشيخ الذي لا يقوى على تحمل مثل هذا التعذيب . والشاب المترف الذي انتابته العلة بمجرد وضع الأغلال فى يديه هذا وهم لا يعلمون ماتبيت لهم الأقدار على أيدي أولئك الجلادين ؟ وماذا سيكون أمر الذين خلفهم بعد آن عرفوا الشيء الكثير عن نذالة رياح والي المنصور .

(١) المقاتل : ص ٢٢٤

يقول المسعودي : « لما ارتحلوا من الربذة وهم على مثل تلك الحال صاح عبدالله ابن الحسن يا أباجعفر ماهكذا فعلنا بكم يوم بدر ، فساروا بهم حتى أوصلوهم الكوفة وحبسوا في سرداب تحت الأرض لا يفرقون فيه بين الليل والنهار » ورغم هذا فانه لضيقه وكثرتهم لايستطيع أحدهم بأن يجلس جلسة يستريح بها. وقد بلغ الضيق بهم أن خصمهم لم يرخص الموكل بهم من افساح المجال لهم في قضاء حاجتهم خارج السجن حتى اشتدت عليهم الرائحه ، فاحتال بعض مواليهم فأدخل اليهم شيئاً من الغالية فكانوا يدفعون بشمها الروائح المنتنة . وكان الورم يبدو في أقدامهم فلا يزال يرتفع حتى يبلغ الفؤاد فيموت صاحبه . فمن جملة من مات ابراهيم بن الحسن بن الحسن ومحمد بن ابراهيم . وقيل أن المنصور دعا بأن يأتوه بمحمد بن ابراهيم فلما أتي به اليه قال له : انت الديباج الأصغر ؟ قال : نعم . قال : اما والله لاقتلنك قتلة ما قتلتها احداً من اهل بيتك . ثم امر باسطوانة مبنية ففرقت ثم ادخل فيها فبنيت عليه وهو حي وكان الناس قبل هذا يأتون اليه فينظرون إلى حسنه (١)

اما طريقة اداء الفريضة عندهم فانهم جزؤا القرآن خمسة اجزاء فكانوا يصلون الصلاة على فراغ كل واحد من حزبه . وكان عدد من بقي منهم خمسة . فمات اسماعيل بن الحسن فترك عندهم حتى جيف فصعق داود بن الحسن فمات .

ولقد اثرت هذه المآسي في نفس ابراهيم اثراً ممضاً الأمر الذي جعله يواصل الليل بالنهار وهو في العراق مرة وفي الأهواز اخرى وفي الشام تارة بالدعوة إلى الثورة ، وعلى اثر ما بلغه من حالة اهله فقد انشد هذه القصيدة التي ينسبها بعضهم إلى غالب الهمداني وهو قول لا شك في بعده . واليك ما قال :

ما ذكرك الدمنة القفار واهـ ـل الدار ما نأوا عنك او قربوا

---

(١) الطبري ج ٦ ص ١٧٩ ط الاستقامة ، ومروج الذهب ج ٣ ص ٣١١ ط دار الرجاء .

إلا سفاهاً وقد تفرعك الـ شيب بلون كأنه العطب
ومر خمسون من سنيك كما عد لك الحاسبون إذ حسبوا
فعدّ ذكر الشباب لست له ولا إليك الشباب ينقلب
إني عرتني الهموم واحتضر الـ هم وسادى والقلب منشعب
واستخرج الناس للشقاء وخلفـ ت لدهر بظهره حدب
أعوج استعدت اللئام به ويحنو به الكرام إن شربوا

* * *

نفسي فدت شيبة هناك وظنـ بوباً من قيودهم ندب (١)
والسادة الغر من ذويه فما روقب فيهم آل ولا نسب
ياحلق القيد ما تضمنت من حلم وبر يزينه حسب
وأمهات من الفواطم أخـ لصتك بيض عقايل عرب
كيف اعتذاري إلى الاله ولم يشهر فيك المأثورة القضب
ولم أقد غارة ململة فيها بنات الصريح تنتحب
والسابقات الجياد والأسل الـ سمر وفيها أسنة ذرب
حتى توفى بني نتيلة بالـ قسط بكيل الصاع الذي احتلبوا
بالقتل قتلا وبالأسير الذي في القيد أسراً مصفودة سلب
أصبح آل الرسول أحمد في الـ ناس كذي عرة به جرب
بؤساً لهم ما جنت أكفهم وأي حبل من أمة قضبوا
وأي عهد خانوا الاله به شد بميثاق عقده الكذب

ومن الذين تأثرت عواطفهم لحالة بني الحسن تلك . هو أبو فراس الحمداني حيث يقول في قصيدته المشهورة ذاكراً ذلك المشهد المؤلم ومعرضاً ببني العباس :

---

(١) الظنبوب : هو عظم الساق . والندب : الجرح .

بئس الجزاء جزيتم في بني حسن	أبوهم العلم الهادي وأمهم
لا بيعة ردعتكم عن دمائهم	ولا يمين ولا قربى ولا ذمم
هلاصفحتم عن الأسرى بلاسبب	كالصافحين ببدر عن أسيركم
هلا كففتم عن الديباج السنكم	وعن بنات رسول الله سبكم
ما نزهت لرسول الله مهجته	عن السياط فألا نزه الحرم
مانالمنهم بنو حرب وإن عظمت	تلك الجرائم إلا دون نيلكم
كم غدرة لكم في الدين واضحة	وكم دم لرسول الله عندكم

- ٨ -

ابراهيم بن عبدالله

أمه هند بنت أبي عبيدة. ويكنى بأبي الحسن، وكما قيل في نشأة أخيه محمد فابراهيم يشترك معه فيها حيث التربية الصالحة والجد في طلب العلم وحب الخير ، وقوة العزيمة وإباء الضيم ، والأنفة وحسبنا منه أنه « لم يملأ عين المنصور بعد أبيه وأخيه غيره من بني الحسن » ولقد كان خطيباً من الطراز العالي وشاعراً من فحول شعراء العرب تواقاً إلى الأكثار من قراءة كتب الأدب . حتى أن بعض المؤلفين فى الأدب والتأريخ يرون أن « المفضليات من جمع ابراهيم بن عبدالله جمعها من دواوين العرب لما كان مختفياً في منزل « المفضل الضبي » فلما قتل ابراهيم نسبت المفضليات إلى المفضل المذكور ، وكان المفضل زيدياً ومن رواة حديث ابراهيم وشعره كما كان ابراهيم يكثر من الاقامة عنده .

يقول أبو الفرج بسنده إلى المفضل نفسه (١) : إنه يقول : كان ابراهيم بن عبدالله بن الحسن متوارياً عندى ، فكنت أخرج وأتركه ، فقال لي : إنك إذا خرجت ضاق صدري ، فاخرج إلي شيئاً من كتبك أتفرج به ، فاخرجت اليه

(١) الأغاني ج ١٧ ص ١٠٩ ، وابن أبي الحديد ج ١ ص ٣٢٤

كتباً من دواوين العرب ، فأختار منها السبعين قصيدة التي صدرت بها اختيار الشعراء (١) ثم أتممت عليها باقي الكتاب .

ولقد كان سياسياً من الطراز العالي فيه كل ما في السياسي من قدرة على التعرف بمهام الدعوة التي يدعوها من رجحان الرأي والفطنة ، وكتمان السر في جميع الأمور خطيرها وحقيرها وكأنه قد جعل هذا المثل العربي برنامجاً لحياته السياسية « استعن على أمورك بالكتمان » . مضافاً إلى هذا فانه قد كان موفور الحظ في استجابة ذوي الأثر من العلماء وأرباب الفكر له . يتحدث الطبري عن دخوله البصرة وتكتمه في أمره بأنه دخلها ولم يعلم به حتى رفقاؤه . فانه فارقهم قبل وصوله إلى حدودها بمسيرة يوم بكامله ولا يعلمون عنه القليل والكثير . يقول مظاهر بن الحرث وهو أحد رفقائه : أقبلنا مع ابراهيم بن عبدالله من مكة نريد البصرة فلما كنا على ليلة منها تقدم ابراهيم وتخلفنا عنه ثم دخلنا من غد . فقال أبو نعيم لمظاهر : أمر ابراهيم بالكوفة ؟ قال : لا والله ما دخلها قط ولقد غاب بالموصل ثم الأنبار ثم بغداد والمدائن والنيل وواسط .

تفكر في قول هذا الرجل من أصحابه ، وما فيه من إيضاح عن نشاط ابراهيم في دعوته واحتفاظه بأمره . ومنه نتبين أن وضعه غير وضع محمد مع أصحابه فنرى مثلا أن محمداً كان كثير التبسط مع أصحابه وخاصته وإن كان فيهم خليط بينما نرى ابراهيم على العكس من ذلك . ولقد كانت الدعوة التي يدعو لها في اتساع مستمر ونشاط لا مثيل له وكانت ترتكز على دعائم ثلاث :

الأولى : قربهم من النبي (ص) وهذه يشترك فيها عامة بني هاشم .

الثانية : الموازنة بينهم وبين بني العباس ، والتدليل على أفضليتهم مع التشهير بأبي جعفر المنصور بصورة خاصة واحتفاظه بما مسكه عليه من المخالفات الدينية

(١) وفي ابن أبي الحديد « فاختار منها القصائد السبعين التي صدر بها كتاب المفضليات »

والسياسية . وأعظم شيء كان يتذرع فيه هو سجن أهل بيته وهم بالقرب منه .

الثالثة : ما في رقبة المنصور من البيعة لمحمد ذي النفس الزكية . فمحمد هو الخليفة الشرعي على اعتبار تلك البيعة التي سبق وان أشرنا اليها ، والذي كان المنصور هو الداعي الأول لعقدها . كما صار بالتالي الداعي الأول لنقضها . وهناك أمور أخرى يذكرها ابراهيم في ضمن خطاباته وأحاديثه حسب ما يتناسب مع المقام .

ولقد استجابت له البصرة حتى روي أن ديوانه أحصى أربعة آلاف أو يزيدون وكان يلقي في المجتمعات العامة والأندية الخطب الحماسية التي كان لها الأثر الفعال في نفوسهم ، فلقد صعد ذات يوم المنبر واستعرض أعمال بني العباس فكان من قوله فيهم :

« صغروا ما عظم الله عز وجل وعظموا ما صغر الله ، ثم قال : ياأهل البصرة لقيتم الحسنى ، وآويتم الغريب ، لا أرض ولا سماء ، فان أملك فلكم الجزاء وإن أهلك فعلى الله عز وجل الوفاء »

ويقول الطبري في وصف حال المنصور حيال نشاط أمر ابراهيم : « بقي المنصور خمسين ليلة لم يخلع لباسه . فاذا سئل عن ذلك يقول : كيف انزعه والملك لابراهيم ؟ »فكان اهتمامه في تعقيب امرابراهيم أشد منه في أمر محمد . ولقد هاله أمر الكوفة وما هم عليه من المسارعة إلى دعوة ابراهيم ، لما يرونه من قسوة المنصور مع السجناء من بني الحسن الذين هم بمرأى ومسمع منهم في سجن الكوفة « المطبق » الأمر الذي جعلهم بشكل لا يأمن المنصور تركهم عليه ، فكان إذا اتهم أحداً منهم بالميل لابراهيم أمر سالماً وهو أحد رجاله المعروفين بطلبه ويقوم سالم بتعيين داره نهاراً حتى إذا غسق الليل وهدأ الناس نصب سلماً على منزل الرجل فيطرقه في بيته ثم يقتله ويأخذ خاتمه وأعلنت في الكوفة حالة الطواريء وفرض عليها الحصار الشديد والرقابة المتزايدة .

يقول الطبري بسنده إلى أبي سهل جواد أنه قال : سمعت جميلا مولى محمد ابن أبي العباس يقول للعباس بن سالم : والله لو لم يورثك أبوك إلا خواتيم من قتل من أهل الكوفة كنت أيسر الناس » (١)

- ٩ -

وعلى مثل هذه السياسة الهوجاء كان يجري المنصور في القضاء على دعوة الأخوين وهي لا تزداد إلا مضياً وانتشاراً . وكان ابراهيم في البصرة وهذه الأعمال تجري في الكوفة . فخشي أن يعمل المنصور مثل ذلك في البصرة ومن أجل هـذا فقد ترجح لديه أن يغادر البصرة موقتاً ليقصد الشام ، وبالفعل فانه قـــد انتقل «إلى الشام حتى نزل بالخيار من أرض الشام على آل القعقاع بن جليد العبسي فسمع به الفضل بن صالح بن علي وكان على قنسرين من قبل أبي جعفر ، فكتب له كتابا وجعل في آخره رقعة يخبره بها عن ابراهيم وأنه طلبه فوجده قدسبقه منحدراً إلى البصرة ، فورد الكتاب على أبي جعفر فقرأ أوله فلم يجد فيه إلا السلامة فألقى الكتاب إلى أبي أيوب المورياني فأخذه والقاه في ديوانه . ثم لما أرادوا أن يجيبوا الولاة عن كتبهم . وكانت قد تجمعت عندهم بكثرة . فأتت نوبة الاجابة على هذا الكتاب ، فلما تناول الكتاب ابان بن صدقة وهو يومئذ كاتب أبي أيوب لينظر في تاريخه وقع بصره على تلك الرقعة ولما قرأها أخبر المنصور بذلك فقرأها المنصور للتأكد فاتضح له صدق ابان . فأمر بالحال في اذكاء العيون ووضع المسالح والمراصد في كل بقعة من أراضي الشام وعلى الحدود العراقية .

غير أن ابراهيم بفضل حنكته استطاع بأن يتخلص من تلك الرقابة المتزايدة وينتهي به السير إلى الموصل وكان فيه معسكر المنصور ، وكل ما يقال في هـذه البلدة يومذاك أنها أشبه ما تكون بحامية لمعسكر المنصور في الشمال لما لموقعها الاستراتيجي من أثر هام على تهدئة الحالة في الشام التي يتخوف من وثبتها عليـه

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٤٨ ط الاستقامة القاهرة .

انتصاراً لمجدها أيام الأمويين . أما كيف دخل ابراهيم اليها فذاك ما نترك الحديث عنه لابراهيم نفسه فانه يقول :

« اضطرني الطلب بالموصل حتى جلست على موائد المنصور ، وذلك انه قدمها يطلبني فلفظتني الأرض فجعلت لا أجد مساغا . ووضع الطلب والمراصد ودعا الناس إلى غدائه فدخلت فيمن دخل وأكلت فيمن أكل ثم خرجت وقد كف الطلب »

ومعلوم أن الطلب لم يكف إلا بعد اليأس من العثور عليه . ولما شعر بأن الطلب قد خف عنه عاودته الطمأنينة وأخذ يستعيد نشاطه ليتوصل إلى دعوة افراد الجيش عن طريق المتشيعين الذين هم في جيش المنصور . وقد كان موفقاً في هذه الفكرة غاية التوفيق فانه لا يستطيع القيام بها إلا من أوتي نصيباً من نكران الذات والتفاني في سبيل المبدأ . وطبعي أن من يكون هذا شأنه فانه لا يفكر بالهزيمة والخوف .

نعم اتصل بهم ودعا قسما لا بأس به منهم فاعطوه العهود والمواثيق على النصرة وانصرف عنهم متوجهاً إلى البصرة . ولم يقتصر تفكيره على هذا وحسب وإنما تعدى إلى أكثر من ذلك وهو التوصل إلى المعسكر العام لدعوة من يأنس فيهم الثقة ليكسب على الأقل كفهم عنه فيما لو دعوا لحربه ، وقد ارتأى هذا وهو في طريقه إلى البصرة والجيش يومئذ مخيم مع أبي جعفر الذي يشرف على بناء عاصمته الجديدة . وبيناهو يسير في طريقه إذ استجد له رأي في الأمر وهو أن يراسل من يعرفه ويعتقد بواقع حبه له هناك ويعرض عليهم نفسه فان هم طلبوا منه القدوم اليهم فعل وإلا يسلك طريقه إلى بغيته . فلما كتب اليهم أجابوه يسألونه القـدوم عليهم كما يعدونه الوثوب على أبي جعفر فجاء حتى قدم المعسكر والمنصور نازل في الدير فزعم زاعم أن المنصور نظر في مرآته وأخبر أن ابراهيم في معسكره فأمر بطلبه .

قارئي العزيز لعلك استغربت هذه الفقرة الأخيرة وهي : « أن المنصور نظر في مرآته الخ » ولعلك تقول ما هذه المرآة ؟ ومن أين أتي بها الى المنصور ؟ وإني مثلك في شك من امر هذه المرآة ولكني بالتالي اهتديت الى حل واحد لا

أرى غيره بالنسبة إلى هذه الأسطورة التي نسجت خطوطها رواة السوء فعزتها إلى الاعجاز وسدلت عليها ستار الكرامة لتجعل من المنصور انساناً أعلى لما اختص به من مثل هذه الكرامات وغدت تروي اسطورة المرآة بشكل لا يمكن لأي أحد من أهل ذلك العصر تكذيبها ، وإن حصل من يشك فيها فالويل له والثكل لأمه .

إنها رويت بهذا الشكل : « لقد كانت المرآة عند نوح النبي (ع) وقد كرمه الله بها لاحتياجه لها في معرفة عدوه من صديقه ، فما زالت من بعد نوح تنتقل إلى الأنبياء الواحد تلو الآخر حتى وصلت إلى خزائن بعض الملوك التي غنمتها الجيوش الاسلامية حتى وصلت إلى أبي جعفر المنصور لما له من المكانة عند الله ! »

قارئي أتعلم بأول من جهر بهذا على المنبر ؟! إنه رياح والي المنصور على المدينة، وكان داهية دهياء ولا أشك بأنها من مفتعلاته ، فانه حاك خيوطها وهو على المنبر والأعناق مشرأبة اليه في الظرف الذي تعسرت عليه مطاردة محمد بن عبدالله . فقال : « إن لأمير المؤمنين مرآة الخ » (١) إنه يقصد من وراء هذا تثبيط من يحاول الالتحاق بمحمد أو من يميل اليه . وإذا حصل على ذلك فالمرآة هي عبارة عن شبكة التجسس الواسعة التي استخدمها المنصور . وقد لاقت هذه الفرية هوى في نفس المنصور فأخذ يتظاهر بها . وأنا لا استبعد بأن المنصور قد اخبر عن ورود ابراهيم إلى تلك البقعة ولكن لم يوقف عليه بمكان معين فلذلك أشاع بأنه نظر في مرآته ليحتاط الجيش لنفسه من سطوته فيرد ابراهيم حتى من قبل من يعرفه لئلا يفتضحوا عندما تشتد التحريات . وليستطيع من القبض على ابراهيم في وضح النهار .

أما ابراهيم فانه قد أشعر بأنذار المنصور لجيشه من قبل خاصته فتسلل منه ولم يكمل مهمته لشدة الرقابة المفروضة هناك حتى أتى « فاميا » (٢) فلجأ اليه فأصعده

(١) الطبري مج ٦ ص ٢٤٢ ط دار الاستقامة

(٢) الفامي هو البقال

غرفة له وكان قبل أن يأتى إلى ذلك الرجل قد بصر به المنصور بنفسه فتتبعه فتاه عليه بين الناس . ومكث ابراهيم عند ذلك الرجل يترقب التخلص من هذا المأزق الحرج ، فأقبل اليه أحد أصحابه المعروف بسفيان بن حيان فقال له : قد نزل بنا من الأمر ما قد ترى ، ولا بد من التغرير والمخاطرة . قال فأنت وذاك فأقبل سفيان إلى الربيع فسأله الأذن ، قال : ومن أنت ؟ قال : أنا سفيان العمي ، فأدخله على أبي جعفر فلما رآه شتمه . فقال : ياأميرالمؤمنين أنا أهل لما تقول غير أنى أتيتك نازعاً تائباً ولك عندي كل ما تحب إن أعطيتني ما أسألك ؟ قال : ومالي عندك ؟ قال : آتيك بأبراهيم ، فانى قد بلوته وأهل بيته ، فلم أجد فيهم خيراً فما لي عندك إن فعلت ؟ قال : كل ما تسأل لك ! فأين ابراهيم ؟

قال : دخل بغداد أو هو داخلها عن قريب فجهد أبو جعفر في أن يستطلع محدثه عن مكان ابراهيم الذي يعهده فيه . فقال : إني خلعته في منزل خالد بن نهيك ، فاكتب لي جوازاً ولغلام لي ولغرانق واحملني على البريد . وقيل إنه قال غير هذا وهو أنه طلب من المنصور أن يجهـــزه بجند وجواز له ولغلامه فأجابه المنصور إلى ذلك وكتب له الجواز وسيرمعه من الجند ما طلب وزوده بألف دينار وقال له استعن بها فقال : لا حاجة لي فيها كلها فأخذ ثلثمائة دينار وأقبل بها حتى أتى ابراهيم وهو في بيت عليه مدرعة صوف وعمامة فصاح به : قم فوثب كالفزع فجعل يأمره وينهاه حتى أتيا المدائن فمنعه صاحب القنطرة بها فدفع اليه جوازه فقال : اين غلامك ؟ قال : هذا فلما نظر في وجهه قال : والله ما هـذا غلامك وإنه لابراهيم بن عبدالله ولكن اذهب راشداً فاطلقهما وهرب . ثم أنهما ركبا البريد حتى سارا « بعبدسي » (١) ثم ركبا سفينة حتى قدما البصرة فاختفيا بها .

---

(١) عبدسى : اسم ناحية من نواحي كسكر . التى خربها العرب ، وكانت لها نواحى متعددة فمنها : المبارك ، وعبدسى ، والمذار ، ونقيا . وقصبتها واسط . ولما —

وبلغ خبر ورودهما البصرة الى والي أبي جعفر المنصور فأخذ يجـد في طلبهما ليلاً ونهاراً فلم يستطع من العثور عليهما لكثرة أنصار ابراهيم فيها عندئذ كف الطلب.

ولما عرف ابراهيم أنه مطلوب من قبل والي البصرة قرر النزوح عنها فتوجه إلى الأهواز قابعاً في ظلام الليل الدامس حتى وصل إلى ناحية دُجيل - ناحية في مدينة الأهواز - ونزل على الحسن بن حبيب - أحد رجال الشيعة هناك - واختفى عنده. غير أن أمر خروجه من البصرة ودخوله إلى الأهواز لم يكن خفياً على جواسيس المنصور فاتصلوا بوالي الأهواز وأخبروه عن وصول ابراهيم إلى منطقته، وكان قبل هذا قد جاءه أمر المنصور بتحصين تلك المنطقة بتشديد الرقابة فيها لئلا يتسرب اليهـا ابراهيم. فاشتد ذلك الوالي - محمد بن الحصين - في طلبه حتى أنه قال ذات يوم، إن أمير المؤمنين كتب إلي يخبرني أن المنجمين يخبرونه أن ابراهيم بالأهواز نازل في جزيرة، وإني قد طلبته بالجزيرة حتى وثقت بأنه غـير موجود فيها، والآن قد اعتزمت أن أطلبه في المدينة صباح غد.

ويظهر لنا من قول والي المنصور هذا وهو « أن المنجمين يخبرونه إلخ » بأن الخليفة العباسي كان شديد الايمان بتأثير مثل هـذه الأساليب على تلك العقول التي إما أن تكون ساذجة أو أنها تتظاهر بذلك، مما أدى إلى طمع المنصور فيهـا حتى أخذ يعاملهم بهذه المعاملة، فمرة يدعي أنه نظـر في مرآته وأخرى أن المنجمين أخبروه، وإن الذي لديه مثل تلك المرآة لا يحتاج إلى خرافة المنجمين وحدسهم المكذوب.. وهذا كله يعود إلى ما كان يتمتع به المنصور من الدهاء والفطنة وخبرته بطرق التأثير على الناس.

وبالنظر إلى انذار والي المنصور هـذا فقـد اصبح موقف الحسن بن حبيب صاحب ابراهيم من الحراجة بمكان. فهو لا يستطيع أن يصرفه عنه خوفاً عليه

- مصرت العرب الأمصار فرقتها. وقد نسبت في تسميتها إلى كسكر بن طهمورث الذي هو أصل الفرس (معجم البلدان ج ٧ ص٢٥٢)

كما لا يستطيع من ابقائه في داره حذراً من التحري الذى اعلن عنه .

فلم يكن منه إلا أن جاء اليه ليبين له خطورة الموقف ، فكان فيما قال له «أنت مطلوب غداً فى هذه الناحية فما ترى ؟ فقال ابراهيم : الرأي اليك . قال : نخرج هذه الليلة . يقول : فأقمت معه بقية يومي فلما غشيني الليل خرجت به حتى انزلته في أداني « دست أربك » ـ دون الكث ـ ورجعت من ليلتي فقمت انتظر محمداً أن يعدو لطلبه فلم يفعلْ حتى تصرم النهار وقربت الشمس من المغيب خرجت حتى جئت ابراهيم فأقبلت به حتى وافينا المدينة مع العشاء الآخرة ونحن على حمارين فلما دخلنا المدينة وصرنا عند الجبل المقطوع لقينا أوائل خيل ابن الحصين فرمى ابراهيم بنفسه عن حماره وتباعد وجلس يبول وطوتني الخيل فلم يعرج علي منهم أحد حتى صرت إلى ابن الحصين ، فقال لي : يا أبا محمد من اين في مثل هذا الوقت ؟ فقلت : عميت عند بعض أهلي . قال : ألا أرسل معك من يؤانسك إلى بيتك ؟ قلت : لا قد قربت من أهلي . فمضى يطلب ، وتوجهت على سنن حتى انقطع آخر أصحابه ، ثم كررت راجعاً الى ابراهيم ، فالتمست حماره حتى وجدته فركب وانطلقنا حتى بتنا في أهلنا فقال ابراهيم : تعلم والله لقد بلت البارحة دماً . فارسل من ينظر فأتى الموضع فوجده كما قال .

وبعد هذه المغامرة الشاقة التي كادت أن تودي بحياته عاد الى البصرة ، ولم يعد اليها الا وهو يعلم أن المنصور قد صرف الطلب عنه منها الى جهات أخرى . فهو يرى أنه في مأمن حينما يدخلها ليضع الخطوط الرئيسية للثورة التي ينشدها . لأن الوضع يستدعيه الى ذلك .

يقول الطبري : « ولما قدم البصرة دعا الناس فأجابوه ، وكان ممن أجابه موسى بن عمر بن موسى بن عبدالله بن خازم وقد وضع يده بيد ابراهيم وذهب الى النضر بن اسحق بن خازم مختفياً به ، فلما وصلا اليه قال للنضر : هذا رسول ابراهيم ودعاه الى الخروج معه . فقال له النضر : ياهذا كيف ابايع وقد عند

جدي عبدالله بن خازم عن جده علي بن أبي طالب(ع) ، وكان عليه فيمن خالفه.
فقال له ابراهيم: دع عنك سيرة الآباء ومذاهبهم ، فانما هو الدين ، وأنا أدعوك إلى حق . قال : إني والله ما ذكرت لك ما ذكرت إلا مازحاً ، وما ذاك يمنعني من نصرة صاحبك ، ولكنني لا أرى القتال ولا أدين به ، قال : وانصرف ابراهيم وتخلف موسى فقال هذا والله ابراهيم نفسه . فقال النضر : بئس لعمرالله ما صنعت لو كنت أعلمتني لكلمته غير هذا الكلام .

ونشط ابراهيم وصحبه في أمرهم ، حتى أخذوا يوالون اتصالاتهم بزعماء البصرة ، ويراسلون القبائل الذين هم في أطرافها ، وكانوا يجتمعون في دار أبي فروة ويتداولون أمر دعوتهم، فقرروا فيما بينهم ذات يوم اظهار أمرهم بصورة علنية ، فعقدوا اجتماعاً بايعوا فيه ابراهيم ، وكان أول من بايعه عيلة بن مرة ، وعفوالله بن سفيان ، وعبدالواحد بن زياد ، وعمرو بن سلمه الهجيمي ، وعبيدالله ابن يحي بن حصين الرقاشي ، وندب هؤلاء الناس له بصورة علنية فأجاب بعدهم فتيان من العرب منهم : المغيرة بن الفزع وأمثاله من البارزين ، وطلب منه التحول عن دار أبي فروة الواقعة في منأى عن قلب المدينة إلى وسطها ليتجمع له عدد أوفر من ذلك ، فأستجاب لرغبتهم وتحول إلى دار أبي مروان مولى بني سليم وهو رجل من أهل نيسابور .

واستطاع ابراهيم بفضل يقظته أن يهيمن على سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب والي المنصور على البصرة فكسب ولاءه بصورة سرية . حتى صار يتغاضى عن نشاط أصحاب ابراهيم ، ويتظاهر لأنصار بني العباس بالسخط على ابراهيم والتحرق على مسكه ليبرر موقفه أمامهم ، وفسح المجال لابراهيم في مضاعفة الجهود . فأخذ يعقد الاجتماعات في دار مروان ثم من بعدها ينتقل إلى مقبرة بني يشكر لوضع خططه الحربية . وللاجتماع ببقية الناس الذين يأتون اليه من الأطراف واستمر في احكام مقدمات أمره بكل حزم وقوة مذللا الصعاب في حديثه مع

المترددين متربصاً الفرصة التي يأمل أن تواتيه لخوض المعركة .

- ١٠ -

أما المنصور فانه ذهب ليفرغ جميع قواه فى تحصين الكوفة حذراً من وثبتها عليه . ففرض على سكانها منع التجول وأحاطها بالحصار الشديد بحيث لا يدع أحداً يدخل ولا يخرج إلا ويسأل : من أين وإلى اين ؟ وماهي حاجته وعند من ينزل ؟ يقول مولى لمحمد بن سليمان : كان أمر ابراهيم وأنا ابن بضع عشرة سنة ، وأنا يومئذ لابي جعفر، فانزلنا الهاشمية بالكوفة ونزل هو بالرصافة(١) في ظهر الكوفة ، وكان جميع جنده الذين في عسكره نحواً من الف وخمسمائة ، وكان المسيب بن زهير على حرسه فجزأ الجند ثلاثة أجزاء خمسمائة خمسمائة ، فكان يطوف الكوفة كلها في كل ليلة ويأمر منادياً فينادي من أخذناه بعد عتمة فقد أحل بنفسه . فكان إذا أخذ رجلا بعد عتمة لفه في عباءة وحمله فبيته عنده ، فاذا أصبح سأل عنه فاذاعلم براءته اطلقه وإلا حبسه . وكذلك فرض على الأهلين لبس السواد ليتميز الداخل اليها عن المتوطن فيها .

يقول علي بن الجعد : رأيت أهل الكوفة آئذ أخذوا بلبس الثياب السود حتى البقالين وإن أحدهم ليصبغ الثوب بالانقاس(٢) ثم يلبسه ،ورغم هذا التضييق الشديد فان أنصار ابراهيم أخذوا يضاعفون من نشاطهم بكل ما أوتوا من قوة . يقول

(١) هذه هى رصافة الكوفة أحدثها أبو جعفر المنصور . ونظم فيها الحسين ابن السرى الكوفى شعراً فمن جملته :

ولقد نظرت إلى الرصافة فالثنية فالخورنق
جر البلى أذياله فيها فأدرسها وأخلق
(معجم البلدان)

(٢) الأنقاس : جمع نقس . المداد الذى يكتب به .

الطبري : وكان الفرافصة العجلي قد هم بالوثوب بالكوفة لكنه امتنع بعد ذلك ، وكان ابن ماعز يبايع لابراهيم فيها سراً . ويتحدث سلم بن فرقد حاجب سليمان ابن مجالد فيقول : كان لي بالكوفة صديق فأتاني فقال : أيا هذا اعلم ان أهل الكوفه معدون الوثوب بصاحبكم فان قدرت على أن تبوىء أهلك مكاناً غير هذا فافعل .

ولم تكن هذه الحالة خفية على أبي جعفر لكثرة مابث في الكوفة من الجواسيس فأرسل إلى رجل من الصيارفة يدعى ابن مقرن ، فقال له : ويحك قد تحرك أهل الكوفة ؟ فقال : لا والله يا أميرالمؤمنين انا عذيرك منهم . يقول الطبري : فركن إلى قوله وأضرب عنهم . وأبقى الحصار على ماهو عليه .

أما أنصار ابراهيم فانهم لما أحسوا بهذا الضيق الشديد وعرفوا من أخبار ابراهيم أنه قد عزم على الثورة فقد ترجح لديهم الالتحاق به لئلا يدركهم الفشل في الكوفة ، فتسلل اثنا عشر رجلا منهم وهم الزعماء كدفعة أولى على أن يتبعهم الآخرون . وكان المنصور قد استدعى قائداً من خراسان لتوليته مهمة الرقابة عند مفترق الطرق المؤدية إلى الشام والبصرة والحجاز ، وقد ضم اليه عدداً من الجند الأشداء وأمرهم بطاعته واللزوم لأمره ، ورابط هؤلاء على تلك الطرق ليلا ونهاراً . وبينما هم ذات يوم يقومون بالرقابة ، وإذا باولئك النفر الذين خرجوا من الكوفة لقصد ابراهيم يلتقون برجل من موالي بني أسد من أهل شراف عند وادي السباع ، فلما رآهم أقبل إلى ابن معقل - وهو ذلك القائد الخراساني - فأخبره بهم فهب لملاحقتهم وأدركهم بخفان وهى على أربعة فراسخ من القادسية ، فتناوشوا قليلا ثم استظهر عليهم ذلك القائد بمن معه من الجنود حتى قتلهم عن آخرهم واحتز رؤوسهم وأرسل بها إلى المنصور . واستمرت حالة الطوارىء معلنة والمنصور يقتل على الظن والتهمة في مدينة الكوفة . وجرى مثل هذا العمل الفظيع مع أناس ابرياء قد سلكوا الطريق لحاجتهم فعلقت بهم براثن هذا القائد الفظ فقتلهم كما

روى ذلك الطبري بسنده عن عيسى بن النظر السمان وأخيه انهما قالا : إن رجلاً يسمى غزوان وكان مولى لآل القعقاع بن ضرار اشتراه المنصور بعد ذلك فكان معه يومئذفي الكوفة فجاءه يوماً فقال: ياأمير المؤمنين هذه سفن منحدرة من الموصل وفيها مبيضة « وهذا ما يطلق على أصحاب ابراهيم » تريد ابراهيم بالبصرة . فأرسل إلى ذلك القائد بأمرهم ، ثم ضم لغزوان جنداً وسيرهم معه فالتقوا جميعاً « بباحمشا » بين بغداد والموصل فقتلهم أجمعين ، وكانوا تجاراً ، فيهم جماعة من العباد من أهل الخير وغيرهم ، وفيهم رجل يدعى أبا العرفان من آل شعيب السمان . فجعل يقول : ويلك ياغزوان الست تعرفني أنا أبو العرفان جارك ، وإنما شخصت برقيق لي فبعتهم فلم يقبل وقتلهم جميعاً وبعث برؤسهم إلى الكوفة فنصبت ما بين دار اسحق الأزرق إلى جانب دار عيسى بن موسى الى مدينة بن هبيرة .

وتواترت اخبار المنصور فى الكوفة على ابراهيم ، وكتب اليه أبو حنيفة يشير يشير عليه بقصد الكوفة ليستعين بالزيدية الذين يقطنون الكوفة لتخليصهم من المنصور ، وكان فيما قال له فى الكتاب :

إئتها سراً فان من ههنا من شيعتكم يبيتون أبا جعفر فيقتلونه ، أو يأخذونه برقبته فيأتونك به » وتسامح ابراهيم تجاه هذه الدعوة ولم يجب عليها . ولعل تسامحه ناشيء عن عدم تكامل القوى لدى أنصاره من جهة ، ومن جهة اخرى انه على موعد مع أخيه ولربما يكون ما يخشاه ان هو تسرع فجاء إلي الكوفة بقصد الحرب .

لقد كان ابراهيم يجدّ فى تهيئة الناس إلى الحرب لأن الموعد الذي بينه وبين اخيه فى رأيه بعد لم يحن فلذلك نجده بالغ الاهتمام في اكمال مهمته . غير أن الصدف الغير محمودة فاجأته بنبأ كان له وقعه على نفسه . ذلك هو نبأ ظهور محمد قبل الموعد الذي بينه وبين ابراهيم الأمر الذي ترك ابراهيم واجماً طوال يومه ذاك ، إذ انه لم يكن مسبوقاً بهذا والأسباب التي دعت أخاه إلى الظهور في

امره يراها كلها مجهولة .

يقول عفو الله بن سفيان وهو أحـد أصحاب ابراهيم : أتيت ابراهيم يوماً فوجدته مرعوباً وهو على غير حالته التي اشاهده بها كل يوم فسألته عن سر ذلك ، فقال :

« أتاني كتاب من أخي محمد يخبرني فيه أنه قد ظهر ويأمرني بالظهور ، قال : ثم وجم من ذلك ، واغتم له ، فجعلت أسهل عليه الأمر وأقول : قد اجتمع أمرك فمعك المضاء ، والطهوي ، والمغيرة ، وأنا وجماعة ، فنخرج إلى السجن في الليل فنفتحه فتصبح حين تصبح ومعك عالم من الناس فعندها طابت نفسه .

- ١١ -

يرى بعض المؤرخين أن محمـداً خرج في وقته وأن الذي تأخر هو ابراهيم بسبب ما أصابه من المرض ويرى الآخرون أن محمداً قد تعجل في خروجه ، وكان هذا من جملة أسباب فشله في ثورته إذ انه لو نهض مـع أخيه في آن واحـــد لما استطاع المنصور من التغلب عليهما مهما كانت قوته، ولـكان نصيبه الفشل . ولهذا الرأي عندي وجاهته للاسباب التالية :

١ — المضايقة الشديدة التي يعانيها من رياح ومن لف لفه من أعوان المنصور (١)

٢ — ما يبلغه عن حالة السجناء من بني الحسن في الـكوفة وما يعانونه من سوء المعاملة من قبل المنصور من حيث التعذيب والتنكيل (٢)

٣ — أخذ رياح لأخيه موسى وارساله إلى أبي جعفر في العراق (٣)

---

(١) الـكامل لابن الأثير ج ٥ ص ٢٤٤

(٢) الطبري مج ٦ ص ١٧٧ والمقاتل ص ٢٦٠ ط مصر .

(٣) المقاتل ٢٦٠ نفس الطبعة والطبري ج ٢ ص ١٨٩ .

٤ — الحاح أصحابه عليه بالخروج إلحاحاً متزايداً ، ومقابلتهم له باللهجة القاسية يستحثونه على القيام بالثورة ، وقد كان هذا في رأيي هو السبب الأوحد الذي أثر في محمد للظهور بأمره (١)

يقول الطبري : « إن عبيدالله بن عمر ، وابن ذؤيب ، وعبدالحميد بن جعفر دخلوا على محمد بن عبدالله قبل خروجه ، فقالوا له : ما تنتظر بالخروج ؟ والله ما تجد هذه الأمة أحداً أسأم منك عليها . ما يمنعك أن تخرج ولو وحدك ، وقد كان لحديث هؤلاء مع محمد أعظم الأثر في التعجل بالخروج قبل الموعد الذي بينه وبين ابراهيم استجابة لرغبة أصحابه ، ولم تكن هذه الرغبة من عنديتهم بل إنما هي ناشئة من عدم تحملهم لأمثال تلك التحديات والمضايقات التي يعانونها من رياح وأذنابه . الأمر الذي دعاهم بأن يصمموا على خوض المعركة من يومهم ذاك فلم يكن من محمد هو الآخر إلا التصميم على ذلك .

واستشم رياح خبر ما عزم عليه محمد فرأى أن يقابلهم بالقوة . يقول عيسى ابن علي بن عمر بن علي : بعث الينا رياح فأتيته أنا وجعفر بن محمد الصادق (ع) والحسين بن علي بن الحسين ، فانا لعنده في دار مروان إذ سمعنا التكبير قد حال دون كل شيء ، وظنناه أنه من عند الحرس وظن الحرس أنه من الدار فوثب ابن مسلم بن عقبة وكان مع رياح فاتكأ على سيفه وقال : أطعني في هؤلاء فأضرب أعناقهم . فقال علي بن عمر فكدنا والله تلك الليلة أن نطيح حتى قام الحسين بن علي فقال : والله ما ذلك لك ، إنا لعلى السمع والطاعة . وقام رياح ومحمد بن عبدالعزيز فدخلا في دار يزيد ، واختفيا فيها ، وقمنا فخرجنا من دار عبدالعزيز بن مروان .

ويقول متحدث آخر : والله إنا لعلى ذلك إذ طلع فارسان من قبل الزوراء

---

(١) المسعودى التنبيه والاشراف ص ٢٤٠ .

يركضان حتى وقفا بين دار عبدالله بن مطيع، ورحبة القضاء في موضع السقاية فقلنا : الأمر والله جد، ثم سمعنا صوتاً طويلا فأقبل محمد بن عبدالله من الدار وهو على حمار ومعه مائتان وخمسون راجلا حتى إذا شرع على بني سلمة وبطحان قال: اسلكوا بني سلمة تسلموا إن شاء الله ، قال : فسمعنا تكبيرة ثم علا الصوت فأقبل حتى إذا خرج من زقاق ابن حضير استبطأ ، حتى جاء على التمارين ، ودخل من أصحاب الأقفاص فأتى السجن، وهو يومئذ في دار ابن هشام ، فدقه وأخرج من كان فيه وكان جلهم من أعوانه ، ثم أتى الرحبة حتى جاء إلى بيت عاتكة فجلس على بابها ، وتناوش الناس فقتل رجل سندي وكان الذي قتله رجل من أصحاب محمد .

أما رياح فانه لما أحس بخطورة موقفه ذهب فتعلق بمشربة في دار مروان وامر بالدربة فهدمت، فصعدوا اليه وانزلوه ، وحبسوه وحبسوا معه أخاه العباس بن عثمان ، وابن مسلم بن عقبة في دار مروان ، ولما وقعت عين محمد على رياح ، وقـد أتي به اليه صاح : ويلك ابن أخي موسى ؟ وكان قد أرسله إلى أبي جعفر - فقال رياح : لا سبيل اليه والله لقد حدرته إلى العراق . قال محمـد : فأرسل في أثره فرده ؟ قال : قد عهدت إلى الجند الذين معه إن رأوا أحداً مقبلا من المدينة أن يقتلوه فالتفت محمد لأصحابه وقال: من لي بموسى؟ فقال ابن حضير أنا لك به ؟ قال : فانظر رجالا فذهب فانتخب رجالا ثم أقبل قال موسى : فوالله ماراعنا إلا وهو بين أيدينا كأنما اقبل من العراق فلما نظر الجند قالوا ارسل أمير المؤمنين ؟ فلما خالطونا شهروا السلاح فأخذني القائد وأصحابه واناخ بي واطلقني من وثاقي وشخص بي حتى اقدمني على محمد .

ولما استولى محمد على المدينة اتته بقية الأقطار طائعة مثل اليمن ومكة (١) وما

---

(١) مروج الذهب : ٣ ص ٣٠٩ ط الثانية . والدولة العباسية للخضرى ص ٦٢ ط الثامنة ومختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى للسيدامير علي ص ١٨٩ . والفخرى ص ١٤٣ . وابن الأثير فى الكامل ج ٥ ص ٢٠١ .

والاهما واخذت الناس تترى عليه معربة له عن الطاعة والامتثال للأمر فلما تجمعت الجموع عنده في المسجد قام فيهم خطيباً فقال :

« اما بعد ايها الناس فانه كان من امرهذا الطاغية عدو الله ابي جعفر مالم يخف عليكم ، من بنائه القبة الخضراء التي بناها معانداً لله في ملكه تصغيراً للكعبة الحرام ، وإنما أُخذ فرعون حين قال : انا ربكم الأعلى . وإن احق الناس بالقيام بهذا الدين ابناء المهاجرين والأنصار المواسين ، اللهم انهم قد احلوا حرامك وحرموا حلالك ، فأمنوا من اخفت ، واخافوا من امنت . اللهم فاحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم احداً .

ايها الناس إني والله ماخرجت من بين أظهركم وأنتم عندي أهل قوة ولاشدة ولكني اخذتكم لنفسي والله ما جئت هذه وفي الأرض مصر يعبدالله فيه الا وقد أخذت لي فيه البيعة » (١)

ونستنتج من بيان محمد في خطبته هذه سبباً اخر كانت له علاقته في فشل محمد في ثورته ذاك هوماكان يعتقده من استجابة الناس له حينما تسمع بخروجه في كل قطر من الأقطار . وليس ذلك الا لانخداعه بذلك السيل من الرسائل التي كان المنصور يزورها على السن قواده وبعض الزعماء بالنصرة له والوثوب على أبي جعفر متى ما عرفوا منه أنه قد خرج . وإن المنصور كان يطمع بهذا من محمد ليستطيع من القضاء عليه .

ولعل هذا ناتج من اعتداد محمد بشخصيته ، وقد أبانه في خطابه الذي أذاعه على الجماهير الثائرة معه :

« أيها الناس ، ما يسرني أن الأمة اجتمعت إلي كما اجتمعت هذه الحلقة في يدي - يعني سوطه - وإني سألت عن باب حلال أو حرام لا يكون عندي مخرج منه »

---

(١) الطبري ج ٦ ص ١٨٨ ط دار الاستقامة .

ولما استولى على تلك الأقطار أرسل ولاته اليها فكان من جملتهم محمد بن الحسن ابن معاوية من أحفاد جعفر بن أبي طالب استعمله على مكة ، والقاسم بن اسحق على اليمن ، واستعمل موسى بن عبدالله على الشام .

فأما محمد بن الحسن فانه قد سار إلى مكة فخرج اليه السري بن عبدالله عامل المنصور عليها فلقيه ببطن (اذاخر) فهزمه ، ودخل محمد مكة وأقام بها يسيراً فأتاه كتاب محمد بن عبدالله يأمره بالمسير اليه فيمن معه ويخبره بمسير عيسى بن موسى اليه ليحاربه فسار اليه من مكة هو والقاسم فبلغه بنواحي قديد قتل محمد فهرب هو وأصحابه وتفرقوا فلحق محمد بأبراهيم فأقام عنده حتى قتل ابراهيم فقتل معه .

* * *

- ١٢ -

موسى عبدالله (*)

ثالث أولاد هند بنت أبي عبيدة ، وقد حملت به بعد ستين سنة وهذه هي علامة الامرأة القرشية إذ أن العلماء يقولون : لا تحمل امرأة بعد ستين سنة إلا من قريش ولا بعد خمسين إلا عربية .

وطبعي أن وليداً يأتي بعدهذه السن ماذا تكون مكانته عند أهل بيته ؟ فلا بد من أن ينال منهم الرعاية التامة في التربية لمزيد عاطفتهم حياله ، ولقد كانت أمه ترقصه وتقول :

إنك ان تكون جوناً أنزعا   أجدر أن تضرهم وتنفعا

(*) تاريخ بغداد للخطيب ج ١٣ ص ٢٥ وما بعدها ، ورجال المامقاني ج ٣ ص ٢٥٧ وتاريخ الطبرى ج ٦ ص ١٨٩ نفس الطبعة ، الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ٢٠١ المقاتل ص ٣٩٠ ط مصر ، زهر الآداب ج ١ ص ١٢٩ ، وراجع ص ٩٢ و ١١١ من هذا الكتاب .

وتسلك العيش طريقاً مهيعا ـ فرداً من الأصحاب أو مشيعا

ربي تربية فاضلة حتى عد من أصحاب الامام الصادق عليه السلام . روى عن أبيه شيئاً يسيراً ، وحدث عنه عبدالعزيز بن محمد الدراوردي وغيره .

زوجته هي ام سلمة بنت محمد بن طلحة بن عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر يعرف بالجون لشدة سمرته ؛ ويكنى بأبي الحسن ، وكذلك بأبي الأشراف لأن أشراف مكة ينتمون اليه ومنهم الاسرة المالكة للعراق وكذلك الاسرة المالكة للأردن هؤلاء من سلالة الأشراف أو الشرفاء ، وهم من سلالة موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط «ع» .

ولقد مر عليك ما لاقاه موسى من أبي جعفر المنصور من الضرب المبرح والتعذيب الشديد في سبيل أخويه في ص ١١١ من هذا الكتاب ، وما كان عليه موسى من الجلد والثبات ، وكيف انتهى أمر رياح معه حتى كان من أمر محمد ما كان وأرجع اليه فعينه عاملا من قبله على الشام . وقد « تجهمه أهل الشام واستقبلوه استقبالا رديا وكان أثر الرعب والوجوم باديا على القوم منذ زوال الدولة الأموية واستئصال أمرائها وابادتهم . تدلنا على ذلك رسالته التي بعث بها إلى أخيه من دمشق وقد جاء فيها : اخبرك أنى لقيت الشام وأهله فكان أحسنهم قولا الذي قال : والله لقد ملنا البلاء وضعفنا حتى ماله فينا لهذا الأمر موضع ولا لنا به حاجة ، ومنهم طائفة تحلف لئن أصبحنا من ليلتنا وأمسينا من غد ليرفعن أمرنا ، فكتبت اليك وقد غيبت وجهي وخفيت على نفسي »(١) وقد ترك موسى الشام بعد رسالته هذه إلى المدينة وقيل إلى البصرة ـ وهو الأصح كما يقول العلامة الشبيبي ـ والمرجح انه ترك الشام بعد أن حوصر أخوه في المدينة وذهب رأساً إلى البصرة ملتجئاً إلى قريبه محمد بن سليمان العباسي في البصرة ولكن هذا وبخه توبيخاً شديداً وجبهه بكلمات نابية تدل على اضطراب ورعب من المنصور ، وقد أشار المؤرخون الى

(١) مؤرخ العراق ابن الفوطي ص ١٠٨ .

مصير موسى بعد وصوله الى العراق وسجنه في ايام المنصور والافراج عنه في عصر ابنه المهدي وذكروا انه عاش إلى ايام هرون » يقول يحي بن معين : دخلت على موسى ههنا ببغـداد ـ وتشفع اليه رجال فقال : قد منعت من الحديث ، ولولا ذلك لحدثتك ، فلم نسمع منه شيئاً . وله من الشعر الشيء الكثير فمن جملة شعره قوله :

لئن طال ليلي بالعراق لقد مضت	علي ليـال بالنظـيم قصـار
إذا الحي متداهم معدّة فاللوى	فشعر منهم مـــنزل فقراقر
ولولا أديم البئر بئر سويقـة	قطـين بها والحاضر المتجاور

توفى أيام الرشيد وقد أعقب كثيراً من الولد .

- ١٣ -

لقد كاد أبو جعفر أن يستطير جزعاً حينما وافاه خبر خروج محمد واستيلائه على تلك الأقطار بتلك السرعة ، وقد كان يومئذ يشرف على بناء مدينة بغـداد فترك العمل وسار إلى الكوفة ليرعى أحوالها بنفسه ولم يكن هـذا هو رأيه الخاص بل إنما كان لغيره وذلك حينما بلغه الخبر استدعى رجالا عرفوا ببعد النظر والحنكة فاستشارهم ، وكان من جملتهم أبو مسلم العقيلي وهو من ذوي الرأي والتجربـــة فقال له المنصور : « أشرعلي في خارج خرج علي ؟ قال : صف لي الرجل . قال : رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله (ص) ذا علم وزهد وورع . قال : فمن يتبعه ؟ قال : ولد علي وجعفر وعقيل ، وولد عمر بن الخطاب ، وولد الزبير ، وسائر قريش وأولاد الأنصار . قال له : صف لي البلد الذي قام به . قال : بلد ليس به زرع ولا ضرع ، ولا تجارة واسعة ، ففكر ساعة ثم قال : اشحن يا أمير المؤمنين البصرة بالرجال ، فقال المنصور في نفسه : قد خَرِف الرجل أسأله عن خارج خرج بالمدينة ويقول لي اشحن البصرة بالرجال ، فقال له : انصرف ياشيخ ، ثم لم يكن إلا قليل

حتى ورد الخبر أن ابراهيم قد ظهر بالبصرة ، فقال المنصور : علي بالعقيلي ، فلما دخل عليه أدناه ثم قال له : إن كنت قد شاورتك في خارج خرج بالمدينة فأشرت علي أن أشحن البصرة بالرجال ، أو كان عندك من البصرة علم ؟ قال : لا ولكن ذكرت خروج رجل إذا خرج مثله لم يتخلف عنه أحد ، ثم ذكرت لي البلد الذي هو فيه فاذا هو ضيق لا يحتمل الجيوش ، فقلت إنه رجل سيطلب غير موضعه ، ففكرت في مصر فوجدتها مضبوطة ، والشام والكوفة كذلك ، وفكرت في البصرة فخفت عليها منه ، فأشرت بشحنها ، فقال له المنصور أحسنت وقد خرج بها أخوه ، فما الرأي في صاحب المدينة ؟ قال : ترميه بمثله ، إذا قال : أنا ابن رسول الله قال هذا : أنا ابن عم رسول الله ، فقال أبو جعفر لعيسى بن موسى إما أن تخرج اليه وأقيم أنا أمدك بالجيوش ، وأما أن تكفيني ما أخلف ورائي وأخرج انا اليه ، فقال عيسى : بل أقيك بنفسي ياأميرالمؤمنين وأكون الذي يخرج اليه فاخرجه » (١)

نعم كان محمد موفقاً فى اتخاذه البصرة مركزاً ثانياً للدعوة ، إذ أنها قريبة من مهد الدولة العباسية ، كما انها بعيدة نسبياً عما تحوم حوله شبهة التشيع من أمثال الكوفة وغيرها . وإن مانسبه الشيخ محمد الخضري بك المصري فى كتابه « الدولة العباسية من الخطأ لمحمد باتخاذه المدينة مركزاً حربياً ، فهو وهم ومما يظهر أن قصة ابراهيم لم تكن فى نظره جزءاً لا يتجزأ من قصة محمد. فمحمد حينما يظهر بالمدينة معناه أن ابراهيم قد ظهر بالبصرة ، فلا بد وان ينشغل المنصور باحدهما فيتفرغ الآخر لاحتلال المراكز الهامة ، وهو في طريقه إلى الاندماج بأخيه ليطبقا بمن معهما جميعاً على خصمهما . كانت هذه هي الفكرة التى من أجلها افترق كل منهما عن الآخر ولقد أدرك ـ هذا ـ العقيلي في تحذيره لأبي جعفر كما تقدم .

وبذل أبو جعفر محاولة أخرى فى سبيل أخذ رأي رجل قد عرك الحياة

(١) نقل هذا المسعودى فى مروج الذهب مج ٣ ص ٣٠٩ ط دار السعادة .

الحربية واختبرها وهو عبدالله بن علي عم المنصور ، وقد كان سجيناً عنده فالتفت إلى جماعة من أصحابه وقال لهم : « إن هذا الأحمق - يعني عبدالله بن علي - لا يزال يطلع له الرأي الجيد في الحرب فادخلوا عليه فشاوروه ولا تعلموه أنى أمرتكم فدخلوا عليه ، فلما رآهم قال: لأمر ما جئتم ماجاء بكم جميعاً وقد هجرتموني منذدهر ؟ قالوا : استأذنا أمير المؤمنين فأذن لنا . قال : ليس هذا بشيء ، فما الخبر ؟ قالوا : خرج محمد بن عبدالله . قال : إن المحبوس لمحبوس الرأي ، فقولوا له : يخرجني حتى يخرج رأيي . فأقبلوا إلى أبي جعفر فأعلموه ، فقال : لو طرق محمد علي الباب ما أخرجته ، وأنا خير له منه ، وهو ملك أهل بيته .

فقال عبدالله : إن البخل قد قتل ابن سلامة (١) فمروه فليخرج الأموال وليعط الأجناد ، فان غلب فما اوشك ما يعود اليه ماله ، وإن غُلب لم يقدم صاحبه على درهم ، وان يعجل الساعة حتى يأتي الكوفة فيجثم على أكبادهم ، فانهم شيعة أهل البيت ، ثم يحفظها بالمسالح فمن خرج منها إلى وجه من الوجوه أو أتاها من وجه من الوجوه ضرب عنقه ، فليبعث إلى مسلم بن قتيبة فينحدر عليه - وكان بالري وليكتب إلى أهل الشام ، فليأمرهم فليحملوا اليه أهل البأس والنجدة مايحمله البريد فليحسن جوائزهم ويوجههم مع مسلم بن قتيبة ففعل (٢)

* * *

- ١٤ -

ولدهاء المنصور وحنكته فانه رأى أن يبدأ خصمه بالمراسلة التي يعرض فيها عليه الأمان في الظاهر لعلمه أن خصمه لا يلين له فيخرجه أمام السذج بمظهر المروق

---

(١) هي أم ولد بربرية ، وهي أم المنصور كما في المحبر ص ٣٤ وغيره .

(٢) تاريخ الاسلام ج ٧ ص ٩٥ ، والمقاتل ص ٢٦٦ ط مصر ، والطبري ج ٦ ص ١٩٤ ، وابن الأثير ج ٥ ص ١٩٨ .

والعصيان ليتذرع بذلك في مشروعية حربه له بصورة واضحة فكان فيما كتب اليه أولا :

« بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله عبدالله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبدالله، أما بعد : فـ « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف . أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم » (١) ولك علي عهدالله وميثاقه وذمته وذمة رسول الله (ص) إن تبت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك وأهل بيتك على دمائكم وأموالكم وأسوغك ما أصبت من دم أو مال وأن أعطيك الف الف درهم وما سألت من الحوائج . وانزلك من البلاد حيث شئت . وأن اطلق من في حبسي من أهل بيتك وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك واتبعك أو دخل معك في شيء من أمرك . ثم لا أتبع أحداً منكم بمكروه . فان شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلي من يأخذ لك الميثاق والعهد والأمان ما أحببت والسلام » (٢)

فلما وصلت هذه الرسالة إلى محمد ذي النفس الزكية أجابه بهذه الرسالة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله المهدي محمد بن عبدالله أمير المؤمنين إلى عبدالله بن محمد .

أما بعد : « طسم تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة

---

(١) سورة المائدة : ٣٣ و ٣٤

(٢) تاريخ الطبرى ج ٦ ص ١٩٥ ط دار الاستقامة ، وابن الأثير ج ٥ ص ١٩٩ ، وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٣١ ، والكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٩٣ ، والعقد الفريد ج ٣ ص ٣٧

منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » (١) وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي أعطيتني . وقد تعلم أن الحق حقنا وأنكم إنما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا وحظيتم بفضلنا وأن أبانا علياً عليه السلام كان الوصي والامام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ ثم قدعلمت انه لم يطلب هذا أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا . لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء . . . وليس يمت أحد من بني هاشم بمثل الذي نمت به من القرابة والسابقة والفضل . وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة بنت عمرو (٢) في الجاهلية وبنو بنته فاطمة (ع) في الاسلام دونكم .

إن الله اختارنا واختار لنا . فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وآله . ومن السلف أولهم اسلاماً علي . ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة . أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة . ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة . ومن المولودين في الاسلام : حسن وحسين «ع» سيداشباب أهل الجنة . وان هاشماً ولد علياً مرتين . وان عبدالمطلب ولد حسناً مرتين . وان رسول الله صلى الله عليه وآله ولدني مرتين من قبل حسن وحسين «ع» . واني أوسط بني هاشم نسباً وخيرهم اماً وأباً لم تعرق في العجم . ولم تنازع في أمهات الأولاد . . فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات حتى اختار لي في النار فولدني ارفع الناس درجة في الجنة وأهون أهل النار عذاباً ، فأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار وابن خير اهل الجنة وابن خير اهل النار ولك عهد الله إن دخلت في بيعتي ان اؤمنك على نفسك

---

(١) سورة القصص : ٢٨

(٢) هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم وهي أم أبي طالب وأم عبدالله والد رسول الله (ص) راجع شرح النهج ج ١ ص ٩

وولدك وكل ما اصبته إلا حداً من حدود الله او حقاً لمسلم أو معاهـد فقد علمت ما يلزمك فى ذلك فأنا اوفى بالعهد منك واحرى لقبول الأمان . فأما امانك الذي عرضت علي فأي الأمانات هو ؟ أأمان ابن هبيرة ؟ ام امان عمك عبدالله بن علي؟ ام امان ابى مسلم ؟ والسلام »

فلما وردت هذه الرسالة على ابي جعفر قال ابو ايوب المورياني : دعني اجبه فقال له : ياسليمان ليس ذلك اليك . إذ نحن تقارعنا عن الاحساب فدعني وإياها(١) فأجابه بما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله عبدالله اميرالمؤمنين إلى محمد بن عبدالله اما بعد : فقد اتاني كتابك . وبلغني كلامك . فاذا جل فخرك بقرابة النساء . لتضل به الجفاة والغوغاء . ولم يجعل الله النساء كالعمومة(٢) والآباء . ولا كالعصبة والأولياء . لأن الله جعل العم اباً وبدأ به في كتابه على الوالد الأدنى فقال جل ثناؤه عن نبيه يوسف عليه السلام : « واتبعت ملة آبائي إبراهيم واسحاق ويعقوب » (٣) ولقد علمت ان الله تبارك وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وآله وعمومته اربعة فأنزل الله عز وجل « وانذر عشيرتك الأقربين » فأنذرهم ودعاهم فأجاب اثنان احدهما ابي وكفر اثنان احدهما أبوك (٤) فقطع الله ولايتها منه ،

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشياري ص ١١٥

(٢) كأن المنصور فى هـذه العبارة يتجاهل قرابة الحسن بن رسول الله(ص) من حيث الآباء وكأن أبا طالب لم يكن جد الحسن وهو أخو العباس جد المنصور .

(٣) لا تنهض الآية دليلا لأبى جعفر ، فان المذكورين فيها ليسوا باعمام ليوسف ، بل يعقوب أبوه ، واسحق جـده وابراهيم أبو جـده . على أن البدء فيها بابراهيم لغرض . فهو أبو الملة وأبناؤه تبع له فيها .

(٤) يشير إلى ابى طالب . ولو أنا سألنا المنصور عن أبيه حينما نزلت هذه الآية « وانذر عشيرتك الأقربين » ماكان موقفه حيال ذلك العرض الذى تقـدم به ابن أخيهم؟ أكان مثل موقف أبى طالب الذى تحمل فى سبيل الذود عن ابن أخيه —

ولم يجعل بينه وبينها إلا ولا ذمة ولا ميراثاً .

فأما ما ذكرت من النساء وقراباتهن ، فلو اعطين على قرب الأنساب وحق

ـــ منذ ذلك الوقت ما تحمل من اخوته . ولندع هذا ونأتى إلى غيره وهو ما يقول المنصور فى شهادة جده العباس بن عبدالمطلب فى ايمان أبى طالب ؟ ايسوغ له ردها أم أنه يثبتها ؟ . يقول العباس بن عبدالمطلب : ان أبا طالب مامات حتى قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله وقد روى هذا باسانيد كثيرة ومعتبرة عن العباس وابى بكر انهما قالا : مامات ابو طالب حتى قال لا إله إلا الله محمد رسول الله نص على هذا كل من ابن هشام فى السيرة ج ٢ ص ٢٧ ودلائل النبوة . وتاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ١٢٣ . والمواهب اللدنية ج ١ ص ٢٧١ وأسنى المطالب ص ٢٠ . والاصابة ج ٤ ص ١١٦ . ولعل ما فى استنهاضه لأخيه حمزة بن عبدالمطلب خير دليل على ايمانه بدين ابن أخيه فاسمعه يقول :

فصبراً أبا يعلى على دين أحمد ... وكن مظهراً للدين وفقت صابرا

وحط من أتى بالحق من عند ربه ... بصدق وعزم لاتكن حمز كافرا

فقد سرنى إذ قلت أنك مؤمن ... فكن لرسول الله فى الله ناصرا

وبادر قريشاً بالذى قد أتيته ... جهاراً وقل : ماكان أحمد ساحر

وقد روى هذه الأبيات كل من ابن حجر فى الاصابة ج ٤ ص ١١٦ . وأسد الغابة ج ١ ص ٢٨٧ والسيرة الحلبية ج ١ ص ٢٨٦ وشرح النهج لابن أبى الحديد ج ٣ ص ٣١٥ .

ويقول البرزنجي : تواترت الأخبار أن أبا طالب كان يحب النبى صلى الله عليه وآله ويحوطه وينصره ويعينه على دينه ويصدقه فيما يقول ويأمر أولاده كجعفر وعلي باتباعه . ويقول فى ص ١٠ وهذه الأخبار كلها صريحه فى أن قلبه طافح بالايمان بالنبى .

ويقول ابن الأثير فى جامع الأصول : وما أسلم من أعمام النبى (ص) غير حمزة والعباس وابى طالب، وهل يا ترى يستبين الكفر والايمان بطريق غير اللسان وهذا ابو طالب قد دوى صوته فى الآفاق بما كان يقوله نظما ونثراً يعرب به عن ايمانه الشديد بدعوة ابن أخيه فمن ذلك قوله المشهور :

والله لن يصلوا اليك بجمعهم ... حتى اوسد فى التراب دفينا ـــ

الأحساب لكان الخير كله لآمنة بنت وهب ، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه .

وأما ما ذكرت من فاطمة (١) أم أبي طالب وولادتها ، فان الله لم يرزق

ـ فاصدع بأمرك ماعليك غضاضة وابشر بذاك وقر فيه عيونا

ودعوتنى وعلمت انك ناصحى ولقد دعوت وكنت ثم امينا

ولقد علمت بأن دين محمد من خير اديان البرية دينا

رواها الثعلبي فى تفسيره وقال : قد اتفق على صحة نقل هذه الأبيات عن أبي طالب مقاتل وعبدالله بن عباس ـ جد المنصور ـ والقسم بن محضرة . وعطاء بن دينار ! راجع خزانة الأدب ج ١ ص ٢٦١ . وتاريخ أبى الفداء ج ١ ص ١٢٠ ، وفتح البارى ج ٧ ص ١٥٣ و ١٥٥ ، وبلوغ الأرب ج ١ ص ٣٢٥ والسيرة الحلبية ج ١ ص ٣٠٥ ، والمواهب اللدنية ج ١ ص ٦١ . والاصابة ج ٤ ص ١١٦ . واسنى المطالب ٦ ص وقد علق على البيت الأخير منها بقوله : إنه من كلام أبى طالب المعروف .

وهاك نموذجاً آخر من نظمه وهو يهيب باسرته بأن تأخذ بعضد ابن أخيه النبي حيث يقول :

ألا أبلغا عنى على ذات بينها لوياً وخصا من لوى بنى كعب

ألم تعلموا انا وجدنا محمداً رسولا كموسى خط فى أول الكتب

وان عليه فى العباد محبة ولا حيف فيمن خصه الله بالحب

ذكر هذا فى روض الأنف ج ١ ص ٢٢٠ . تاريخ ابن كثير ج ٣ ص ٨٧ طلبة الطالب ص ١٠ . شرح ابن أبى الحديد ج ٣ ص ٣١٣ . بلوغ الأرب ج ١ ص ٣٢٥ .

(١) هى فاطمة بنت عمر ـ أم عبدالله أبو رسول الله (ص) وأبو طالب والزبير وعبدالكعبة . وعاتكة وبرة وأميمة ـ ولد عبد المطلب . ولقد مات كل من عبدالله والزبير وعبدالكعبة قبل الاسلام . ولو انهم كانوا أحياء لما آثروا على دين محمد

أحداً من ولدها الاسلام لا بنتاً ولا ولدا ، ولو أن أحـداً رزق الأسلام بالقرابة رزقه عبدالله أولاهم بكل خير فى الدنيا والآخرة ، ولـكن الأمر لله يختار من يشاء ، قال الله عز وجل : « إنك لا تهدي من أحببت ولـكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين »

وأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد (١) أم علي بن أبى طالب ، وفاطمة أم الحسن وأن هاشماً ولد علياً مرتين، وأن عبدالمطلب ولدالحسن مرتين، وأن النبي صلى الله عليه وآله ولدك مرتين ، فخيرالأولين والآخرين محمد رسول الله (ص) لم يلده هاشم إلا مرة واحدة ولم يلده عبدالمطلب إلا مرة واحد .

وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسباً اماً واباً . وانه لم تلدك العجم . ولم تعرق فيك امهات الأولاد ، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طراً ، فانظر ويحك اين انت من الله غداً ؟ فانك قدتعديت طورك وفخرت على من هو خير منك نفساً واباً واولا وآخراً فخرت على ابراهيم (٢) ابن رسول الله (ص) وعلى والد ولده ، وما

-- (ص) شيئاً . ولتسابقوا اليه لما عرف عنهم من التمسك باهداب الحنفية دين ابراهيم وقد نال الزبير شرف السبق إلى عقد حلف الفضول الذى أقر به حقوق الضعفاء وانتصر فيه للبائسين المنقطعين من الظلمة والمستبدين وقد أكد لنا رجال الأثر أن النبي لما درس مطاوى هذا الحلف أقره وترحم على عمه الزبير .

(١) يجدر بالقارىء الكريم أن يرجع إلى الرسالة التى أرسلها محمد ليرى هل ورد فيها أسم لفاطمة ، ليتضح له السر من وراء هـذا التحامل الذى يؤكد لنـا ما نشك فيه من عدم صحة نسبة هذه الرسالة إلى أبى جعفر المنصور كما سنعرض وجهة نظرنا فى الشك فيها وذلك بعد أن ننتهى حسابنا مع الرسالة نفسها .

(٢) لم يكن فى رسالة محمد شيء من هذا الذى يؤاخذ عليه سوى ما يظهر به على المنصور من تذكيره بما له من صلة القربى برسول الله (ص) وماله من شرف النسب والنسبة من جهة الأبوة والأمومة الأمر الذى أقام صاحب الرسالة وأقعده وأثار ثائرته فانبرى يكيل له تلك الاتهامات التى لا يقصد منها إلا التوهين فى أعين--

خيار بني ابيك خاصة واهل الفضل منهم إلا بنو امهات اولاد ، وما ولد فيكم بعـــد وفاة رسول الله (ص) افضل من علي بن الحسين «ع» وهو لأم ولد ، وهو خـــير من جدك حسن بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن علي ، وجدته ام ولد ، وهو خير من ابيك ، ولا مثل ابنه جعفر وجدته أم ولد وهو خير منك.

واما قولك : إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وآله ، فان الله عزوجل قد ابى ذلك . فقال : « ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (١) ولكنكم بنو بنته ، وإنها لقرابة قريبة غير انها امرأة لا تحوز الميراث(٢) ولا ترث الولاية (٣) ولا تجوز لها الامامة فكيف تورث الامامة من

ـ السذج من الناس. وإنك لو رجعت إلى رسالة محمد لعرفت كيف يتعالى بشرف الافتخار برسول الله وذلك بقوله : « وانا بنو أم رسول (ص) فاطمة بنت عمر فى الجاهلية وبنو بنته فى الاسلام دونكم » فتفكر فى قوله : « دونكم لمن يعود هذا الخطاب ؟ ثم عد إلى الرسالة نفسها واقرأ قوله : « إن الله اختارنا واختار لنا فوالدنا من النبيين محمد (ص) ومن السلف أولهم اسلاماً » . فأين هذا عما زعمه صاحب الرسالة بقوله « نخرت على ابراهيم بن رسول الله وعلى والد ولده » لك الحكم ياقارئى فى شأن هذه الرسالة لتعرف الأيدى العابثة إلى أى مدى توصلت .

(١) الاستدلال بهذه الآية يكاد يكون مثيلا للاستدلال بالآية الأولى الواردة فى صدر الرسالة . ومن المؤسف أن يكون المنصور لهذه الدرجة من حيث الجهل بمحاسن الاستدلال . فالآية تقوم دليلا عليه لخصمه . لحصر أبوة رسول الله (ص) فى ولد فاطمة كما هو الثابت عند أهل التفسير وقد سمع منه صلى الله عليه وآله يقول : « إن كل بنى بنت ينتسبون إلى أبيهم إلا أولاد فاطمة فانهم أنا أبوهم » يراجع فى شأن هذه الآية تفسير سورة الأحزاب فى كتب التفاسير أو الفتاوى الحامدية .

(٢و٣) أما قوله : انها امرأة ولا تحوز الميراث فان فاطمة لم تطالب بالميراث كله بل طالبت بحقها من ميراث أبيها عملا بقوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين» وقوله تعالى فى آية آخرى «للرجال نصيب مما ترك الوالدان ـ

قبلها ؟ ولقد ظلمها أبوك من كل وجه ، فأخرجها تخاصم (١) ومرضها سراً ودفنها ليلا (٢) فأبى الناس إلا تقديم الشيخين وتفضيلهما (٣) ولقد جاءت السنة التي لا

ـــوالأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً » فلماذا تمنع عن ذلك مع وجود النص على حقها ؟ ألم يكن منعها تحدياً للكتاب والسنة .

اما الولايـــة فان فاطمة لم تطالب بها لنفسها ولم يحدثنا التاريخ عن ذلك وهى أجل من أن يوجه لها مثل هذا ، كما أن الذى طالب بالامامة لم يطالب بها من جهتها بل إنما طالب بها من طرقها المشروعة حسب القواعد الدينية . ذلك هو علي ابن أبى طالب (ع) الذى كانت له البيعة فى أعناق المسلمين عامة فى حياة رسول الله (ص) فهو إنما يطالب بتلك البيعة التى لم تأت عن طريق المحاباة بل إنما جاءته نتيجة لتعدد جهات الفضيلة فيه وكفاياته التى لا يساويه فيها أحد كما اعترف بذلك الصحابة الأخيار الذين لم تدنس ضمائرهم الاطماع ولم تغير نفسياتهم المغريات . نعم كانت المطالبة من هذه الطريق لا من طريق فاطمة . وفاطمة انما طالبت بارثها من أبيها لاغير .

(١) إن علياً لم يسلك هذا الطريق الا وهو يعلم صلاحيته مضافاً إلى ذلك أن فاطمة هى التى طلبت منه ذلك . باعتباره اقرب الطرق لتفهيم الناس على ما صمم عليه الخليفة أبو بكر (رض) ولايجاد جبهة معارضة لاسترداد حقها من الميراث الذى ذهب ضحية حديث ارتجل فى وقته . كان هذا هو الدافع لعلي وفاطمة بأن يقوما بمثل هذا الأسلوب الايجابى .

(٢) اما تمريضه لها فلم يكن سراً كما يدعيه صاحب الرسالة . بل ان خبر مرضها قد شاع فى عامة ارجاء المدينة وكان هو (ع) يتولى تمريضها بنفسه لأنه اولى من غيره بها أما دفنه لها ليلا فقد كان بوصية منها حذراً من حضور بعض العناصر التى لا ترغب فاطمة (ع) بأن تشاهدها وهى صحيحة فودت ذلك أيضاً وهى ميتة فأوصت علياً بذلك

(٣) اما تفضيل الشيخين على علي «ع» فمجرد دعوى تحتاج الى بينة لأن ملابسات ذلك العصر تفرض رد هذه الدعوة وتفهمنا بأن هذا الاختيار لم يكن من ـــ

أختلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يرثون .

وأما قولك : إن الله اختار لك في الكفر ، فجعل أباك أهون أهل النار عذاباً فليس في الشر خيار، ولا من عذاب هين ، ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخر بالنار ، وسترد فتعلم ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

وأما مافخرت من علي وسابقته ، فقد حضرت رسول الله صلى الله عليه وآله الوفاة ، فأمر غيره بالصلاة (١) ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه (٢) ثم

--- عندية أحد من الناس بل إنما كان على سبيل الجبر لا الاختيار . وإنا إذا رجعنا إلى مضان البحث عن حالة الظرف الذي توفى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله لوجدناها حالة راهنة فمن ذلك موقف عمـــر (رض) بالنسبة إلى من يقول بموت النبي (ص) وهاك بعض بياناته : « لا أسمع رجلا يقول : مات رسول الله إلا ضربته بسيفي ، وبيان آخر : من قال : انه مات علوت رأسه بسيفي ، وإنما ارتفع إلى السماء » . وهذه بيانات صريحـــة صحيحة أذاعها عمر على الملأ تمهيداً لما ينوى القيام به . وتنفيذاً لمقررات حزبه الثلاثي واليك المصادر التي نصت على ذلك : تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٩٨ . شرح النهج لابن أبي الحديد ج ١ ص ١٢٨ . تاريخ ابن كثير ج ٥ ص ٣٤٢ . تاريخ أبي الفداء ج ١ ص ١٥٦ المواهب اللدنية للقسطلاني هامش الكامل ج ٧ ص ١٦٤ . شرح المواهب للزرقاني ج ٨ ص ٢٨٠. السيرة النبوية لزيني دحلان هامش السيرة الحلبية ج٣ ص ٣٧١-٣٧٤ وذكرى حافظ للدمياطي ص ٣٦ نقلا عن الغزالي. وقد أخذ هذا شاعر النيل فقال :

يصيح من قال نفس المصطفى قبضت علوت هامتـــه بالسيف أبريها

من قصيدته العمرية الذائعة الصيت . وبعد هذا كيف يصح الاختيار لأحـــد في تقديم هذا أو ترك ذاك .

(١و٢) لو سلمنا جدلا بصحة خبر أمر الصلاة، فأين نضع حديث رسول الله صلى الله عليه وآله حينما أخذ يستفهم مع من في الدار : من صلى بالناس ؟ واهتمام كل من عائشة وحفصة وحرص كل منهما على دعوة أبيها ليسبق إلى الصلاة بالناس ---

. . . .

ـ بدون علم رسول الله وكيف انكشف الأمر بعد ذلك لرسول الله (ص) حتى قال معبراً عن مدى استيائه منهن : « إنكن لانتن صويحبات يوسف » راجع فى ذلك صحيح البخاري ج ١ ص ٨٤ والطبرى ج ٢ ص ٤٣٩ وصحيح مسلم ومسند أحمد ، وكيف جاء النبى (ص) ونحى أبا بكر وكبر للصلاة من جديد ولم يبن على صلاته . فأى ميزة فى ذكر مثل هذا ؟مع العلم أن ما باؤا به من تأخرهم عن الالتحاق بجيش اسامة كافياً لمن يريد التعرف على موقفهم ، فانه لم يكن برضا من رسول الله الذى يقول : « لعن الله من تأخر عن جيش أسامة » ومن أراد التوسع فى هذا فليراجع طبقات ابن سعد تحت عنوان سرية أسامة .

وليس فى هذا الذى يدعيه صاحب الرسالة حجة إذ أن علياً لم يترك لقصور فيه بل إنما هو عمل الحزبية ومعلوم مالهامن الأثر حتى على تعطيل النصوص لركون أهلهاإلى التشريعات المرتجلة التى توحى بها المصالح الشخصية . وإلا فلو أن الانتخاب كما يقال كان بطريقة مشروعة وفيه شيء من الحرية لما عدل الناس عن علي (ع) لما كان يتمتع به من الكفاءة والمؤهلات الغير موجودة عند غيره تضاف اليها تلك النصوص الواردةفى حقه من الآيات والأحاديث التى خصت به وبشأن توليته بعدالنبى صلى الله عليه وآله وبالنظر لضيق المجال عن ذكرها فى هذا العرض لكثرتها فانا نحيل القارئ لبعض المصادر التى تضمنت بعض ما ورد فى حقه (ع) فراجع الصواعق المحرقة لابن حجر الباب الحادى عشر وغاية المرام للبحرينى باب ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ و ٤٠ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٨ و ٤٩ و ٦٠ و ٦١ والمستدرك للحاكم ج ٢ ص ٥٠٢ و ج ٣ ص ١٣٨ ونور الأبصار للشبلنجى ص ٧١ و ج ٧ ص ١٢٢و١٢٣ من صحيح مسلم وج ٣ ص ١١٥ من السيرة الحلبية وج ٣ ص ٢٥٩ من مسند أحمد والحديث ٣٨١٩ من أحاديث الكنز فى آخر ص ٢١٧ ج ٦ وكذلك الحديث ٢٥٧٨ من ج ٦ ص ١٥٥ والحديث ٢٥٧٧ من ج ٦ ص ١٥٥ وشرح النهج لابن أبى الحديد ج ٢ ص ٤٥٠ ط مصر وأسباب النزول للواحدى .

إلى كثير من كتب التفسير والحديث التى تدل دلالة واضحة على ما جاء فى فى شأن النص على خلافة علي (ع) بعد النبي (ص) مباشرة .

كان فى أصحاب الشورى فتركوه كلهم دفعاً عنها (١) ولم يروله حقاً فيها ، أما عبدالرحمن فقدم عليه عثمان ، وقتل عثمان وهو له متهم (٢) وقاتله طلحة والزبير وأبى سعد بيعته وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده .

ثم طلبها بكل وجه ، وقاتل عليها ، وتفرق عنه أصحابه ، وشك فيه شيعته قبل

---

(١) اما قتال طلحة والزبير لعلي فدليل على عدم تحرجهما بأى موثق دينى نتيجة ما منيا به من الضعف النفسى الذى جعل يركضان وراء الأهام والخرافات

أما اعتزال سعدوابائه بيعة علي فانه لم يضر بعلي بقدر ماأضر بسعدنفسه من اضعاف سمعته عند العامة وتزلزل ثقة الأجيال منه ، ولعل ما سجله لنا سعد عن كيفية الشورى هو أكبر برهان يقام على رد تلك المؤاخذة ، وكان ذلك منه جواباً على رسالة ارسلها اليه معاوية جاء فيها «أما بعد فان أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشام والذين اثبتوا حقه واختاروه على غيره ، وقد نصره طلحة والزبير ، وهما شريكاك فى الأمر والشورى ، ونظيراك فى الاسلام وخفت لذلك ام المؤمنين فلا تكرهن ماركبوا ولا تردن ما قبلوا فانما نريدها شورى بين المسلمين » . فأجابه سعد بهذا :

« اما بعد فان اهل الشورى ليس منهم احق بها من صاحبه ، غير أن علياً كان من السابقة ولم يكن فينا ما فيه فشاركنا فى محاسننا ، ولم نشاركه فى محاسنه ، وكان أحقنا كانا بالخلافة ولكن مقاديره تعالى التى صرفتها عنه حيث شاء لعلمه وقدره وقد علمنا أنه أحق بها منه ولكن لم يكن بد من الكلام فى ذلك والتشاجر فيه فدع ذا ، واما امرك يامعاوية فانه امر كرهنا اوله وآخره واما طلحة والزبير فلو لزما بيعتهما لكان خير لهما . والله يغفر لأم المؤمنين عائشة » عن الأمامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ٨٦

(٢) أمااتهام علي بالاشتراك بمقتل عثمان فدعوى باطلة تردها المصادر الثابتة من أن علياً بلغت به الحالة من المحافظة على عثمان أنه لما قتل أسرع إلى ولديه وقال للحسن وأخذ يؤنبه على ذلك ويقول كيف قتل وانت تذب عنه ؟

الحكومة، ثم حكم الحكمين، وأعطاهما عهده وميثاقه على الرضا بما حكما به ، فاجتمعا على خلعه (١) .

وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن ، فباعها من معاوية بخرق ودراهم ، ولحق بالحجاز ، وأسلم شيعته بيد معاوية ، ودفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ مالا من غير ولائه ولا حله ، فان كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه .

ثم خرج عمك الحسين بن علي «ع» على ابن مرجانه ، فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه اليه ، وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء ، وحملوهم بلا وطاء فى المحامل كالسبي المجلوب إلى الشام (٢)

---

(١) مما يظهر ان صاحب الرسالة لم يكن يعرف عن تاريخ تلك الفترة التي عاش فيها علي ابن ابي طالب (ع) كخليفة للمسلمين شيئاً. لذلك نراه ذهب يكيل لخصمه مثل هذا التعبير وكأنه قد تناسى عظمة تلك الشخصية التى كان يدعو باسمها ليتوصل إلى مآربه. نعم تناسى عظمة علي «ع» حينما حصل على بغيته لئلا يطالب بالسير على نهجه. إن علياً لم يكن من طلاب الشهرة ولا من أهل البهرجة حتى يذهب إلى طلب الخلافة بكل وجه إن علياً ضحى بحقه فى سبيل وحدة شمل المسلمين وجمع كلمتهم . إن علياً كما قال عنه أحمد بن حنبل (رض) : « إن الخلافة لم تزين علياً بل علي زينها ، ولعل فى مناظرة جد المنصور الذي نسبت له الرسالة ـ عبدالله بن عباس ـ مع الخليفة عمر بن الخطاب (رض) فى شأن علي والخلافة وما احتج به ابن عباس من القرآن والسنة بما لعلي من المميزات التى يفقدها غيره بما جعله يرضخ لحديثه خير دليل إلى من رام ذلك .

اما فشل التحكيم فعائد إلى من كان يمثله وليس فى موضوعية التحكيم لأن كيد ابن العاص غلب على بساطة ذلك الشيخ الأشعرى الذى أرغم علياً على تقبله ممثلا عنه ، وكم كان يود حبر الأمة ـ عبدالله بن عباس ـ أن يتولى تلك المهمة بنفسه إلا أن الخوارج أبو ذلك وأعلنوا إثارة الفتنة إن لم يكن الأشعرى فماذا يكون موقف علي حيال ذلك ؟

(٢) إن خروج الحسين الذى تشير اليه الرسالة كان بدافع العقيدة والمبدأ ـ

ثم خرج منكم غير واحد على بني أمية ، فقتلوكم وصلبوكم على جـذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ، ونفوكم من البلدان ، حتى قتل يحيى بن زيد بخـراسان . وحتى خرجنا عليهم ، فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه ، ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك في أدبار الصلاة المكتوبة كما تلعن الكفرة ومنفناهم وكفرناهم ، وبينا فضله وأشدنا بذكره ، فاتخذت ذلك علينا حجة ،وظننت أنا ـ لما ذكرنا من فضل علي ـ قدمناه على حمزة والعباس وجعفـر . كل اولئك مضوا سالمين مسلماً منهم وابتلي أبوك بالدماء (١)

ولقـد علمت أن مكرمتنا فى الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم . وكانت للعباس دون اخوته فنازعنا فيها أبوك فقضى لنا عليه عمر . فلم نزل نليهـا في الجاهلية والاسلام ، ولقد قحط أهل المدينة فلم يتوسل عمر إلى ربه ، ولم يتقرب اليه إلا بأبينا ، حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث ، وأبوك حاضر لم يتوسل به (٢)

ــوالاستجابة الى المسؤولية التى يشعر بهاتجاه أنات البائسين وولولة المشكولين ومن كان يحمل مثل شعور الحسين «ع» لا يهمه أمر الناس الذين معه قلوا أو كثروا . فليس همه إلا اطاحة الظلم والفحشاء اللذين نشرهمابين الامة شذاذ الخليقة وحشرات الأرض. مهما كلفه ذلك من ثمن . وان كان قد قتل فانه قد انتصر بمبدأه وخسر عـدوه وآية ذلك تربع من وضعت على لسانه الرسالة على عرش الخلافة الاسلامية باسمـــه حينما نادى بالثارات الحسين . ولو أن الحسين (ع) لم يتم بذلك لـكان المنصور من الخاملين وابقى الستار مسدولا على ألمع شخصية عباسية ولبثوا فى الحميمة يستدرون نوال الأمويين بين الفينة والأخرى .

(١) اماخروج بنى العباس فقد أشرنا الى أسبابه فى عامة مطاوى هذاالكتاب وأبنا أسراره ولمحنا الى تراجم بعض شخصياتهم وتعرفنا على آراء الكتاب القائلة بأن بنى العباس كانوا فى ركب آل البيت فى تلك الدعوة فلما أحسوا بنجاحها استداروها بطريقة الكيد لصالحهم .

(٢) أما سقاية الحاج من حيث هى فوضيفة وليست بمكرمة ، وقد كانت قبلــ

ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبدالمطلب بعد النبي صلى الله عليه وآله غيره فكان وارثه من عمومته ، ثم طلب هـذا الأمر غـير واحـــد من بني هاشم فلم ينله إلا ولده . فالسقاية سقايته . وميراث النبي له . والخلافة في ولده . فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا اسلام . في دنيا ولا آخـرة إلا والعباس وارثه (١) وموروثه . ولقد جاء الاسلام والعباس يمون أبا طالب وعياله . وينفق عليهم للازمة التي أصابته . ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرهاً لمات عمك طالب وعقيل جوعاً . وللحسا جفان عتبة وشيبة . ولكنه كان من المطعمين . فأذهب عنكم العار والشنار وكفاكم النفقة والمؤنة . ثم فدى عقيلا يوم بدر .

فكيف تفخر علينا ؟ فقدمناكم في الكفر . وفديناكم من الأسر . وحزنا

--هذا لأبى طالب (رض) فتنازل عنها لأخيه العباس فان كان هناك فخر فهو لصاحبها الأول الذى احل العباس بها . ثم كيف تحسب مكرمة على غيرها وقد قال تعالى : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله وجاهد في سبيله » الآية يقول الشعبي ومحمد بن كعب القرظي : نزلت في علي بن أبي طالب ، والعباس ابن عبدالمطلب ، وطلحة بن أبي شيبة . افتخروا فقال طلحة : أنا صاحب البيت بيدى مفاتيحه . وقال العباس : أنا صاحب السقاية والقائم عليها . وقال علي (ع) : ما أدري ما تقولان لقد صليت على القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فنزلت هذه الآية من سورة التوبة .

راجع تفسير القرطبي ج ٨ ص ٩١ وتفسير الرازي ج ٤ ص ٤٢٢ والخازن ج ٢ ص ٢٢١ وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة ص ١٢٣ وابن كثير الشافعي ج ٢ ص ٣٤١ والحافظ السيوطي في الدر المنثور ج ٣ ص ٢١٨ من طريق الحافظ مردويه عن ابن عباس والطبري ج ١٠ ص ٥٩ من التفسير .

(١) اما وراثته فليس هناك دليل شرعي يقوم عليها مع وجود الوارث وتعدده . واذا أخذنا بحديث الخليفة أبي بكر « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » فلا حجة للمطالب بحق العباس الوهمي ولا لصاحب الحق الواقعي .

عليكم مكارم الآباء . وورثنا دونكم خاتم الأنبياء . وطلبنا بثاركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه . ووضعناكم بحيث لم تضعوا انفسكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . »

- ١٥ -

نهاية محمد

وهكذا فقد باء المنصور في وعده ووعيده من محمد بالفشل ، وعرف أن الحيلة والخديعة التي نجح بها من قبل لم تكن تخفى على محمد ، وذلك بما أبانه له في رسالته اليه . وعرف عنه أيضاً انه لا يتراجع عما قام به ، فصمم على ملاقاته بصورة جدية . وإنه أمر له خطورته ، فلابد إذاً من إمعان الفكر فيمن يتولى قيادة الجيش الذي سيبعثه لملاقاته ؟ ولم يكن منه إلا الرجوع إلى رأي العقيلي الذي أشار عليه بتولية رجل من بني هاشم ، فاستدعى ابن أخيه الأمير عيسى بن موسى وقال له : إن محمداً قد ظهر بالمدينة فسر اليه فقال : ياأمير المؤمنين ، هؤلاء عمومتك حولك ، فادعهم وشاورهم قال : فأين قول ابن هرمة :

تزور امرءاً لا يمحض القوم سره ولا ينتجي الأدنين فيما يحاول
إذا ما أتى شيئاً مضى كالذي أتى وإن قال إني فاعل فهو فاعل (١)

ثم قال له : امض أيها الرجل فوالله ما يراد غيري وغيرك . فقبل منه وخرج بالجيش ، يقول الطبري : لما سار عيسى لحرب محمد بن عبدالله ، قال المنصور : « لا أبالي أيهما قتل صاحبه » لأنه إن قُتل عيسى حول ولاية العهد لابنه المهدي وإن قتل عيسى محمداً فقد أراحه من خصمه ، ومكنه من توحيد جهوده لتدبير أمر ولاية العهد لابنه فهو رابح في هذا الاختيار على كل حال . وكان قد أرسل معه من القواد محمد بن أبي العباس وكثير بن حصين العبدي ، وحميد بن قحطبة .

ولما وصل الجيش إلى فيد (١) أرسل عيسى إلى أهل المدينة كتباً يمنيهم فيها

(١) المقاتل ص ٢٦٧ ط مصر وفي الطبري ج ٦ ص ١٩٥ - غير انه يوجد بينهما تفاوت جزئي لا يخل بالوزن والمعنى

الأماني الطيبة ، فتراجع بعضهم عن محمد وتركوا اللحوق به .

أما محمد فانه راح يستطلع آراء البارزين من أصحابه في كيفية ملاقاة هـذا الجيش الذي هو ليس عنه ببعيد . فأشار عليه بعضهم بالخروج إلى مصر ، لأن فيها من الاستعداد والقوة ما لم يكن في المدينة المنورة مثله ، وقالوا له : الست تعلم أنك بأقل بلاد الله فرساً وطعاماً وسلاحاً وأضعفها رجالا ؟ الست تعلم أنك تقاتل أشد بلاد الله رجالا وأكثرها مالا وسلاحاً ؟ . . فالرأي أن تسير بمن معك حتى تأتي مصر فوالله لا يردك راد ، فتقاتل الرجل بمثل سلاحه وكراعه ورجاله وماله » فصاح حنين ابن عبدالله : أعوذ بالله أن تخرج من المدينة ، وحدثه أن النبي صلى الله عليه وآله قال : رأيتني في درع حصينة فأولتها المدينة » .

ولم ير محمد بدأ من النزول على رأي القائلين بالبقاء في المدينة ، وأخذ اليأس يدب إلى نفسه ، ولا سيما بعد أن تبين له ضعف حماسة ذلك الفريق الذي كان يرى الخروج إلى مصر وتثاقله عن نصرته . ثم بدت له فكرة حفر الخندق الذي كان رسول الله (ص) قد حفره يوم الأحزاب . وقد عورضت هذه الفكرة معارضة شديدة من قبل ذلك الفريق وكان من جملة من صارح محمداً بتلك المعارضة هو جابر بن أنس - رئيس بني سليم - : ياأميرالمؤمنين نحن أنصارك وجيرانك وفينا السلاح والكراع فلا تخندق الخندق دونهم ، فان رسول الله « ص » خندق خندقه لما الله أعلم به وإن خندقته لم يحسن القتال رجالة ، ولم توجه الخيل بين الأزقة ، وإن الذين يخندق دونهم هم الذين يحول الخندق . فقال أحد بني شجاع : خندق خندق رسول الله (ص) فاقتد به اوتريد أنت أن تدع رسول الله لرأيك ؟ قال : إنه والله يابن شجاع ما شيء أثقل عليك وعلى أصحابك من لقائهم ، وما شيء أحب

---

(١) بلدة صغيرة في نصف طريق مكة من الكوفة يودع الحجاج فيها ازوادهم وما يثقل من امتعتهم عند اهلها . فاذارجعوا اخذوها منهم ووهبوا لهم شيئاً تنسب الى فيد بن حام (معجم البلدان ج ٦ ص ٤٠٨)

الينا من مناجزتهم . فقال محمد : إنما اتبعنا في الخندق أثر النبي «ص» فلا يردني أحد عنه فلست بتاركه ، وأمر به فحفر (١) .

وسار عيسى حتى نزل « الأعوص » (٢) فلما بلغ محمداً ذلك وكان قد رأى من صحبه ما رآه من عدم الانسجام واختلاف الرأي قام فيهم خطيباً فقال : إن عدو الله وعدوكم عيسى بن موسى قد نزل بالأعوص وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والانصار المواسين . ألا وإنا قد اخذنا عليكم المناقب . وإن هذا العدو منكم قريب . وهو في عدد كثير ، والنصر من الله ، والأمر بيده . وإنه قد بدا لي أن آذن لكم وافرج عنكم المناقب فمن أحب أن يقيم أقام ومن أحب أن يظعن ظعن »

وكانت هذه الخطبة مقياساً لمعرفة عدد المخلصين من أنصار محمد ، والذين قاربوا مائة الف أول الأمر ، فقد تسلل أكثرهم وبقى هو في شرذمة قليلة .

وضرب الحصار على المدينة من قبل عيسى بما أخذه من رؤس الطرق ومواطن السقاية ورعاية الماشية وارسل عيسى إلى محمد يخبره ان المنصور قد امنه واهله فأعاد الجواب : « ياهذا إنك لك برسول الله (ص) قرابة قريبة وإني ادعوك إلى كتاب الله وسنة نبيه والعمل بطاعته واحذرك نقمته وعذابه ، وإني والله ما انا منصرف عن هذا الأمر حتى القى الله عليه ، وإياك ان يقتلك من يدعوك إلى الله فتكون شر قتيل او تقتله فيكون اعظم لوزرك » فلما بلغته الرسالة قال ليس بيننا وبينه إلا القتال .

ونزل عيسى بالجرف لاثنتي عشرة من رمضان يوم السبت فأقام السبت والأحد وغدا يوم الاثنين فوقف على سلع فنظر إلى المدينة ومن فيها فنادى يااهل المدينة إن الله حرم دماء بعضنا على بعض فهلموا إلى الأمان فمن قام تحت رايتنا فهو آمن

---

(٢) المقاتل ص ٢٦٨ والطبرى ج ٦ ص ٢٠٧

(٣) الأعوص : موضع يبعد عن المدينة بضعة أميال

ومن دخـــل داره فهـــو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن القى سلاحه فهو آمن ومن خرج من المدينة فهو آمن . خلوا بيننا وبـين صاحبنا فاما لنا واما له فشتموه ، وانصرف من يومه وعاد من الغد ، وقد فرق القواد من سائر جهات المدينة وأخلى ناحية مسجد أبي الجراح وهو على بطحان فانه أخلى تلك الناحية لخروج من ينهزم .

اما محمد فقد تقدم في أصحابه ، وكانت رايته مع عثمان بن محمـد بن خالد بن الزبير ، وكان شعاره : أحد أحد : فبرز أبو القلمس ـ من أحفاد الخليفة عمر ابن الخطاب ـ وهو من أصحـاب محمد فبرز اليه أخو أسد واقتتلوا طويلا فقتله أبو القلمس ، وبرز اليه آخر فقتله فقال حين ضربه خذها وأنا ابن الفاروق ، فقال رجل من أصحاب عيسى قتلت خيراً من الف فاروق .

ونزل محمد إلى القتال بنفسه فقتل بيده سبعين رجلا ، ولما شاهد عيسى هـذه الرجولة من محمد وأصحابه أمر حميد بن قحطبة فتقدم فى مائة مقاتل كلهم راجل سواه ، فزحفوا حتى بلغوا جداراً دون الخندق عليه ناس من أصحاب محمـــد فهدم حميد الحائط وانتهى إلى الخندق ونصب عليه أبواباً وعبر هو وأصحابه عليها فجازوا الخندق ، وقاتلوا من ورائه أشد قتال وأنكره من بكرة حتى العصر ، وأمر عيسى أصحابه فالقوا الحقائب وغيرها فى الخندق وجعل الأبواب عليهـا وجازت الخيل فاقتتلوا قتالا شديداً ، فانصرف محمد قبل الظهر فاغتسل وتحنط ثم رجع فقال له عبدالله بن جعفر بأبي أنت وأمى مالك بما ترى طاقة فلو أتيت الحسن بن معاوية بمكة فان معه جل أصحابك فقال لو خرجت لقتل اهل المدينة والله لا أرجع عنه .

وتفرق عنه جل أصحابه حتى بقي فى ثلثمائة رجل يزيدون قليلا فقال لبعض أصحابه : نحن اليوم بعدة أهل بدر ، وصلى الظهر والعصر ، وكان معه عيسى بن خضير وهو يناشده ألا ذهبت إلى البصرة أو غيرها ومحمد يقول : لا والله لاتبتلون بي مرتين ولـكن اذهب أنت حيث شئت . فقال ابن خضير : واين المذهب عنك

ثم مضى فأحرق الديوان الذي فيه أسماء من بايع محمداً ثم رجع .

ويقال ان ابن خضير الزبيري وهو الرجل الذي أحرق الديوان استأذن محمداً في العودة إلى المدينة ثانية فأذن له وهو لا يعلم ما يريد فدخل على رياح بن عثمان ابن حيان المري وأخيه فذبحها ثم رجع فأخبر محمداً . وتقدم حميد بن قحطبة ، وتقدم محمدفلما صار ينظر ميل سلع عرقب فرسه وعرقب بنو شجاع دوابهم ولم يبق أحد إلا كسر جفن سيفه فقال لهم محمد : قد بايعتموني ولست بارحاً حتى اقتل فمن أحب أن ينصرف فقد اذنت له » واشتد القتال فهزموا اصحاب عيسى مرتين وثلاثاً . حتى قال يزيد بن معاوية بن عباس بن جعفر : ويل امه فتحاً لو كان له رجال. فصعد نفر من أصحاب عيسى على جبل سلع وانحدروا منه إلى المدينة. وأمرت أسماء بنت حسن بن عبدالله بن عبيدالله بن عباس بخمار أسود فرفع على منارة محمد رسول الله (ص) فقال اصحاب محمد : دخلت المدينة فهربوا فقال يزيد : لكل قوم جبل يعصمهم ولنا جبل لا نؤتى إلا منه - يعني سلعاً - . وفتح بنو ابي عمر الغفاريون طريقاً في بني غفار لأصحاب عيسى ودخلوا منه ايضاً وجاؤا من وراء اصحاب محمد ونادى محمد حميد بن قحطبة : ابرز إلي فأنا محمد بن عبدالله . فقال حميد : قد عرفتك وانت الشريف ابن الشريف الكريم ابن الكريم لا والله لاابرز اليك وبين يدي من هؤلاء الاغمار احد فاذا فرغت منهم فسأبرز اليك وجعل حميد يدعو ابن خضير إلى الامان وابن خضير يحمل على الناس راجلا لا يصغي إلى امانه ولم يزل على مثل هذه البسالة حتى أثخن بالجراح وبالتالي جاءه سهم فوقع في عينه وسقط فابتدروه وقتلوه واخذوا رأسه .

ولما قتل ابن خضير تقدم محمد فقاتل على جثته فجعل يهد الناس هداً وكأنه اشبه الناس بقتال حمزة بن عبدالمطلب مايقاربه احدإلا قتله. يقول ابوالحجاج المنقري وكأني انظر اليه وقد رماه انسان بسهم فبرك لركبته وجعل يذب عن نفسه ويقول: ويحكم ابن نبيكم مجروح مظلوم فطعنه ابن قحطبة في صدره فصرعه ، ثم نزل اليه

فأخذ رأسه وأتى به عيسى وهو لا يعرف من كثرة الدماء . واحتزوارؤوس القتلى من اصحابه وكانت من بينهم رؤوس بني شجاع وأرسلوا بها الى ابي جعفر .

فلما وصلت اليه امر فطيف بها فى الكوفة وسيرها فى الآفاق . وكان المنصور يقول حينما رأى رؤوس بني شجاع : « هكذا فليكن الناس طلبت محمداً فاشتمل عليه هؤلاء ثم نقلوه وانتقلوا معه ، ثم قاتلوا معه حتى قتلوا » .

وانتهى خبر قتل محمد إلى أخيه ابراهيم بالبصرة وكان إذ ذاك يوم عيدخرج فصلى بالناس ونعاه على المنبر واظهر الجزع عليه وأخذ يتمثل بهذه الأبيات :

أبا المنازل ياخير الفوارس من ... يفجع بمثلك في الدنيا فقد فجعا

الله يعلم اني لو خشيتهم ... وأوجس القلب من خوف لهم فزعا

لم يقتلوه ولم أسلم أخي لهم ... حتى نموت جميعاً أو نعيش معا

ورثاه أيضاً بهذه الأبيات :

سأبكيك بالبيض الرقاق وبالقنا ... فان بها ما يُدرك الطالب الوترا

وإنا أناس لا تفيض دموعنا ... على هالك منا ولو قصم الظهرا

ولست كمن يبكي أخاه بعبرة ... يعصّرها من جفن مقلته عصرا

ولكنني أشفي فؤادي بغارة ... ألهّب في قطري كتائبها جمراً

ومن مختار مارثي به محمد بن عبدالله من الشعر، قول غالب بن عثمان الهمداني:

يادار هجت لي البكاء فأعولي ... حييت منزلة دثرت ودارا

بالجزع من كنفي سويقة أصبحت ... كالبرد بعد بني النبي قفارا (١)

الحاملين إذا الحمالة أعجزت ... والأكرمين أرومة ونجارا (٢)

والمطرين إذا المحول تتابعت ... درراً تداولها المحول غزارا

والذائدين إذا المخافة ابرزت ... سوق الكواعب يبتدرن حصاراً

---

(١) سويقة موضع بنواحى المدينة يسكنه آل علي بن أبي طالب (ع)

(٢) النجار : هو الأصل أو السحب

وثبت نتيلة وثبة بعلوجها | كانت على سلفى نتيـلة عارا
فتعلمت ساداتها وتهتكت | حرماً محصنة الخدور كبارا
ولغت دماء بني النبي فأصبحت | خضبت بها الأشداق والأظفارا
لا تسقني بيديك إن لم أبتعث | لبني نتيـلة جحفلا جـرارا
لجباً يضيق به الفضاء عرمرماً | يغشى الدكادك قسطلا موارا (١)
فيه بنات بني الصريح ولاحق | قباً تغادر في الخليف مهارا (٢)
يخرجن من خلل الغبار عوابساً | يوردن فى حصب الأماعز نارا(٣)
فننال فى سلفى نتيلة ثارنا | فـيما ينـال ونـدرك الأوتارا

* * *

وقال أبو الحجاج الجهني فى رثائه أيضاً :

بكر النعي بخير من وطيء الحصا | ذي المكرمات وذى الندى والسؤدد
بالخاشع الـبر الذي من هاشم | أمسى ثقيـلا فى بقيع الغرقد
ظلت سيوف بني أمية تنوشه | أن قام مجتهداً بدين محمد .

وقال عبدالله بن مصعب يرثى محمداً وابراهيم ومن قتل من آل الزبير :

سالت دموعك ضلة قد هجت لي | برحاء وجـد يبعث الاحزانا
هلا على المهـدي وابني مصعب | أذريت دمعك ساكباً تهتانا
ولفقـد ابراهيم حين تصدعت | عنه الجموع فواجـه الأقـرانا

(١) الموار : مبالغة المائر : وهو الريح المثيرة للتراب

(٢) الصريح : كجريح فرس عبد يغوث بن حرب وآخر لبنى نهشل وآخر للخم . ولاحـق : فرس معاوية بن أبي سفيان وآخـر لغنى بن اعصر وآخر للمازوق الخارجى وآخر لعتبة بن الحارث . ولاحق الأصغر لبنى اسد . والقب : جمع اقب وهو من الخيل الدقيق الخصر الضامر البطن

(٣) الأماعز : جمع امعز وهو المكان الغليظ الكثير الحصى .

والله ما ولد الحواضن مثله ... أمضى وأرفع محتداً ومكانا
واشد ناهضة وأقول للتي ... تتقى مصارع أهلها العدوانا
رزءٌ لعمرك لو يصاب بمثله ... ميطان صدع رزؤه ميطانا

* * *

وقال أيضاً :

ياصاحبي دعا الملامة واعلما ... أن لست في هذا بألوم منكما
وقفا بقبر ابن النبي وسلما ... لا بأس أن تقفا به فتسلما
قبر تضمن خير أهل زمانه ... حسباً وطيب سجية وتكرما
رجل نفى بالعدل جور بلادنا ... وعفا عظيمات الأمور وأنعما
لم يجتنب قصد السبيل ولم يحد ... عنه ولم يفتح بفاحشة فما
لو أعظم الحدثان شيئاً قبله ... بعد النبي به لكنت المعظما
أو كان أمتع بالسلامة قبله ... أحد لكان قصاره أن يسلما
ضحوا بإبراهيم خير ضحية ... فتصرمت أيامه وتصرما
بطل يخوض بنفسه غمراتها ... لا طائشاً عبثاً ولا مستسلما
حتى مضت فيه السيوف وربما ... كانت حتوفهم السيوف وربما

* * *

أضحى بنو حسن أبيح حريمهم ... فينا وأصبح نهبهم متقسما
ونساؤهم في دورهن نوائح ... سجع الحمام إذ الحمام ترنما
يتوسلون بقتلهم ويرونه ... شرفاً لهم عند الامام ومغنما
والله لو شهد النبي محمد ... صلى الاله على النبي وسلما
إشراع امته الأسنة لابنه ... حتى تقطر من ظباتهم دما
حقاً لأيقن أنهم قد ضيعوا ... تلك القرابة واستحلوا المحرما

* * *

وانتهت فصول هذه المأساة المحزنة في يوم الأثنين ١٤ من سنة ١٤٥ هج . واستأذنت زينب بنت عبدالله جثة محمد من عيسى لتدفنها بقولها : إنكم قد قتلتموه وقضيتم حاجتكم منه فلو أذنتم لنا في دفنه ، فأذن لها فدفن بالبقيع .

- ١٦ -

ابراهيم يعلن الحرب

ولما وصل إلى ابراهيم نعي أخيه خرج إلى الناس وأخبرهم ، وكانت البصرة موالية له جداً كما كان البصريون من أكثر أنصاره وأشدهم انقياداً وطاعة له . وكان ابراهيم يحس بشعور البصريين نحوه . وقد مر علينا ما وجهه اليهم من الثناء على ماقاموا به من ايوائه والألتفاف حوله . وطلب منهم التهيؤ إلى الحرب فأجابوه بالسمع والطاعة . يقول عمر بن خالد مولى بني ليث : استلبت وأنا غلام دوامة من غلام ، فاتبعني ، وسعيت فدخلت دار أبي مروان فوجدت ابراهيم جالساً في جماعة من أصحابه محتبياً بحمالة سيف - وهي نسعة (١) مدنية عرضها أكثر من اصبع - ورجل قائم على رأسه ، ودابة تعرض عليه ، وذلك قبل خروجه بشهر ، فلما كانت الليلة التي خرج فيها سمعنا تكبيرة بعد المغرب بهنيهة ثم تتابع التكبير وخرجوا حتى صاروا إلى مقبرة بني يشكر ، وفيها قصب يباع ، فأقاموا في كل ناحية من المقبرة أطناناً ، ثم ألهبوا فيها النار ، فأضاءت المقبرة . وجعل أصحابهم الذين كانوا وعدوهم يأتونهم ، فكلما جاءت طائفة كبروا حتى تم لهم ما أرادوا ، ثم مضوا إلى دار الامارة ، بعدما ذهبت طائفة من الليل (٢)

وكان المنصور فى تلك الفترة يرسل بقطع من الجيش إلى البصرة ليكثر

---

(١) النسع بالكسر : سير ينسج عريضاً على هيئة اعنة النعال تشد به الرحال - وسمى نسعاً لطوله - القاموس

(٢) المقاتل ص ٣٢١

التحشدات فيها لأنه يخشى عليهما من وثبة ابراهيم الذي خفي عليه أمره. وقد كان لواليه سفيان بن معاوية أكبر الأثر في تثبيط هؤلاء الذين يقدمون عليه من قبل المنصور بما يتظاهر به أمامهم من عدم وجود أي نشاط ضدهم، وكان قد وكل أمر الرقابة والتحري إلى اناس يطمئن اليهم وقد عرفوا منه التغاضي عن أمر ابراهيم ، حتى أن صاحب شرطته لما عرف منه ذلك صار لا يهتم بأمر ابراهيم . يقول حفص بن عمر : مر عاقب صاحب شرطة سفيان يوم الأحد قبل ظهور ابراهيم بيوم في مقبرة بني يشكر فقيل له هذا ابراهيم يريد الخروج فقال : كذبتم ولم يعرج على ذلك المكان .

ويذكر الطبري في ج ٦ ص ٢٥١ « ان سفيان كان يرسل إلى قائدين كانا قدما عليه من عند أبي جعفر مدداً له قبل ظهور ابراهيم فيكونان عنده فلما وعده ابراهيم بالخروج ـ وكان هذا الوالي على اتصال دائم مع ابراهيم يطلعه على كل ما جد المنصور من رأي في أمر البصرة ـ ارسل اليها فاحتبسها عنده تلك الليلة حتى خرج ، وكان قد قدم فيها أبو حماد الأبرص مدداً لسفيان في الفي رجل فنزل الرحبة فسار ابراهيم فكان أول شيء أصاب دواب أولئك الجند واسلحتهم ، وصلى بالناس الغداة في المسجد الجامع وتحصن سفيان في الدار ومعه فيها جماعة من بني أبيه ، وأقبل الناس إلى ابراهيم من بين ناظر وناصر حتى كثروا ، فلما رأى سفيان ذلك طلب الأمان فأجيب فدس إلى ابراهيم مطهر بن جويرية السدوسي فأخذ لسفيان الأمان وفتح الباب ودخل ابراهيم الدار ، فلما دخلها ألقي له حصير في مقدم الايوان فهبت ريح فقلبته ظهراً لبطن فتطير الناس لذلك. فقال ابراهيم : إنا أهل بيت لا نتطير ثم جلس عليه مقلوباً والكراهة ترى في وجهه ، ثم قام إلى الدار وخلى عن كل من كان فيها فيما ذكر غير سفيان بن معاوية فانه حبسه في القصر وقيده قيداً خفيفاً ، وقد أراد بفعله هذا أن يري أبا جعفر أنه عنده محبوس .

وبلغ جعفراً ومحمداً ابني سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس وكانا بالبصرة يومئذ مسير ابراهيم إلى دار الامارة وحبسه سفيان ، فاقبلا فيما قيل في ستمائة من

الرجالة والفرسان والناشبة ، فوجـــه ابراهيم اليها المضاء بن القاسم الجزري في ثمانية عشر فارساً وثلاثين راجلا فهزمهم المضاء ولحق محمداً رجل من أصحاب المضاء فطعنه في فخذه ونادى مناد لابراهيم : لا يتبع مدبر ، ومضى هو بنفسه حتى وقف على باب زينب بنت سليمان فنادى بالأمان لآل سليمان وأن لا يعرض لهم أحد .

ولما تغلب ابراهيم على البصرة وجه إلى الأهواز من قبله رجـلا يدعو له فيها فذهب ذلك الرجل فاستجابوا له وبايعوه لابراهيم ، فعاد اليه وأخبره عن حالهم فوجه اليهم المغيرة في خمسين رجلا ثم اجتمع إلى المغيرة لما صار إلى الأهواز تمام مائـــة رجل ، وكان عامل الأهواز يومئذ من قبل أبي جعفر محمـــد بن الحصين ، فلما بلغ ابن الحصين دنو المغيرة منه خرج اليه بمن معه وهم فيما قيل أربعـة آلاف ، فالتقوا على ميل من قصبة الأهواز بموضع يقال له « دشت أربك » فانكشف ابن حصين وأصحابه ودخل المغيرة الأهواز ، وأصبحت البصرة والأهواز بيد ابراهيم ثم وجه إلى فارس عمرو بن شداد عاملا عليها فر برام هرمز بيعقوب بن الفضـل وهو بها فاستتبعه فشخص معه حتى قدم فارس وبهـا اسماعيل بن علي بن عبدالله عاملا عليها من قبل أبي جعفر ومعه أخوه عبدالصمد بن علي ، فلما بلغ اسماعيل بن علي وعبدالصمد إقبال عمرو بن شداد ويعقوب بن الفضل ، وكانا باصطخر بادرا إلى « دار ابجرد » فتحصنا بها فصارت فارس تحت سلطان ابراهيم .

وتوالت على أبي جعفر الفتوق ـ بعد خروج ابراهيم ـ من البصرة والأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد إلى جانب كثير من أهـل الكوفة (١) والذي « يبدو أن كثيراً من زعماء العراق في الكوفة وفي الموصل وغيرها مالوا إلى ابراهيم وبايعوه » (٢)

وخيم القلق على أبي جعفر وصار لا يقر له قرار لما يراه من توسع ابراهيم

(١) الكامل جـ ٥ ص ٢٦٨ والطبرى جـ ٦ ص ٢٥٣
(٢) مؤرخ العراق ابن الفوطى جـ ١ ص ١٠٩

وبقي من أجل هذا خمسين يوماً ينام على مصلاه ويجلس عليه وعليه جبة ملونة قد اتسخ جيبها ولم يغيرها ولم يترك المصلى، ولا يرى إلا واجماً، وأهديت له امرأتان من المدينة احداها فاطمة بنت محمد بن عيسى بن طلحة بن عبيد، والأخرى أم الكريم ابنة عبدالله من ولد خالد بن أسيد، فلم ينظر اليهما فقيل له: انهما قد ساءت ظنونهما فقال: ليست هذه الأيام أيام نساء، ولاسبيل اليهما حتى انظر رأس ابراهيم لي أو رأسي لابراهيم (١)

وذكر الطبري: أن محمداً وجعفراً ابني سليمان كتبا إلى ابى جعفر يعلمانه بعد خروجهما من البصرة الخبر في قطعة جراب بيد الرسول قال: خلع والله أهل البصرة مع ابراهيم ثم قرأ الكتاب، ودعا بعبدالرحمن الختلي وبأبي يعقوب ختن مالك بن الهيثم فوجههما فى خيل كثيفة اليهما وأمرهما أن يحبساها حيث لقياها، وان يعسكرا معهما ويسمعا ويطيعا لهما وكتب اليهما يعجزهما ويضعفهما ويوبخهما على طمع ابراهيم في الخروج إلى مصر هما فيه واستتار خبره عنهما حتى ظهر وكتب في آخر كتابه:

أبلــغ بني هاشم عني مغلغلة   فاستيقظوا إن هذا فعل نوام
تعدوالذئاب على من لاكلاب له   وتتقي مربض المستنفر الحامي

ويقول الحجاج بن قتيبة بن مسلم: دخلت على المنصور أيام حرب محمدوابراهيم وقد جاءه فتق البصرة والأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد وهـو ينكت الأرض بمخصرته ويتمثل:

ونصبت نفسي للرماح دريئــة   إن الرئيس لمثل ذاك فعــول

قال فقلت: ياأميرالمؤمنين أدام الله عزك ونصرك على عــدوك أنت كما قال الأعشى:

وإن حربهم أوقدت بينهم   فحرت لهم بعــد ابرادهــا

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٥٥ ط دار الاستقامة وابن الأثير ج ٥ ص ٢١٠

وجدت صبوراً على حرها وكر الحروب وتردادهـا

فقال : ياحجاج إن ابراهيم قد عرف وعورة جانبي وصعوبة ناحيتي وخشونة قرني وإنما جرأه على المسير إلي من البصرة اجتماع هذه الكور المطلة على عسكر أميرالمؤمنين وأهل السواد معه على الخلاف والمعصية وقد رميت كل كورة بحجرها وكل ناحية بسهمها ووجهت اليه الشهم النجد الميمون المظفر عيسى بن موسى في كثرة من العدد والعدة واستعنت بالله عليه واستكفيته إياه فانه لا حول ولا قـوة لأميرالمؤمنين إلا به . وقال الحجاج أيضاً : لقـد دخلت عليه في ذلك اليوم مسلماً وما أظنه يقدر على رد السلام لتتابع الفتوق والخروق عليه والعساكر المحيطة به ، ولمائة الف سيف كامنة له بالكوفة بازاء عسكره ينتظرون به صيحة واحدة فيثبون فوجدته صقراً أحوزياً قد قام إلى ما نزل به من النوائب يعركها ويعرسها ولم تقعد به نفسه وإنه كال الأول(١) :

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والاقـداما

وصيرته ملكاً هماماً

اما ابراهيم فانه بعد أن استقرت ولاية البصرة و الأهـواز وفارس له ولى على واسط من يرعى أمورها ، وأخذ يتطلع إلى أخبار الكوفة فوردته الرسـائل منها يطلبون أهلها فيها أن يجيء اليهم . فأخذ يستشير أصحابه في ذلك ، وكان إلى جانبه من أصحابه المشهورين بشر بن سلم ونميلة والطهوي وجماعة من قواده من أهل البصرة ، فقالوا له أصلحك الله إنك قـد ظهرت على البصرة والأهواز وفارس وواسط فأقم بمكانك ووجه الأجناد فان هزم لك جند امددتهم بجند وإن هزم لك قائد أمددته بقائد تخيف مكانك ، واتقاك عدوك وجبيت لك الأموال وثبتت وطأتك ثم رأيك بعد ؟ فقال الكوفيون الذين وردوا عليه من الكوفة : أصلحك الله إن بالكوفة رجالا لو قد رأوك ما توادونك وإلا يروك تقعد بهم أسباب شتى

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٥٧ ط دار الاستقامة وابن الأثير ج ٥ ص ٢١٠

فلا يأتونك فلم يزالوا به حتى شخص .

وسار ابراهيم بمن معه وكانوا يزيدون على العشرة آلاف مقاتل . يقول أوس بن مهلهل القطعي : مر بنا ابراهيم في طريقه ذلك ومنزلنا بالقباب التي تدعى قباب أوس فخرجت اتلقاه مع أبي وعمي فانتهينا اليه وهو على برذون له يرتادمنزلا من الأرض فسمعته يتمثل ابياتاً للقطامى :

أمــور لو تــدبرها حليم	إذاً لنهى وهيّب ما استطاعا
ومعصية الشفيق عليك مما	يزيدك مــرة منه استماعا
وخير الأمر ما استقبلت منه	وليس بأن تتبعـه إتباعا

ويذكر الطبري : « أن عبدالواحد بن زياد بن لبيد قال لابراهيم : إن هذه بلاد قومي وأنا أعلم بها فلا تقصد قصد عيسى بن موسى - وكان عيسى قد قفل راجعاً بعد أن انتصر على محمد فى المدينة امتثالا لأمر المنصور الذي استدعاه لهذه المهمة، فلما ورد عليه أردفه بعدد آخر من الجيش ووجهه إلى ابراهيم -وهذه العساكر التي وجهت اليك ولكني اسلك إن تركتني طريقاً لا يشعر بك أبوجعفر إلا وأنت معه بالكوفة فأبى عليه ، قال : فانا معاشر ربيعة أصحاب بيات فدعني ابيت اصحاب عيسى بياتاً . قال : إني اكره البيات إلا بعد الانذار ، وقام بعض اهل الكوفة ليأمره بالمسير اليها ليدعواليه الناس وقال: ادعوهم سرأثم اجهر فاذا سمع المنصور الهيعة بأرجاء الكوفة لم يرد وجهه شيء دون حلوان فاستشار بشير الرحال فقال : لو وثقنا بالذي تقول لكان رأياً ، ولكننا لا نأمن أن تجيئك منهم طائفة فيرسل اليهم المنصور الخيل فيأخذ البريء والصغير والمرأة فيكون ذلك تعرضاً للمأثم فقال الكوفي كأنكم خرجتم لقتال المنصور وانتم تتوقعون قتل الضعيف والمرأة والصغير ؟ أولم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله يبعث سراياه ليقاتل ويكون نحو هذا ؟ فقال بشير : اولئك كفار وهؤلاء مسلمون ، واتبع ابراهيم رأيه وسار حتى نزل باخمرى وهي : من الكوفة على ستة عشر فرسخاً . يقول خالد بن

أسيد الباهلي لما نزل ابراهيم باخمرى أرسل اليه سلم بن قتيبة : انك قد أصحرت ومثلك أنفس به عن الموت تخندق على نفسك حتى لا تؤتى إلا من مأتى واحد فان أنت لم تفعل فقد أغرى أبو جعفر عسكره فتخفف فى طائفة حتى تأتيه فتأخذ بقفاه ، فدعا ابراهيم أصحابه فعرض ذلك عليهم فقالوا : نخندق على أنفسنا ونحن ظاهرون عليهم ؟ لا والله لا نفعل . قال : فنأتيه ؟ قالوا ولِمَ وهو فى أيدينا متى أردنا . فقال ابراهيم للرسول : أتسمع فارجع راشداً ثم أنهم تصافوا ، فصف ابراهيم أصحابه صفاً واحداً فأشار عليه بعض أصحابه : بأن يجعلهم كراديس فاذا انهزم كردوس ثبت كردوس فان الصف إذا انهزم بعضه تداعى سائره فقال الباقون : لا نصف إلا صف أهل الاسلام يريدون قوله تعالى « يقاتلون فى سبيله صفاً » .

ولما فرغ الجميع من تعبئة جيوشهم ، وتقابل الفريقان بدأ النزال فاقتتلوا قتالا شديداً وانهزم حميد بن قحطبة وكان على مقدمة عيسى بن موسى وانهزم الناس فعرض لهم عيسى يناشدهم الله والطاعة فلا يلوون عليه ومروا منهزمين ، وأقبل حميدبن قحطبة منهزماً فقال له عيسى بن موسى ياحميدالله اللهوالطاعة فقال: لاطاعة فى الهزيمة، ومر الناس كلهم حتى لم يبق منهم أحد بين يدي عيسى ، وعسكر ابراهيم بن عبدالله ، فثبت عيسى في مكانه الذي كان فيه لا يزول وهو في مائة رجل من خاصته وحشمه فقيل له أصلح الله الأمير لو تنحيت عن هذا المكان حتى يثوب اليك الناس فتكر بهم فقال لا أزول عن مكانى هذا أبداً حتى أقتل أو يفتح الله على يدي ولا يقال انهزم ، وكان يقول لمن يمر به من المنهزمين إقرأوا أهل بيتي مني السلام وقولوا لهم : إنى لم أجد فداءً أفديكم بهأعز علي من نفسى ، وقد بذلتها دونكم . قال : فوالله إنا لعلى ذلك والناس منهزمين ما يلوي أحد على احدوصمد ابنا سليمان جعفر ومحمد لابراهيم فخرجا عليه من ورائه ولا يشعر من بأعقابنا من أصحاب ابراهيم حتى نظر بعضهم إلى بعض وإذا القتال من ورائهم فكروا نحوه

وعقبنا في آثارهم راجعين . فكانت الهزيمة على أصحاب ابراهيم .

ويروى أن السبب فى عودة جيش المنصور هولما وجدوه أمامهم من الماء الغزير الذي منعهم من الافلات ، فتريثوا فى أمرهم ليجدوا طريقاً آخر ثم اداروا بوجوههم إلى الوراء ليرجعوا فظن اصحاب ابراهيم بأنهم قد كروا عليهم وتخيلوا ان مدداً قد جاءهم ، فانهزموا امامهم ، وثبت ابراهيم في نفر من اصحابه يبلغون ستمائة . وقال بعضهم : بل كانوا سبعين ، وقاتلهم حميد قتالا شديداً حتى قتلت من الفريقين مقتلة عظيمة ، وجعل حميد يرسل بالرؤوس الى عيسى بن موسى .

وبينما كان ابراهيم يقاتل اذ جاءه سهم عائر فوقع في حلقه فنحره فتنحى عن موقفه وقال : انزلوني ، فأنزلوه عن مركبه وهو يقول « وكان امر الله قدراً مقدوراً » أردنا امراً واراد الله غيره ، واجتمع عليه اصحابه وخاصته يحمونه ويقاتلون دونه . فحانت من حميد بن قحطبة التفاتة الى اجتماعهم فأنكرهم ، فقال لأصحابه شدّوا على تلك الجماعة حتى تزيلوهم عن موضعهم ، وتعلموا الخبر ما اجتمعوا عليه ، فشدوا عليهم فقاتلوهم اشد القتال حتى افرجوهم عن ابراهيم وخلصوا اليه فحزوا رأسه ، فأتوا به عيسى بن موسى فأراه ابن ابى الكرام الجعفري فقال نعم هذا رأسه ، فنزل عيسى الى الأرض فسجد وبعث برأسه الى ابى جعفر المنصور وكان قتله يوم الاثنين لخمس ليال بقين من ذي القعدة الحرام سنة ١٤٥ هـ (١).

ولما رأى المنصور رأس ابراهيم تمثل بقول الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالاياب المسافر

ولما وضع الرأس بين يديه اطال الفكر فيه ووجم ، وكان الحسن بن زيد ابن الحسن بن علي (ع) يومذاك حاضرٌ عنده فخنقته العبرة ، فالتفت اليه المنصور وقال : أتعرف رأس من هذا ؟ فقال : نعم :

فتى كان تحميه من الضيم نفسه وينجيه من دار الهوان اجتنابها

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٦٢ والكامل لابن الاثير ج ٥ ص ٢١٢

فقال المنصور : صدقت ولكن أراد رأسي فكان رأسه أهون علي .

ولم يكتف المنصور بهذه المأساة المفجعة ولا التي سبقتها بل راح يجد لاكمال فصولها ، فأتى على من بقي من ذوي الخطر من السجناء فنكل بهم أشد تنكيل فأماتهم موتة تقشعر لها الأبدان . وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه ج ٣ ص ١٠٦ : أن عبدالله وجماعته من بني الحسن وُجدوا مسمرين في الحيطان . وذكر ابن الأثير : أنه سقاهم السم وذلك بعدما انتهى من أمر محمد وابراهيم - فماتوا ثم هدم عليهم السجن . ولم ينج منهم غير سليمان وعبدالله ابنا داود بن الحسن بن الحسن بن علي عليه السلام ، واسحاق واسماعيل ابنا ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي .

وقد دفن ابراهيم في « باخمرى » كما يقول ياقوت في معجمه : أن قبره بها يزار إلى عهده ويقول أيضاً وهو الذي عناه دعبل بقوله :

وقبر بارض الجوزجان محله	وقبر (بباخمرى) لدى الغربات

ويرى بعض المؤرخين المتأخرين في قبره أنه في «المذار» بقرب الحلة السيفية .
واما قبر والده فهو في الهاشمية من نواحي المذار وليس هو كما يقال عنه أنه بالقايم من ناحية الشنافية فذلك قبر عبدالله بن الحسن المكفوف بن الحسن الأفطس بن علي الأصغر بن الامام زين العابدين (ع) .

وبالنظر لما يتمتع به ابراهيم من الخصال الحميدة والمكانة السامية فقد انبرى إلى رثائه جماعة من الشعراء في ذلك القرن آثرنا ذكر بعض الشيء مما رثي به فمن ذلك قول غالب بن عثمان الهمداني :

وقتيل باخمرى الذي	نادى فأسمع كل شاهد
قاد الجنود إلى الجنو	د تزحف الأسد الحوارد (١)
بالمرهفات وبالقنا	والمبرقات وبالرواعد

(١) الأسد الحوارد : الغواضب

فدعا لدين محمـــد ودعوا إلى دين ابن صايد(١)
فرماهم بلبـان ابـــ لق سابق للخيل سائد
بالسيف يفـري مصلتاً هاماتهم بأشد ساعــد
فأتيـح سهم قاصد لفؤاده بيمين جاحــد
فهوى صريعاً للجبيـ ن وليس مخلوق بخالد
وتبــددت أنصــاره ونوى بأكرم دار واحد
نفسي فداؤك من صريـ ع غـير ممهود الوسائد
وفدتك نفسي من غريـ ب الدار في القوم الأباعد
أي امرىء ظفـرت به أبناء آبناء الولائد (٢)
فأولئك الشهداء والصـ بر الكرام لدى الشدائد
ونجـار يثرب والأبا طح حيث معتلج العقائد
أقوت منازل ذي طوى فبطاح مكة فالمشاهـد
والخيف منهـم فالجما ر بموقف الظعن الرواشد
فحياض زمزم فالمقا م فصـادر عنها ووارد
فسويقتان فينبــع فبقيـع يثرب ذي اللحائد
أمست بلاقع من بني الـ حسن بن فاطمة الأراشد

* * *

وقال غالب أيضاً :

كيف بعد المهدي أو بعد ابرا هيم نومى على الفراش الوثير
وهم الذائدون عن حرم الا سلام والجابرون عظم الكسير
حاكموهم لما تولوا إلى الله لمصقولة الشفار الذكور

(١) ابن الصائد الذى كان يظن أنه الدجال
(٢) الولائد : جمع وليدة وهى الأمة

وأشاحوا للموت محتبس الأنـ ... فس لله ذي الجلال الكبير
افردوني أمشي بأعضب مجبو ... بأ سناني والحرب ذات زفير
غيل فيها فوارسي ورجالي ... بعد عز وذل فيها نصيري
ليتني كنت قبل وقعة باخمـ ... رى توفيت عدتي من شهوري
وليالي من سني البواقي ... وتكملت عدة التعميـر
كنت فيمن ثوى ثويت تعود الط ... ـير لحمي مبين التعفير
ومجال الخيلين منا ومنهم ... وأكف تطير كل مطير
قول مستبسل يرى المـوت فى الله رباحاً رئبال غاب عقير (١)
قد تلبثت بالمقادير عنهم ... ملبث الرائحين عن ذي البكور
إذ هم يمترون فى حلق الأو ... داج حولي فى قسطل مستدير

* * *

- ١٧ -

الثورة من الوجهة النقدية

وختاماً لحياة هذين البطلين يجب علينا أن نستعرض العوامل الأساسية التي أدت الى الاخفاق في ثورتيهما لدفع مزاعم بعض المؤرخين المتأخرين الذين ينظرون إلى القضايا التاريخية بمنظار واحد ومن اولئك الاستاذ « بروكلمان » (٢) الذي حكم على محمد ذي النفس الزكية بعدم العزيمة والحنكة السياسية وها نحن نثبت ما بدا لنا من الأسباب التي أدت إلى ذلك و نلخصها فيما يلي :

أولا – تحرج محمد الديني من الوقيعة بخصمه مها واتته الفرصة الى ذلك لايمانه الشديد بمثالية الدعوة التي يرى فيها أنها لا تحتاج الى مقابلة عدوه بنوع من

(١) الرئبال : هو الأسد ، وقيل : الذئب

(٢) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٦

المكيدة أو الاغتيال . بل كل ما كان يراه هو بث الدعوة وانتشارها وهي تكون الفيصل بينه وبين خصمه .

ثانياً - مهارة خصمه في أساليبه التي اتخذها عن طريق الجواسيس الذين يظهرون له بأنهم من شيعته، ويحملون معهم اليه الكتب والمال على السنة جماعة يعرفهم او لا يعرفهم ولكنهم من بلد يعرف أن له به شيعة وافضاؤه بأسراره اليهم وتحديد موعد خروجه لهم الأمر الذي دعا المنصور وهو في عاصمة ملكه بأن يعين الجهات التي يتنقل فيها محمد إلى واليه وإلزامه بمطاردته . فاصبح من جراء هذا أمام أمر واقع . فاما أن يقوم بالثورة وإن سبقت وقتها ومهما كلفته عاقبتها من ثمن . أو الاستسلام لخصمه وهذا في رأيه ضرب من المحال .

ثالثاً - اتخاذه المدينة مركزاً حربياً ، والمدينة كما وصفها المسعودي « بلد ليس به زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة » كما أن مركزه الحربي لم يكن مركزاً طبيعياً للقتال ، فلو حوصرت المدينة لما وصلت اليها الميرة ولمات أهلها جوعاً وعطشاً .

رابعاً - فقدان الانسجام بين أصحابه واعتداد كل فريق منهم برأيه ، ينبئنا عن ذلك حالتهم عند مشورته لهم فى كيفية القتال وما كان فيها من الاختلاف فى الرأي بينهم .

خامساً - افتقاره إلى ذوي النفوذ والحنكة والتدبير من القادة ليتولوا أمر جيشه .

سادساً - أماني المنصور الخلابة لمن يتخلى عن جيش محمد وإرسال الرسائل والدراهم اليهم فى الوقت نفسه .

سابعاً - ولعل هذا من أقوى الأسباب التي أدت إلى اخفاق ثورة محمد فى المدينة وهو عدم تنفيذ الخطة التي رسمها كل من محمد وابراهيم ، وكانت تقضي بأن يخرجا فى وقت واحد . ويرجع ذلك إلى تأخر خروج ابراهيم لمرضه أو بسبب تعجيل محمد للحرب كما أشرنا إلى ذلك فى السبب الثاني .

اما ثورة ابراهيم فانها كادت أن تنجح حتى أن المنصور لما وصل اليه خبر انهزام عسكره وهو يومئذ بالكوفة اضطرب اضطراباً شديداً وهيأ نجائبه ليهرب إلى الري وجعل يقول : اين قول صادقهم؟ - يعني به جعفر بن محمد (ع) - أين لعب الغلمان والصبيان؟ واشتد قلقه وأخذ يتمثل :

ونصبت نفسي للرماح دريئة ان الرئيس لمثل ذاك فعول

لولا ما مني به أصحاب ابراهيم من تلك الهزيمة النكراء « والذي يلاحظ أن كثيراً من أصحابه لا بصر لهم بفنون الحرب ولكنهم شجعان . وقد وقعوا في هفوات حربية اليها مرد ظفر الجيش العباسي في « باخمرى » ، وعلى كل حال كانت ثورة ابراهيم في العراق أخطر من ثورة أخيه في المدينة ، وبين الثورتين فروق أخصها أن ثورة ابراهيم الحقت بالدولة العباسية خسائر كبيرة في الأموال والأرواح وهي أضعاف ما الحقته ثورة أخيه وكانت وقعة باخمرى قريبة من الكوفة وفيها سرير المنصور » (١)

---

(١) مؤرخ العراق ابن الفوطي ص ١١٠ وتاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ١٢٢ ط الثالثة .

الحسين بن علي

شهيد فخ ١٦٩ هـ

« لم يكن لنا بعد الطف مصرع
أعظم من فخ »
(الامام الجواد عليه السلام)

- ١ -

ضرب الحسنيون في حياتهم أحسن الأمثلة للناس فى التمسك بالمبدأ والثبات على العقيدة ، كما علموهم الطرق الواضحة لاقرار الحرية والاخاء والمساواة التي جاء بها الدين الاسلامي للقضاء على العناصر التي لا هم لها سوى استعباد الضعفاء والتنعم بنتاج أتعابهم عن طريق النطع والسيف إذا هم رفضوا ذلك .

ولقد كانت حركات الحسنيين العديدة امتداداً لتلك الثورات التي سبقتها كثورة الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام ، وثورة زيد بن علي (ع) التي قاومت الظلم والطغيان بتلك التضحيات الجسيمة .

وشاء التاريخ بأن يعزز صفحته بذكر بطل من اولئك الأبطال الناهضين ، ويضيفه إلى قائمة الأفذاذ من الحسنيين ألا وهو الحسين بن علي صاحب فخ فى عصر قد عبد السلطان فيه على حقوق البائسين فذهب في غيه إلى الاسراف فى الملذات والاغراق في مجالس الشرب ورقص الحسان ، واحياء الليالي الحمر ذاك هو الخليفة العباسي الذي يقول عنه الجاحظ فى كتابه التاج صفحة ٣٥ « كان الهادي شكس الأخلاق ، صعب المرام ، قليل الاغضاء ، سيء الظن ، قل من توقاه وعرف أخلاقه إلا أغناه ، وماكان شيء ابغض اليه من ابتدائه بسؤال ، وكان يأمر للمغني بالمال الخطير الجزيل » . ويقول الذهبي : وكان يتناول المسكر ، ويلعب » (١) وطبعي أن من تكون مهمته هذه لا يرى لأي مخلوق ضعيف أثراً عنده ، فلذلك تعالت الصيحات وكثرت الحسرات ، وأخذ الناس يتطلعون إلى آل علي «ع» لما عرفوه عنهم من النضال المجيد في سبيل حفظ مقدرات الدين والتفاني في اقرار حقوق المخلوقين .

ولم يكن هناك رجل قد أهل نفسه للقيام بهذا العبء الثقيل غير الحسين بن علي

---

(١) تاريخ الخلفاء الراشدين للسيوطى ص ٢٧٩ ط أولى سنة ١٩٥٢ م

أبن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب «ع» (١) . لما كان يتمتع بـه من الصفات السامية والأخلاق الفاضلة والعلم الواسع ، ويرجع السبب في اشتهاره بهذه المميزات إلى تلك التربية الفاضلة التي حصل عليها في طفولته ، حيث أنه قد نشأ في بيت العلم والتقى والشجاعة والزهادة في المغريات ، حتى انه كان يقال لأبيه وأمه « الزوج الصالح » لعبادتها . ولقد اشتهرت أمه بالعزوف عن بهارج هذه الحياة . فكانت تلبس المسوح ولا تجعل بين جسدها وبينها شعاراً حتى لحقت بالله .

ولاشك بأن الأم هي المدرسة التي يتأثر بها الانسان فيستمد منها مزاياه وصفاته فكان مما تأثر به صاحبنا إلى الناحية العاطفية اقرب منه إلى شيء آخر لما كان يرى عليه أمه من الوجد والحزن على فقد أبيها وأخويها الذين قتلهم المنصور وقد الهبت حالتها هذه فيه حماساً للعمل ضد ذلك الحكم الجائر الذي أراق دماء أهله وذويه .

ولقد كانت أمه زينب بنت عبدالله المحض تتنبأ له بأن سيكون عظيما من العظماء وانه سيصدق آمالها بالاطاحة لدولة أولئك المستبدين منذ الطفولة ، فكانت ترقصه وتقول :

تعلم يا ابن زينب وهند ... كم لك بالبطحاء من معد

(١) الحدائق الوردية لمؤلفه حميد بن أحمد الشهيد ج ١ ص ١٩٦ مخطوطة في مكتبة المرحوم الامام كاشف الغطاء برقم ١٣٢ وتنقيح المقال ج ٢ ص ٣٣٧ والمقاتل ط مصر ص ٣٣٦ - ٤٤٣ والطبري ط دار الاستقامة ج ٦ ص ٤١٠ وتاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ٥ - ٦ وكتاب الأعلام بأعلام بيت الله الحرام للقطبي الحنفي المتوفى سنة ٩٨٨ ص ١٨٧ واتعاظ الحنفا للمقريزي ص ٩ والكامل لابن الأثير ج ٦ ص٣٦ - ٣٨ ومروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٧ والدولة العباسية للخضري ص ٩٧ - ٩٩ وعمدة الطالب ص١٧٢ والفخري ص ١٦٦ - ١٦٧ ط الثانية وتاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ١٢٢ - ١٢٣ ومؤرخ العراق ابن الفوطي ص ١١٩ والبيان المغرب ج ١ ص ١٠٠ و ١٠١ والجداول المرضية في تاريخ الدول الاسلامية لزيني دحلان ص ١٣٦ ط بمبي وشذرات الذهب ج ١ ص ٢٦٩

ولم يكن منه إلا تصديق تلك الأحاسيس فراح يذيب شخصيته للحوق بآثار اولئك الميامين من أجداده وبرز بروزاً ليس له نظير وصار مثلا للآخرين فى محاسن الأعمال وجليل الأفعال حتى عده بعض المؤرخين من أسخياء بني هاشم وأجوادهم وروى له أبوالفرج قصصاً كثيرة في الكرم نقتصر على ذكر البعض منها :

يقول أبو الفرج بسنده إلى الحسن بن هذيل أنه قال : بعت لحسين بن علي صاحب فخ حائطاً باربعين الف دينار ، فنثرها على بابه ، فما دخل إلى أهله منها حبة ، كان يعطيني كفاً كفاً فأذهب إلى فقراء أهل المدينة .

ويقول أيضاً : قال لي الحسين صاحب فخ : اقترض لي أربعة آلاف درهم ، فذهبت إلى صديق لي فأعطانى الفين وقال لي : إذا كان غد فتعال حتى أعطيك الفين ، فجئت فوضعتها تحت حصير كان يصلي عليه ، فلما كان من الغد أخذت الالفين الأخريين ثم جئت أطلب الذي وضعته تحت الحصير فلم أجده ، فقلت له : يابن رسول الله ما فعل الألفان ؟ قال : لا تسأل عنها ، فأعدت فقال : تبعني رجل أصفر من أهل المدينة فقلت : ألك حاجة ؟ فقال : لا ولكني أحببت أن أصل جناحك فأعطيته إياها ، أما أنى أحسبنى ما أجرت على ذلك لأنى لم أجد لها حباً وقال عز وجل : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »

وبسنده أيضاً الى حمدون الفرا أنه قال: ركب الحسين بن علي صاحب فخ دين كثير فقال لغرمائه: الحقوني إلى باب المهدي، وخرج فجاء إلى باب المهدي فقال لآذنه : قل له : ابن عمك الينبعي على الباب ، قال : وكان راكباً على جمل ، فقال له ويلك ، ادخله على جمله ، فأدخله حتى أناخه في وسط الدار ، فوثب المهدي فسلم عليه وعانقه وأجلسه إلى جنبه ، وجعل يسأله عن أهله ، ثم قال : يابن عم ، ما جاء بك ؟ قال : ما جئت وورائى أحد يعطيني درهما ، قال : أفلا كتبت الينا ، قال : أحببت أن أحدث بك عهداً ، فدعا المهدي ببدرة دنانير ، وبدرة دراهم وتخت من ثياب حتى

دعا له بعشر بدر دنانير وعشر بدر دراهم وعشر تخوت فدفعها اليه ، وخرج فطرح ذلك في دار ببغداد وجاء غرماءه فكان يقول للواحد : كم لك علينا ؟ فيقول : كذا وكذا ، فيزن له ، ثم يدخل يده في تلك الدراهم والدنانير فيقول : هذا صلة منا لك ، فلم يزل حتى لم يبق من ذلك المال إلا شيء يسير ، ثم انحدر إلى الكوفة يريد المدينة فنزل قصر ابن هبيرة في خان ، فقيل لصاحب الخان هـذا رجل من ولد رسول الله (ص) فأخذ سمكا فشواه وجاء ومعه رقاق وقال له : لم أعرفك يابن رسول الله ، فقال لغلامه : كم بقي معك من ذلك المال ؟ قال : شيء يسير والطريق بعيد قال : ادفعه اليه ، فدفعه اليه .

* * *

- ٢ -

ما جاء عن النبي (ص) والأئمة (ع) فيه

للحسين من سمو المكانة وعلو الدرجة مقاماً كبيراً جداً عند ذوي العصمة من الأئمة عليهم السلام ويرجـع ذلك فيما أراه إلى ما أثر عن النبي (ص) فى شأنه .

يقول أبو الفرج : حـدثني علي بن ابراهيم بن محمد بن الحسن بن محمد بن عبيدالله بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) ، وأحمد بن محمد بن سعيد ، قالا : حدثنا الحسين بن الحكم ، قال : حدثنا الحسن بن الحسن ، قال : حدثنا الحكم بن جامع الثمالي عن الحسين بن زيد ، قال : حدثتني أمي ريطة بنت عبدالله بن محمد بن الحنفية عن زيد ، قال : وكان الحسين بن زيد يسميها أمى ولم تكن أمه ، بل إنما كانت أم أخيه يحي بن زيد ، عن زيد بن علي قال :

انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى موضع فخ فصلى بأصحابه صـلاة الجنازة ثم قال (ص) : يقتل ههنا رجل من أهل بيتي فى عصابة من المؤمنين ينزل لهم بأكفان وحنوط من الجنة ، تسبق أرواحهم أجسادهم إلى الجنة . وذكر من

فضلهم أشياء لم تحفظها ريطة (١)

ويقول أبوالفرج أيضاً : أخبرني علي بن العباس قال : حدثني علي بن ابراهيم قال : حدثنا محمد بن ابراهيم المقري ، قال : حدثنا الحسن بن علي الأسدي ، قال: حدثنا ابن عبدالواحد ، قال: حدثني عبدالرحمن بن القاسم بن اسماعيل ، قال :حدثنا الحسين بن المفضل العطار ، قال : حدثنا محمد بن فضيل عن محمد بن اسحاق ، عن أبي جعفر محمد بن علي (ع) قال :

مر النبي صلى الله عليه وآله بفخ فصلى ركعة ، فلما صلى الثانية بكى وهو في الصلاة ، فلما رأى الناس النبي يبكي بكوا ، فلما انصرف قال : مايبكيكم ؟ قالوا : لما رأيناك تبكي بكينا يارسول الله، قال (ص): نزل علي جبرئيل لما صليت الركعة الأولى فقال : يامحمد إن رجلا من ولدك يقتل في هذا المكان وأجر الشهيد معه أجر شهدين

ويتحدث أيضاً أبو الفرج بسنده عن النضر بن قرواش أنه قال : اكريت جعفر بن محمد الصادق (ع) من المدينة إلى مكة ، فلما ارتحلنا من بطن مرّ ، قال يانضر إذا انتهيت الى فخ فاعلمني ، قلت : أولست تعرفه ؟ قال : بلى ولكن أخشى أن تغلبني عيني . فلما انتهينا إلى فخ دنوت من المحمل ، فاذا هو نائم فتنحنحت فلم ينتبه ، فحركت المحمل فجلس . فقلت : قد بلغنا فخ . فقال : حل محملي . فحللته ثم قال : صل القطار فوصلته ثم تنحيت به عن الجادة . فأنخت بعيره فقال ناولني الأداوة والركوة . فتوضأ وصلى وركب فقلت له : جعلت فداك قد صنعت شيئاً أفهو من مناسك الحج ؟ قال ! لا ولكن يقتل ههنا رجل من أهل بيتي في عصابة تسبق ارواحهم اجسادهم إلى الجنة .

* * *

---

(١) المقاتل ص ٤٣٦

- ٣ -

ثورته

يرى المؤرخون في أسباب ثورته أنها كانت نتيجة لضغط والي المدينة ـ عمر ابن عبدالعزيز بن عبدالله بن عبدالله بن عمر بن الخطاب ـ على الحسنيين وتحديه اياهم بما كان يفرضه عليهم من الحضور عنده كل يوم للعرض. حذراً لما يتوقعه منهم عند غيابهم عن المدينة.

ولقد بذل الحسين بن علي جهده لايجاد التفاهم الايجابي بينهم وبين ذلك الوالي فلم يحض منه برد حسن .

يقول أبو الفرج : وكان سبب خروج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع) أن موسى الهادي ولى المدينة أسحاق بن عيسى ابن علي ، فاستخلف عليها رجلا من ولد عمر بن الخطاب يعرف بعمر بن عبدالعزيز بن عبدالله ، فحمل على الطالبيين وأساء اليهم ، وأفرط في التحامل عليهم ، وطالبهم بالعرض كل يوم ، وكانوا يعرضون في المقصورة ، وأخذ كل واحد منهم بكفالة قرينه ونسيبه فضمن الحسين بن علي ويحيى بن عبدالله بن الحسن ، الحسن بن محمد بن ابن عبدالله بن الحسن ، ووافى أوائل الحاج ، وقدم من الشيعة نحو من سبعين رجلا ، فنزلوا دار ابن افلح بالبقيع وأقاموا بها ولقوا حسيناً وغيره ، فبلغ ذلك العمري فأنكره ، وكان قد أخذ قبل ذلك الحسن بن محمد بن عبدالله ، وابن جندب الهذلي الشاعر ، ومولى لعمر بن الخطاب وهم مجتمعون ، فأشاع أنه وجدهم على شراب فضرب الحسن ثمانين سوطاً ، وضرب ابن جندب خمسة عشر سوطاً وضرب مولى عمر سبعة أسواط وأمر أن يدار بهم في المدينة مكشفي الرؤوس ليفضحهم .

وإنه لم يعمل ذلك إلا لأجل أن يظهر الحسن بن محمد بمظهر يكون مبرراً له في التنكيل به وبالآخرين من الحسنيين الذين أقض أثرهم الطيب في المدينة وعامة البلاد الأسلامية مضجعه ، فذهب إلى خلق الاتهامات لهم لنفس هذا السبب

لا غير . ولم يكن من الحسين بن علي إلا أن جاء إلى الوالي فقال له : قد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لأن أهل العراق لا يرون بالنبيذ بأساً ، فلم تطوف بهم ؟ فأمر فردوا وحبسهم(١) . وجوبه ذلك الوالي بالردود الشديدة لارتكابه تلك الفعلة الفظيعة التي يأبى التصديق بها حتى أبناء الشارع يومذاك فمن تلك الردود هو رد الامرأة الهاشمية صاحب الراية السوداء في أيام محمد بن عبدالله بعثت اليه قائلة : لاو كرامة لك لاتشهر احداً من بني هاشم وتشنع عليهم وأنت ظالم، فكف عن ذلك وخلى سبيلهم

ولم يكتف الوالي الغاشم بمثل هـــذه الأساليب النابية حتى سلك مسلكا آخر وهو الرقابة الشديدة التي فرضها على الحسنيين وقد ولى أمرها إلى رجـل يعرف بأبي بكر بن عيسى الحائك مولى الأنصار . وهـــذا يقوم بدوره في عرضهم كل يوم ويراقب المتغيبين منهم . فعرضهم يوم جمعة فلم يأذن لهم بالانصراف حتى بـدأ أوائل الناس يجيئون إلى المسجد . فلما صلوا حبسهم في المقصورة إلى العصر . ثم عرضهم فدعا باسم الحسن بن محمد فلم يحضر . فقال ليحيي والحسين بن علي : لتأتياني به أو لاحبسنكما فان له ثلاثة أيام لم يحضر العرض ولقد خرج أو تغيب . فـــراده بعض المرادة وشتمه يحيى . وخرج ، فمضى ابن الحائك هذا ودخل على العمـــري فأخبره فدعا بهما فوبخهما وتهددهما فتضاحك الحسين في وجهه وقال : أنت مغضب ياأبا حفص ؟

فقال له العمري : أتهزأ بي وتخاطبني بكنيتي ؟

فقال له : قد كان أبو بكر وعمر وهما خير منك يخاطبان بالكنى فلا ينكران ذلك وأنت تكره الكنية وتريد المخاطبة بالولاية . فقال له : آخر قولك شر من أوله . فقال: معاذ الله يأبى الله لي ذلك ومن أنا منه. فقال له : أفانما ادخلتك إلي لتفاخرني وتؤذيني ؟ فغضب يحيى بن عبدالله فقال له : فما تريد منا ؟ فقال : أريد أن

---

(١) المقاتل ص ٤٤٣ ط مصر وأعيان الشيعة ج ٢٦ ص ٤١٠ والطبرى ج ٦ ص ٤١٠

تأتياني بالحسن بن محمد . فقال : لا نقدر عليه ، هو في بعض ما يكون فيه الناس ، فابعث إلى آل عمر بن الخطاب فاجمعهم كما جمعتنا ، ثم اعرضهم رجلا رجلا ، فان لم تجد فيهم من قد غاب أكثر من غيبة الحسن عنك فقد انصفتنا ، فحلف على الحسين بطلاق امرأته وحرية مماليكه أنه لا يخلي عنه أو يجيئه به في باقي يومه وليلته ، وأنه إن لم يجيء به ليركبن إلى سويقة فيخربها ويحرقها وليضربن الحسين الف سوط وحلف بهذه اليمين إن وقعت عينه على الحسن بن محمد ليقتلنه من ساعته .

فوثب يحيى مغضباً فقال له : أنا أعطي الله عهداً ، وكل مملوك لي حر إن ذقت الليلة نوماً حتى آتيك بالحسن بن محمد أو لا أجده ، فأضرب عليك بابك حتى تعلم أن قد جئتك . وخرجا من عنده وهما مغضبان وهو مغضب ، فقال الحسين ليحيى ابن عبدالله ، بئس لعمر الله ما صنعت حين تحلف لتأتينه به واين تجـد حسناً ؟ قال : لم أرد أن آتيه بالحسن والله ، وإلا فانا نفي من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن علي عليه السلام بل أردت إن دخل عيني نوم حتى أضرب عليه بابه ومعي السيف ، إن قدرت عليه قتلته . فقال بئسما تصنع تكسر علينا أمرنا . فقال له يحيى : وكيف أكسر عليك أمرك ؟ وإنما بيني وبين ذلك عشرة أيام حتى تسير إلى مكة .

ومن هذا يتضح لنا انهما كانا قد مهدا لثورتهما من زمن ليس بالقليل كما يتضح لنا أيضاً إن هناك موعداً بينهم وبين أنصارهم . وإن قضية الحسن بن محمـد لم تكن سبباً رئيسياً للثورة . نعم كانت سبباً لاعلانها والتصريح بها جهراً .

وعلى أثر هذا فقد وجه الحسين بن علي إلى الحسن بن محمد رجلا يشعره بما كان لهما مع الوالي ويأمره بالخروج عن المدينة فأتاه الحسن وقال له : لا والله يا ابن عمي ، بل أجيء معك الساعة حتى أضع يدي في يده . فقال له الحسين : ما كان الله ليطلع عليّ وأنا جاء إلى محمـد صلى الله عليه وآله وهو خصمي وحجيجي في دمك . ولـكن أقيك بنفسي لعل الله أن يقيني من النار .

ولما عقد النية على اعلان الثورة أخذ يستشير أهل الرأي والسابقة من أهـل

بيته في أمره : وقد أبان هذا بقوله : « ما خرجنا حتى شاورنا أهل بيتنا وشاورنا موسى بن جعفر (ع) فأمرنا بالخروج » وقد كان جواب الامام موسى بن جعفر عليه السلام له ينبض بروح التذمر والسأم من أوضاع اولئك الحكام الجائرين واليك قوله له : « إنك مقتول فأحد الضراب فان القوم فساق يظهرون إيماناً ويضمرون نفاقاً وشركا فانا لله وانا اليه راجعون . وعند الله عز وجل احتسبكم من عصبة . » وبعد أن حصل على موافقتهم أرسل إلى أهل بيته الذين يشتركون معه في الفكرة فأتاه يحيى وسليمان وادريس بنو عبدالله المحض بن الحسن المثنى وعبدالله بن الحسن الأفطس وابراهيم بن اسماعيل طباطبا وعمر بن الحسن بن علي بن الحسن وعبدالله بن اسحاق بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن وعبدالله بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) . ووجهوا إلى فتيان من فتيانهم ومواليهم. فاجتمعوا ستة وعشرين رجلامن ولد علي (ع) وعشرة من الحاج . ونفر من الموالي . فلما أذن المؤذن للصبح دخلوا المسجد ثم نادوا : « أحد . أحد » وصعد عبدالله بن الحسن الأفطس المنارة التي عند رأس النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ عند موضع الجنائز فقال للمؤذن : أذن بحي على خير العمل فلما نظر إلى السيف في يده أذن بها وسمعه العمري فأحس بالشر ودهش وصاح : اغلقوا البغلة الباب وأطعموني حبتي ماء ـ يقول علي بن ابراهيم في حديثه : فولده إلى الآن بالمدينة يعرفون ببني حبتي ماء ـ ثم انه اقتحم إلى دار عمر بن الخطاب وخرج في الزقاق المعروف بزقاق عاصم بن عمر . ثم مضى هارباً على وجهه يسعى .

وقام الحسين فصلى بالناس الصبح ودعا بالشهود العدول الذين كان العمري أشهدهم عليه أن يأتي بالحسن اليه ودعى بالحسن وقال للشهود : هذا الحسن قد جئت به فهاتوا العمري وإلا والله خرجت من يميني ومما علي . وبعد ذلك تقدم إلى المنبر وخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس : أنا ابن رسول الله (ص) على منبر رسول الله (ص) وفي حرم

رسول الله ، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وآله- استنقاذاً مما تعملون، أيها الناس: أتطلبون آثار رسول الله في الحجر والعود ، وتتمسحون بذلك ، وتضيعون بضعة منه . » فقام الناس فبايعوه ، وكانت صورة بيعته بهذا الشكل : على كتاب الله وسنة رسول الله (ص) وعلى أن يطاع الله ولا يعصى وأدعوكم إلى الرضا من آل محمد ، وعلى أن نعمل فيكم بكتاب الله وسنة نبيه والعدل فى الرعية والقسم بالسوية ، وعلى أن تقيموا معنا وتجاهدوا عدونا فان نحن وفينا لكم وفيتم لنا وإن نحن لم نف لكم فلا بيعة لنا عليكم »

وبينما هم فى المسجد وإذا بالبريدي وقيل البربري قد جاء بخيله ورجله - وكان قد أرسله الخليفة بمن معه إلى المدينة ليكون رداءاً للوالي عند الطواريء - وقد كان معه في ذلك الوقت مائتين من الجند ولحق به العمري ومعه ناس كثير ، فلما وصل البريدي إلى باب المسجد وهو الباب الذي يقال له باب جبرئيل قام اليه يحى فضربه بالسيف على جبينه ثم بادره ادريس بن عبدالله بضربة أخرى كان فيها حتفه فقتل ، وتقدما إلى قائد آخر فقتلاه ، ثم اختلط الفريقان فهزم أصحاب الحسين أصحاب العمري واستمروا خلفهم يضربونهم حتى جاؤا إلى بيت المال فوجدوا فيه بضعة عشر الف دينار . ويذكر الطبري : أن مبارك التركي كان قد أتى في ذلك العام إلى الحج فبدأ بالمدينة وكان قائداً من قواد الدولة العباسية وقد أوكل اليه أمر الحراسة والمراقبة فى الموسم فبلغه أمر الحسين فبعث اليه من الليل : إني والله ما أحب أن تبتلى بي ولا أبتلى بك ، والله لئن أسقط من السماء فتخطفني الطير ، أو تهوي بي الريح فى مكان سحيق أيسر علي من أن أشوكك بشوكة ، أو أقطع من رأسك شعرة ولكن لا بد من الاعذار فبيتني فانى منهزم عنك ، فأعطاه بذلك عهدالله وميثاقه » فاقتنع الحسين بذلك ، ووجه عشرة من أصحابه فجمجموا بمبارك وصيحوا فى نواحي عسكره فطلب دليلا يأخذ به غير الطريق فوجده فمضى به حتى انتهى إلى مكة (١)

(١) يقول ابن الأثير فى المجلد ٦ ص ٣٣. ومن أجل ذلك غضب الهادى على -

وخلصت المدينة إلى الحسين فأخذ يتجهز فى تلك المدة ، وكان كل ما بقى فيها أحد عشر يوماً ثم خرج إلى مكة لست بقين من ذي القعدة . يقول ابن الأثير : وبلغ خبرهم الهادي وكان جماعة من أهل بيته قد حجوا في تلك السنة منهم سليمان ابن المنصور ومحمد بن سليمان بن علي والعباس بن محمد بن علي وموسى واسماعيل ابنا عيسى بن موسى . فولى الهادي محمد بن سليمان على الحرب وعسكر بذي طوى وكان عدد من معه أربعة آلاف فارس .

يقول المسعودي : إن موسى بن عيسى دعا جمالا فجاءه بمائة جمل ذكر فختم أعناقها وقال : لا افقد منها وبرة إلا ضربت عنقك ثم تهيأ المسير إلى الحسين فسار حتى أتى بستان بني عامر فنزل وأرسل من ينظر له عسكر الحسين فرجع الرسول وقال له : ما رأيت خللا ولا فللا ولا رأيت إلا مصلياً أو مبتهلا أو ناظراً في مصحف او معداً للسلاح . فقال هم والله أكرم خلق الله وأحق بما في أيدينا منا ولكن الملك عقيم . ثم سار اليهم . والتقت الجيوش (بفخ) فأمر موسى بن عيسى بالتعبئة فصار محمد بن سليمان فى الميمنة وموسى فى الميسرة وسليمان بن المنصور والعباس بن محمد في القلب . والتقوا في يوم التروية الثامن من ذي الحجة الحرام وقت صلاة الصبح . وكان أول من بدأهم موسى فحملوا عليه فاستطرد لهم شيئاً حتى انحدروا فى الوادي وحمل عليهم محمد بن سليمان من خلفهم فقتل أكثر أصحاب الحسين . وجعلت المسودة تصيح : ياحسين لك الأمان فيقول : ما أريد الأمان ويحمل عليهم . يقول ابن الأثير : وكان ممن حضر وقعة فخ حماد التركى فقال : أروني حسيناً فأروه إياه فرماه بسهم فقتله وقتل معه سليمان بن عبدالله بن الحسن وعبدالله ابن إسحاق بن ابراهيم بن الحسن . وأخذت رؤوس القتلى فكانت مائة رأس ونيفاً . وانهزم من سلم من أصحاب الحسين واختلطوا بالحاج وكان من جملتهم أدريس بن عبدالله بن الحسن .

ـمبارك التركى فأخذ أمواله، وجعله سائس الدواب. فبقى على ذلك حتى توفى الهادى.

يقول أبو الفرج : ولما بلغ العمري والي المدينة وهو مختبيء فيها خبر قتل الحسين بن علي عمد على دار الحسين ودور جماعة من أهل بيته وغيرهم ممن خرج مع الحسين فهدمها وحرق النخيل وقبض أموالهم وجعلها في الصوافي المقبوضة. ويقول أبو الفرج أيضاً : « جاء الجند بالرؤوس إلى موسى والعباس وعندهم جماعة من ولد الحسن والحسين فلم يتكلم أحد منهم بشيء إلا موسى بن جعفر (ع) فقال له : هذا رأس الحسين ؟ قال: نعم إنا لله وإنا اليه راجعون . مضى والله مسلماً صالحاً صوّاماً قوّاماً آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر . ما كان في أهل بيته مثله .

ثم كان لموسى بن عيسى مجلس غير هذا وهو ذلك المجلس الذي أمر الناس فيه بالوقيعة في آل أبي طالب فجعل بعض الناس يفعل ما يؤمر وبعضهم يخرج من المجلس فقال موسى : هل بقي أحد : قيل له : موسى بن عبدالله فدعا به . فأقبل موسى وعليه مدرعة وإزار غليظ ، وفي رجليه نعلان من جلود الابل ، وهو أشعث أغبر حتى قعد مع الناس ولم يسلم عليه ، وإلى جنبه السري بن عبدالله من ولد الحرث ابن العباس بن عبدالمطلب ، فقال لموسى بن عيسى : دعني أكشف عليه باله وأعرفه نفسه ، قال : أخافه عليك . قال : دعني ، فأذن له فقال ياموسى . قال أسمعت فقل . قال : كيف رأيت مصارع البغي الذي لا تدعونه لبني عمكم المنعمين عليكم . فقال موسى أقول في ذلك :

بني عمنا ردوا فضول دمائنا ... ينم ليلكم أو لا يلمنا اللوائم
فانا وإياكم وما كان بيننا ... كذي الدين يقضي دينه وهو راغم

فقال السري : والله ما يزيدكم البغي إلا ذلة ، ولو كنتم مثل بني عمكم سلمتم - يعني موسى بن جعفر (ع) - وكنتم مثله ، فقد عرف حق بني عمه وفضلهم عليه ، فهو لا يطلب ما ليس له فقال موسى :

فان الأُلى تثني عليهم تعيبني ... أولاك بنو عمي وعمهم أبي
فانك إن تمدحهم بمديحة ... تصدق وإن تمدح أباك تكذب

وانتهت تلك الفاجعة المؤلمة ببقاء جسد الحسين بن علي شهيد فخ ثلاثة أيام على وجه الأرض لم يدفن ثم جيء اليه بعد ذلك ودفن بفخ ولم يمض على قبره إلا مدة قصيرة حتى شيد ومرت عليه يد التعمير حتى اتصلت النوبة إلى الشريف قتادة بن ادريس فعمره وبنى عليه قبة وكذلك على الحسن بن محمد وذلك فى سنة ٦٠١هـ، وكان استشهاد الحسين سنة ١٦٩ هج وقد رثي بشيء من الشعر فمن ذلك قول عيسى بن عبدالله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب (ع) الذي يلقب بالمبارك :

فلأبكين على الحسين ... بعولة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة الذي ... أثووه ليس بذي كفن
تركوا بفخ غدوة ... في غير منزلة الوطن
كانوا كراماً فانقضوا ... لا طائشين ولا جبن
غسلوا المذلة عنهم ... غسل الثياب من الدرن
هدي العباد بجدهم ... فلهم على الناس المنن

وقال داود السلمي يرثيه أيضاً :

ياعين ابكي بدمع منك منهتن ... فقد رأيت الذي لاقى بنو حسن
صرعى بفخ تجر الريح فوقهم ... أذيالها وغوادي الدلح المزن
حتى عفت أعظم لو كان شاهدها ... محمد ذب عنها ثم لم تهن
ماذا يقولون والماضون قبلهم ... على العداوة والبغضاء والاحن
ماذا يقولون إن قال النبي لهم : ... ماذا صنعتم بنا في سالف الزمن
لاالناس في مضر حاموا ولا غضبوا ... ولا ربيعة والأحياء من يمن
ياويحهم كيف لم يرعوا لهم حرماً ... وقد رعى الفيل حق البيت ذي الركن

ولعظم أثر هذه المأساة عند الأئمة فقد قال الامام الجواد عليه السلام عنها :
« لم يكن لنا بعد الطف مصرع أعظم من فخ »

مؤسس دولة الادارسة

ادريس بن عبد اللّه

١٧٢ هـ

« إدريس بن عبدالله من شجعان أهل البيت
والله ما ترك فينا مثله »

(الامام الرضا عليه السلام)

وانتهت واقعة (فخ) بتلك المقتلة العظيمة من العلويين ، وقـد ظن رجال السلطة يومذاك أنهم قد قضوا على كل نشاط يقوم ضدهم ، ولكن الأقدار أبت أن تترك لهؤلاء المستبدين الحبل على الغارب ، فضنت بحياة نفر كانت لهم اليد الطولى في ثورة محمد ذي النفس الزكية وثورة الحسين صاحب فخ لغرض اقلاق بال اولئك الظالمين .

نعم لقد ضن القدر بحياة ادريس ويحيى ابني عبدالله ليكونا وقتاً ما قـذى في أعـين رجال السلطة، ولقد كانت نجاتهما من واقعة فخ وخاصة ادريس (١) « عجباً من أعاجيب المقادير » وذلك حينما كان يقاتل في تلك المعركة إذ انتهى اليه خبر مقتل الحسين بن علي صاحب فخ ، فرجع اليه ليقف على حقيقة أمره فوجده كما

(١) من المصادر التي رجعنا اليها في هذه الترجمة هي : الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٣١ والطبري ج ٦ ص ٤١٦ وشذرات الذهب ج ١ ص ٢٦٩ ونفح الطيب ج ٤ ص ٢٥ ط دار المأمون وصبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٠ والذخيرة في محاسن الجزيرة ق ١ ج ١ ص ٧٨ وتاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٢ وتاريخ أبي الفداء ج ٢ ص ١٣ ومروج الذهب ج ٢ ص ١٨٣ - ١٨٤ والاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ج ١ ص ٦٧ وما بعدها والمقاتل ص ٤٨٧ ط مصر والبيان المغرب في أخبار المغرب ج ١ ص ١٠١ - ١٠٢ ط بيروت وعمدة الطالب ص ١٤٦ - ١٤٧ ط النجف واتعاظ الحنفا ص ١١ وتاريخ الدول الاسلامية للصدفي ج ١ ص ٢٢٨ و ٢٢٩ وأعيان الشيعة ج ٢١ ص ٦٢ ودائرة المعارف للبستاني ج ٢ ص ٦٧٢ والجداول المرضية في تاريخ الدول الاسلامية لزيني دحـلان ص ١٣٦ و ١٩٧ وتاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ١٢٥ وتاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ج ٢ ص ٩٨ - ٩٩ وتاريخ الدولة العباسية للخضري ص ١٠٤ ومؤرخ العراق ابن الفوطي ص ١١٨ و ١٢٣ والحدائق الوردية ص ٢١٣ مخطوط في مكتبة الامام كاشف الغطاء برقم ١٣٢ قسم المخطوطات .

قيل فلوى عنق جواده للعودة إلى الميدان وإذا بخصومهم يصيحون فى أعقاب أتباعهم وهو يرى الرؤوس تتطاير فاستدار إلى واد كان هناك فسلك إلى مكة وانخرط فى صفوف الحجاج .

ولذا نرى هارون الرشيد يوجه كل همه للقضاء على الأخوين يحي وادريس منذ توليه الخلافة وذلك في سنة ١٧٠ هـ ويتخوف من وجودهما . لأنه قد طرق سمعه ما كان لهما من أثر في إشعال نار الثورة فى فخ . فاهتم لهما اهتماماً بالغاً ووضع عليهما الرصد والعيون في كل مكان . ولم يكن يخفى عليهما ذلك لما يعرفانه عن الرشيد وسعة ملكه ونفوذ سلطانه . فترجح لهما أن يغادرا أراضي الحجاز كلها ويتغربا عن وطنهما .

ولا شك بأن هذا أمر شاق لا يطيقه إلا من كان في أعلى مراتب العزة والاباء، لأن أصعب شيء يواجهه الانسان فى حياته هو مفارقة وطنه الأصيل والنزوح عنه إلى جهة لا يعرف ماذا تكون نتيجته فيها، وخاصة إذا كانت هناك عقبات تعتور طريقه وتمنعه عن الاجتياز إلى مواطن الأمن، كما هو الحال فيما كان عليه ادريس ويحيي في تلك الفترة وقيامهما فى تلك المغامرات العجيبه التي إن دلت على شيء فانما تدل على روح تواقة إلى الانعتاق من ربقة الظلم والاستبداد وضمير ينبض بالكرامة ويتطلع إلى الحرية . شأنهما في ذلك شأن الأفذاذ من أسلافهما الميامين الذين ضربوا اروع الأمثلة في دنيا الجهاد من أجل المحافظة على الطقوس الدينية المجيدة وصيانة كرامة القائمين بها مهما كلف الأمر .

وإن خشية الحكام من بني العباس من وجود مثل هذه الطبقة المعارضة التي تعدلهم كل أمر يقومون به ضد رغبات الأمة أمر طبعي لا ريب فيه ويحتاج إلى كثير من الاستعداد للقضاء عليها .

وتفكير اولئك المناضلين في التغرب حذراً من الوقوع في أيدي اولئك الذين يطاردونهم أمر لا بد منه .

وخرج ادريس من تلك الديار ومعه مولى له يقال له راشد. وكان لهذا المولى من الفطنة وجودة الرأي ما ساعد ادريس على التخلص من تلك الرقابة . وقد استعمل راشد في سبيل تعمية خبر مولاه مختلف الأساليب حتى بلغ به الحال أنه إذا مر في بعض الجهات التي يحس فيها بالخطر يطلب من ادريس بأن يقوم معه بما يقوم به الغلام لمولاه فيأمره وينهاه تمويهاً على الآخرين ليجتازا إلى غايتهما بسلام .

يقول أبو الفرج : « حتى أقدمه مصر فنزلا ليلا وجلسا على باب رجل من موالي بني العباس ، فسمع كلامهما وعرف الحجازية فيهما ، فقال : أضنكما غريبين؟ قالا : نعم .

قال : وحجازيين ؟

قالا : نعم . ثم التفت اليه راشدفقال : أريد أن التي اليك أمرنا على أن تعاهد الله أنك تعطينا خلة من خلتين ، إما أن آويتنا وأمنتنا وإما سترت علينا أمرنا حتى نخرج من هذا البلد ؟

قال : أفعل فعرفه نفسه وإدريس فآواهما وسترهما ، وتهيأت قافلة إلى افريقية فأخرج معهم راشداً إلى الطريق ، وقال له إن على الطريق مسالح ومعهم أصحاب أخبار تفتش كل من يجوز ، وأخشى أن يعرف، فانا أمضي به على غير الطريق الذي أخرجه عليك بعد مسيرة أيام وهناك تنقطع المسالح ففعل .

- ٢ -

وابتدأالسير على خطوط تلك المغامرات ليعبر البحار ويجتاز الفيافي والقفارحتى إذا قرب من (افريقية) ترك القافلة ومضى مع راشد فدخل بلد البربر « في مواضع منه يقال لها فاس وطنجة » .

ويذكر الاستاذ محمد فريد وجدي في دائرة معارف القرن العشرين : أن ادريس تمكن من الفرار إلى مراكش بمساعدة عامل البريد في مصر وهو واضح

مولى صالح بن منصور فنزل بمدينة « اوليلي » وعليها إذ ذاك الأمير اسحاق بن محمد أمير اوربة من البربر ، فأعظم مقدمه لأنه من ولد علي (ع) وحشد له المغاربة ودعا اليه بعد خلع بيعة بني العباس، وكان ذلك سنة ١٧٢ هجـ فأطاعه الناس لفرط محبتهم لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله » واستعان بمصاهرتهم حيث أنه قد تزوج منهم فأحاطوه بعنايتهم وبذلوا له النصح من أنفسهم، ولما استتب له الأمر في مراكش اتخذ له جيشاً عرمرماً من قبائل زناتة وأوربة وصنهاجة وهوارة ، وأخذ يشن الغارات والحملات على الحصون المجاورة والتي كانت بأيدي النصارى واليهود فأجبرهم على الاسلام لأن معظم أهل تلك الديار كانوا لا يدينون بالاسلام ولا يعرفون من نظمه القويمة وطقوسه الحكيمة شيئاً فبث فيهم الدعاة والمرشدين فاستجابوا لدعوته طائعين . وجرت بينه وبين الأندلسيين وقائع متعددة انتهت بهزيمتهم ، ودان له أهل تلمسان بالطاعة. وانتهى بعساكره إلى (رباط تازا) وذلك بعدما رجع من حركة السوس التي اصبحت تحت سيطرته . فوجد في جبل من الجبال هناك معدن الذهب فساعده ذلك من الناحية المادية في استتباب الأمر له .

وتتلخص دعوته التي كان يهدف اليها في هذا الخطاب الذي أذاعه على الجماهير من أهل تلك البلاد قوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي جعل النصر لمن أطاعه وعاقبة السوء لمن عند عنه ، ولا إله إلا الله المتفرد بالوحدانية الدال على ذلك بما أظهر من عجيب حكمته ولطيف تدبيره الذي لا يدرك إلا باعلامه وتبيانه سبحانه منزه عن ظلم العباد ، وعن السوء والفحشاء . ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه . انتجبه واصطفاه ، واختاره وارتضاه . صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين .

أما بعد فاني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله ، وإلى العدل بالرعية والقسم بالسويه ، ودفع المظالم ، والأخذ بيد المظلوم ، واحياء السنة ، وإماتة

البدعة ، وانفاذ حكم الكتاب والسنة على القريب والبعيد . واذكروا الله في ملوك تجبروا وفي الأمانات خفروا . وعهود الله وميثاقه نقضوا ، ولولد نبيـــه قتلوا . وأذكركم الله في أرامل افتقرت ويتامى ضيعت وحدود عطلت ، وفى دماء بغير حق سفكت ، فقد نبذوا الكتاب والاسلام فلم يبق من الاسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه .

واعلموا عباد الله ان مما أوجب الله على أهل طاعته المجاهدة لأهـــل عداوته ومعصيته باليد واللسان . فباللسان الدعاء إلى الله بالموعظة الحسنة والتذكرة، والحض على طاعة الله ، والتوبة عن الذنوب ، والانابة ، والاقلاع ، والتورع عمـا يكره الله ، والتواصي بالحق ، والصدق والصبر والرحمة والرفق والتناهي عن معاصي الله كلها والتعليم والتقويم لمن استجاب لله ورسوله حتى تنفذ بصائرهم وتكمل نحلتهم وتجتمع كلمتهم وتنتظم الفتهم . فاذا اجتمع منهم من يكون للفساد دافعاً وللظالمــين مقاوماً وعلى البغي والعدوان قاهراً أظهر وادعوتهم وندبوا العباد إلى طاعة ربهم ودفعوا أهل الجور عن ارتكاب ما حرم الله عليهم وحالوا بين أهل المعاصي وبين أهل العمل بها . فان فى معصية الله تلفاً لمن ارتكبها وهلاكا لمن عمل بها ولا يثنيكم من علوا لحق واظهاره قلة أنصاره فان في ما بدى به من وجده النبي والأنبياء الداعين الى الله قبله وتكثيره إياهم بعد القلة واعزازهم بعد الذلة دليل بين وبرهان واضح قال الله عز وجل : « ولقد نصركم الله ببدر وانتم أذلة » وقال : « لينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز » فنصر الله نبيه وكثر جنده واظهر حزبه وانجز وعده جزاء من الله سبحانه وثواباً لفعله وصبره وإيثاره طاعة ربه ورأفته بعباده ورحمته وحسن قيامه بالعدل والقسط فى بريته ومجاهدة أعدائه وزهده فيما زهد فيه ورغبته فيما ندبه اليه ومواساته أصحابه وسعة أخلاقه كما أدبه وأمره وأمر العباد باتباعه وسلوك سبيله والاقتداء بهديه واقتفاء أثره فاذا فعلوا ذلك أنجز لهم ما وعدهم كما قال عز وجل : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » وقال : « وتعاونوا على البر والتقوى

ولا تعاونوا على الأثم والعدوان » وقال : « إن الله يأمر بالعدل والأحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي . » وكما مدحهم وأثنى عليهم إذ يقول : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» وقال عز وجل : « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » وفرض عز وجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واضافه إلى الايمان والاقرار بمعرفته ، وأمر بالجهاد عليه والدعاء اليه . قال عز وجـــل : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولايحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق» وفرض قتال المعاندين عن الحق والباغين عليه ممن آمن به وصدق بكتابه حتى يعود اليه ، ونفى فرض قتال من كفر به وصد عنه حتى يؤمن به ويعترف بدينـــه وشرايعه فقال : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله » فهذا عهد الله اليكم وميثاقه عليكم بالتعاون على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الأثم والعدوان فرضاً واجباً من الله وحكما لازباً . فأين عن الله تذهبون ؟ وأنى تؤفكون وقد خابت الجبابرة في الآفاق شرقاً وغرباً ، وأظهروا الفساد وامتلأت الأرض ظلماً وجوراً ، فليس للناس ملجأ ولا لهم عند أعدائهم حسن رجا ، فعسى أن تكونوا معاشر اخواننا من البربة اليد الحاصدة للجور والظلم ، وأنصار الكتاب والسنة القائمين بحق المظلومين من ذرية النبيين فكونوا عندالله بمنزلة من جاهد مع المرسلين ونصر مع النبيين .

واعلموا معاشر البربة آويتم الملهوف الطريد المظلوم الشريد الخايف الموتور الذي كثر واتره وقل ناصره وقتل أخوته وأبوه وجده وأهلوه ، فاجيبوا داعي الله فقد دعاكم إلى الله قال الله تعالى : « ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ، وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين » اعاذنا الله وإياكم من الضلال ، وهدانا واياكم الى سبيل الرشاد وأنا ادريس بن عبدالله بن الحسن بن

الحسن بن علي بن أبي طالب وصي رسول الله وعلي بن أبي طالب سلام الله عليه جد أبي وحمزة سيد الشهداء عم جدي وجعفر وعقيل عماي وخديجة الصديقـــة وفاطمة ابنة أسد الشفيقة برسول الله جدتاي وفاطمة بنت رسول الله (ص) سيدة نساء العالمين وفاطمة بنت الحسين سيدة بنات ذراري النبيين أماي والحسن والحسين (ع) ابنا رسول الله (ص) أبواي ومحمـد وابراهيم ابنا عبدالله أخواي فهذه دعوتي العادلة غير الجائرة فمن أجابني فله ما لي وعليه ما علي ومن أبي فحظه أخطأ وسيرى ذلك عالم الغيب والشهادة . واني لا أسفك له دماً ولا استحلات له مالا ولا حرماً . واستشهدك يا أكبر الشاهدين »

وعلى أثر هذا الخطاب الجامع فقد استجاب لدعوته كثير من الناس وأوقفوا أنفسهم للدفاع عن بيضة الاسلام هناك . وكان من جملة القائمين في دعوته رجـل يعرف بابن عبدالحميد وقد كان من أبرز رجاله في مدينه (اوليلي) فانه أخذ يجمع أهل تلك المدينة ويقرر لهم فضل ادريس وعلمه واجتماع خصال الخـير فيه فيجيبوا بالسمع والطاعة وكان من جملة أجوبتهم له :

« الحمد لله الذي أكرمنا به وشرفنا بجواره وهو سيدنا ونحن العبيد فما تريدمنا؟ فقال : تبايعونه فبايعوه . ولما قوي أمره وجه همـــه الى النواحي الاصلاحية والعمرانية فعمر المدن وأشاد المساجد .

ولما وصلت أخباره الى الرشيد اهتم له اهتماماً كبيراً وأخذ يفكر في الطريقة التي يمكن التخلص بها من ادريس ، فالجيش لا يقوى على قطع تلك المسافة ولا يستطيع من ملاقاة ادريس وهو يتمتع بذلك النفوذ . اذن فلا بد من الكيد والحيلة فشكا ذلك الى أهل الرأي وكان من جملتهم يحيي بن خالد فقال : أنا أكفيك أمره ودعا سليمان بن حرز الجزري وكان من متكلمي الزيدية البترية ومن أولى الرياسة فيهم فرغبه بالمال وعده عن الخليفـــة بكل ما أحب على أن يحتال لادريس حتى يقتله ودفع اليه غالية مسمومة وأخذ معه صاحباً له وخرج يتغلغل في البلدان حتى وصل

الى ادريس فمت اليه بمذهبه وقال: ان السلطان طلبني لما يعلمه من مذهبي فجئتك فأنس به واجتباه ، وكان ذا لسان وعارضة وكان يجلس فى مجلس البربر فيحتج للزيدية ويدعو إلى أهل البيت كما كان يفعل فحسن موقع ذلك من ادريس إلى أن وجد فرصة لادريس فقال له جعلت فداك هذه قارورة غالية حملتها اليك من العراق ليس في هذا البلد من هذا الطيب شيء. فقبلها ادريس وتغلل بها وشمها وانصرف سليمان إلى صاحبه وقد أعد فرسين وخرجا يركضان عليها وسقط ادريس مغشياً عليه من شدة السم فلم يعلم من بقربه ما قصته وبعثوا إلى راشد مولاه فتشاغل به يعالجه وينظر ما قصته ، وأقام ادريس فى غشيته عامة نهاره حتى قضى عشياً وتبين راشد أمر سليمان فخرج في جماعة يطلبه فما لحقه غير راشد وتقطعت خيل الباقين فلما لحقه ضربه ضربات منها على رأسه ووجهه وضربة كتعت أصابع يديه .

وفى رواية أخرى أن الرشيد وجه إلى الشماخ مولى المهدي وكان طبيباً وطلب منه القيام بمهمة سم ادريس فذهب إلى ادريس واظهر له أنه من الشيعة وأنه طبيب فاستوصفه سفوفاً فحمله اليه وجعل فيه سماً فلما استن به ادريس جعل لحم فيه ينتثر وخرج الشماخ هارباً حتى ورد مصر .

ويقول داود بن القاسم الجعفري وقد كان حاضراً قصة ادريس وسمه : والله ما رأيت أشجع منه ولا أحسن وجهاً. وقال فيه الامام الرضا عليه السلام : «ادريس بن عبدالله من شجعان أهل البيت والله ما ترك فينا مثله» وقد عده علماء الأمة من أصحاب الامام الصادق عليه السلام ومن الرواة عنه ، ولما توفي على أثر ذلك السم قام راشد بدفن مولاه ومعه البربر فدفنوه في جبل (زرهون) بقرب فاس .

وقد ذكر له بعض المؤرخين شعراً منه هذه الأبيات :

لو مال صبري بصبر الناس كلهم	لكل في روعتي وضل في جزعي
بان الأحبة فاستبدلت بعدهم	هماً مقيما وشملا غير مجتمع
كأنني حين يجري الهم ذكرهم	على ضميري مجبول على الفزع

تأوى همومى إذا حركت ذكرهم   إلى جوارح جسم دائم الجزع

ولم يترك ادريس خلفه من العقب شيئاً سوى جنين في بطن أمـه فاحتفظ له البربر بالولاية وقام راشدمولاه بالامر حتى ولد الجنين فاذا به غلام فبايعوه بالخلافة سنة ١٧٧ هج وسمي ادريس كاسم أبيه وهو ادريس الأصغر وسنأتي على ترجمته وبقية السلالة الادريسية وماكان لها من أثر على تطور الحالة هناك من الناحية الاجتماعية والعمرانية والعلمية فى مختلف القرون الاسلامية حتى القرن الحاضر في الأجزاء التى تلي هذا الجزء من الكتاب إن شاء الله .

صاحب الديلم

يحيى بن عبد الله

١٧٦هـ

- ١ -

التعريف به (١)

هو أبو الحسن يحي بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط (ع) ابن الامام علي بن أبي طالب (ع) .

أمه : قريبة بنت عبدالله وهو ذبيح بن أبي عبيدة بن عبدالله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبدالعزى بن قصي ، وهي بنت أخ لهند بنت أبي عبيدة أم محمد وابراهيم ابني عبدالله المحض .

حضى بعناية الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، حيث أن قسطاً من تربيته كانت على يده وناهيك بهامن ميزة لاتضاهى لما لها من الأثر الفعال على تكوينه الخلقي وتنمية فعالياته التي عرف بها منذ الطفولة .

ولقد كانت لهذه المرحلة من حياته أكبر الأثر في نفسه فانه كان يحبها ويعتز

---

(١) رجعنا في كتابة هذه الترجمة الى المصادر التالية : الحدائق الوردية ج ١ ص ١٩٧ مخطوط وتاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ٨ ورجال المامقاني ج ٣ ص ١١٨ وتاريخ الطبري ج ٦ ص ٤٥٧ ط دار الاستقامة والمقاتل ص ٤٦٣ - ٤٨٦ ط مصر والفخري ص ١٧٠ - ١٧١ والكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٤١ وعمـــدة الطالب ١٣٩ - ١٤٢ والجداول المرضية في تاريخ الدول الاسلاميـة ص ١٣٧ ط بمبي وتاريخ الخلفاء الراشدين للسيوطي ص ٢٨٧ والوزراء والكتاب للجهشياري ص ٢٤٣ وشرح النهج لابن أبي الحديد ج ٤ ص ٣٥٢ ط مصر ومروج الذهب ج ٣ ص ٢٦١ - ٢٦٢ ط دار الرجاء وتاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ١٢٤ - ١٢٥ وفي قصور الخلفاء العباسيين ص ٢٦ - ٢٧ و ٢٣٩ ومحاضرات في تاريخ الدول الاسلامية للخضري ج ٢ ص ٩٧ و ١٠٣ و ١٢١ وشرح شافية أبي فراس ص ١٩٠- ١٩١ ومؤرخ العراق ابن الفوطي ج ١ ص ١٢٠ والعقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٦ وتاريخ بغداد ج ١٤ ص ١١٠ وما بعدها وتاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١٤٠ ط النجف

بها نلمس ذلك في حديثه حينما يروي رواية عن الامام جعفر بن محمد الصادق (ص) فيقول حدثني حبيبي جعفر بن محمد . وكان يطلق هذه اللفظة إلى جانب اسم الامام لما له من أثر جميل عليه حيث الرعاية الحسنة والعطف المتزايد والحنو الذي ليس له مثيل . ولمزيد ثقة الامام جعفر بن محمد (ع) فيه قد جعله من جملة الذين أوصى اليهم « فكان هو وموسى (ع) يليان تركاته والأصاغر من ولده » .

يقول أبو الفرج : « وكان يحيي حسن المذهب والهدي ، مقدماً في أهل بيته ، بعيداً مما يعاب على مثله » ويقول أيضاً في وصفه : كان قصيراً ادم حسن الوجه والجسم تعرف سلالة الأنبياء في وجهه » . ويقول حميد بن أحمد الشهيد في كتابه الحدائق الوردية ص ١٩٧ : كان يحيي جامعاً بين العلم والعمل قد روى الحديث عن أهله وغيرهم من الرواة ، وكان الذين بايعوه من عيون أهل العلم المشهورين عبد ربه بن علقمة ، ومحمد بن ادريس الشافعي ، ومحمد بن عامر ، ومخول ابن ابراهيم ، والحسن بن الحسين القرني ، وابراهيم بن اسحاق ، وسليمان بن جرير ، وعبدالعزيز بن يحيي الكناني ، وبشر بن المعتمر ، وليث بن اسماعيل ، ومحمد بن أبي نعيم ، ويونس بن ابراهيم ، ويونس البلخي ، وسعيد بن خيثم . وغيرهم من الذين عرفوا مكانته وفضله ووثقوا بدينه وهديه . حتى أن الرشيد لما بلغه أن الشافعي يدعو ليحيي أنفذ اليه من أتى به على حمار مقيداً مكشوف الرأس فأدخل بغداد على تلك الهيئة .

وكان مالك بن أنس يجله ويحترمه ويقدر فضله . يقول اسماعيل بن موسى الفزاري رأيت يحيي بن عبدالله بن الحسن جاء إلى مالك بن أنس بالمدينة فقام له عن مجلسه واجلسه إلى جنبه . ولقد كان لمركزه الاجتماعي أكبر الأثر لتخوف هارون الرشيد منه .

* * *

لقد كان أثر تلك التنكيبات التي مرت في تلك الفـــترة عظيما في نفس يحيى حيث أنه قد شهد معركة المدينة وما انتهت اليه من قتل أخيه ذي النفس الزكية ، ومالاقاه أبوه وعمومته من التعذيب والتنكيل والسم، وماوصل اليه من خبر مأساة أخيه ابراهيم الأمر الذي أقض مضجعه وكون منه شخصية ثورية على السلطة التي استباحت دمائهم واستحلت ممتلكاتهم، فغدا يواصل جهده للقيام بنهضة جبارة يعدها له التاريخ على مر السنين وكان من حسن الاتفاق أن يجد في الحسين بن علي صاحب فخ خير نصير له فيما نوى عليه . وكان من نتيجة ذلك الاتفاق أن تقع واقعة فخ التي مثل فيها العباسيون دور الوحشية في اولئك النفر الذين تمكنوا منهم فلم يراعوا فيهم قربى ولا ذمة .

وكما قلنا ان القدر ظن بحياة يحيى بن عبدالله ليكون يوماً من الأيام مصوراً لجوانب عديدة من حياة الرشيد التي كادت أن تخفى حتى على ذوي اللب من أهل ذلك الزمان لما لتلك الأساليب المغرية التي يظهر بها على هؤلاء وهؤلاء من شأن على تعمية مساوئه على الناس . ففي المجالس العامة تراه يتباكى من خشية لله وعلى دين الله . وفي آخر تجده يتحرق على قتل عباد الله ونهبهم . أما الليالي الحمــر التي كان يحييها مع الغيد الحسان حيث الغناء وضرب العود ورنة الكؤوس فحدث عنهـا عنها ولا حرج .

إن الخطوط الرئيسية لهذه الشخصية كادت تخفى على الكثير من النـاس وكما خفيت على بعض أهل ذلك العصر ، فاطلقوا عليه لفظ أمير المؤمنين أسوة بالخلفـاء الصالحين الراشدين . لو لم تقـع مثل تلك الحوادث التي كشفت لنا عن اعماله الأخرى التي لم يدفعه إلى القيام بها سوى نفسيته . وما سجن الأمام موسى بن جعفر عليه السلام ومطاردته ليحيى إلا دليل ناصع على ذلك وليته اكتفى بسجن الامام ومطاردة يحيى بل راح يفرغ جهده كله إلى القضاء عليهما . ولم يكتف بهذا بل تعدى إلى الانتقام من بعض الصلحاء وذوي الأثر على يد ذلك العبد اللئيم (مسرور

الكبير) وكيل عزرائيل في عاصمة الرشيد .

وليس من شك بأن حالة هارون الرشيد هذه لا تدعو إلى استدامة سير دولة ولكن الفضل كل الفضل يعود إلى اولئك الذين كان جزاؤهم منه جزاء (سنمار) اولئك هم البرامكة ، وقد صرح هو بهذا كما يروي ذلك بختيشوع الطبيب المعروف قال : دخلت على الرشيد يوماً وهو جالس في قصر (الخلد) من مدينة السلام ، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر ، وبينهم وبينه عرض دجلة ، قال : فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول ، وازدحام الناس على باب يحي بن خالد ، فقال : جزى الله يحي بن خالد خيراً ، تصدى للامور وأراحني من الكد ووفر أوقاتي على اللذة .

ومن أراد المزيد فليستنطق شعر أبي نواس فيم وعلى م نظمه . وإن من كانت حالته هذه لحري به أن يحسب لوجود أمثال موسى بن جعفر (ع) ويحيى بن عبدالله حساباً كبيراً لتباين الحالتين حسب منطق الدين . وإن رجحانهما عليه في العالم الخارجي لا شك فيه لمثاليتهما التي يندر أن تحصل في غيرهما فلذا نرى الرشيد يوجه همه كله للقبض على يحي بن عبدالله . ولم يكن في وسع يحيى إلا النزوح إلى أقصى مكان يعرفه هو عله يجد فيه السلامة والراحة إلى أن يرى رأيه في وضعه مع الرشيد .

وقد كان للفضل بن يحي البرمكي أكبر الأثر في تطمين يحي على سلامته وسلامة من معه .

يقول أبو الفرج : «وعلم الفضل بن يحي بمكانه في بعض النواحي فأمره بالانتقال عنه وقصد الديلم ، وكتب له منشوراً لا يتعرض له أحد » وانتقل يحي إلى الديلم فتهافت عليه الناس من كل جانب ومكان يرحبون به ويبايعونه حتى قوي أمره وشاع خبره فبلغ الرشيد فاغتم منه وأخذ يعمل الحيلة للتخلص من وجوده .

ويروي أبو الفرج أيضاً بسنده عن ادريس بن زيد انه قال : عرض رجل

للرشيد فقال : ياأمير المؤمنين نصيحة فقال لهرثمة : اسمع ما يقول . قال : إنها من اسرار الخلافة فأمره أن لا يبرح ، فلما كان في وقت الظهيرة دعا به فقال : أخلني

فالتفت الرشيد إلى ابنيه فقال : انصرفا فانصرفا ، وبقي خاقان والحسن على رأسه ، فنظر الرجل اليهما ، فقال الرشيد : تنحيا عني ففعلا ، ثم أقبل على الرجل فقال : هات ما عندك .

قال : على أن تؤمنني من الأسود والأحمر .

قال : نعم ، واحسن اليك .

قال : كنت في خان من خانات حلوان فاذا أنا بيحي بن عبدالله في دراعة صوف غليظة وكساء صوف أحمر غليظ ، ومعه جماعة ينزلون إذا نزل ويرتحلون إذا رحل ويكونون معه ناحية أخرى ، فيوهمون من رآهم أنهم لا يعرفونه وهم أعوانه مع كل واحد منهم منشور بياض يؤمن به إن عرض له .

فقال له الرشيد : أو تعرف يحي ؟

قال : قديماً وذاك الذي حقق معرفتي بالأمس له .

قال : فصفه لي .

قال : مربوع ، أسمر ، حلو السمرة ، أجلح ، حسن العينين ، عظيم البطن .

قال : هو ذاك . فما سمعته يقول ؟

قال : ما سمعته يقول شيئاً غير آني أتيته ورأيت غلاماً له أعرفه ، لما حضرت صلاته ، فأتاه بثوب غسيل فألقاه فى عنقه ونزع جبته الصوف ليغسلها ، فلما كان بعد الزوال صلى صلاة ظننتها العصر ، أطال فيها فى الاولتين وحذف الأخيرتين .

فقال له الرشيد : لله أبوك ، لجاد ما حفظت ، تلك صلاة العصر وذلك وقتها عند القوم ، أحسن الله جزاءك ، وشكر سعيك فما أنت ؟ وما أصلك ؟

فقال : أنا رجل من أبناء هذه الدولة ، وأصلي مرو ، ومنزلي بمدينة السلام .

فأطرق ملياً ثم قال كيف احتمالك لمكروه مني تمتحن به فى طاعتي ؟

قال : أبلغ في ذلك حيث أحب أمير المؤمنين .

قال : كن بمكانك حتى أرجع ، فقام فدخل في حجرة كانت خلفه فأخرج صرة فيها الف دينار ، فقال : خذ هذه ودعني وما ادبر فيك ، فاخذها الرجل وضم عليها ثوبه ثم قال: ياغلام ، فأجابه مسرور وخاقان والحسين فقال : اصفعوا ابن اللخناء فصفعوه نحو مائة صفعة ، تخفي الرجل بذلك . ولم يعلم أحد بما كان ألقى اليه الرجل وظنوا أنه ينصح بغير ما يحتاج اليه ، لما جرى عليه من المكروه حتى كان من الرشيد ما كان في أمر البرامكة فأظهر ذلك .

- ٣ -

ولقدمني يحي وهو في تلك الديار بالانشقاق بين صفوف أصحابه الذين خرجوا معه وكان من بينهم جماعة من أهل الكوفة ، فيهم ابن الحسين بن صالح بن حي وكان يذهب مذهب الزيدية البترية في تفضيل أبي بكر وعمر في ست سنين من امارتهما ويكفرهما في باقي عمرهما ، ويشرب النبيذ ويمسح على الخفين ، وكان يخالف يحي في أمره ويفسد أصحابه ، كما يذكر ذلك يحي نفسه يقول : أذّن المؤذن وتشاغلت بطهوري ، وأقيمت الصلاة فلم ينتظرني وصلى بأصحابي ، فخرجت فلما رأيته يصلي قمت أصلي ناحية ولم أصل معه ، لعلمي أنه يمسح على الخفين ، فلما صلى قال لأصحابه : علام نقتل أنفسنا مع رجل لا يرى الصلاة معنا ، ونحن عنده في حال من لا يرضى مذهبه ؟ يقول أبو الفرج : وأفعال مثل هذا من الاعتراض .

ولما تواترت أخباره على الرشيد ندب اليه الفضل بن يحي في خمسين الفاً وولاه جرجان وطبرستان والري فمضى اليه بمن معه . وإنما سار الفضل إلى يحي ليرفع عن نفسه ما يتوقعه من الاتهام في أمر يحي . ولما أن وصل إلى مركزه بذل ليحي الأموال الطائلة وعرض عليه الأمان . فأجابه يحي بالقبول ، لما رأى من تفرق أصحابه وسوء رأي بعضهم فيه وكثرة خلافهم عليه . إلا أنه لم يقتنع بتلك

الشروط التي شرطت له ولا الشهود الذين شهدوا بصك الامان . وكتب لنفسه شروطاً ، وسمى شهوداً ، وبعث بالكتاب إلى الفضل ، فبعث به إلى الرشيد فكتب له على ما أراد ، وأشهد له من التمس .

ولقد كان يحي يقول حينما كان الفضل يقوم بدور الوساطة بينه وبين الرشيد : « اللهم اشكر لي إخافتي قلوب الظالمين ، اللهم إن تقض لنا النصر عليهم فاعما نريد اعزاز دينك ، وإن تقض لهم النصر فيما تختار لأوليائك وأبناء أوليائك من كريم المآب وسني الثواب » فبلغ ذلك الفضل بن يحي فقال : يدعو الله ان يرزقه السلامة ، فقد رزقها .

ولما ورد كتاب الرشيد على الفضل وقد كتب الأمان على رسم يحيى وأشهد الشهود الذين التمسهم ، وجعل الأمان على نسختين إحداهما مع يحيى والاخرى معه، واقتنع يحيى بذلك وسار مع الفضل حتى وافى بغداد ودخلها مروان بن أبي حفصة فقال :

وقالوا الطالقان يجن كنزاً سيأتينا به الدهـر المديل

فأقبل مكـدياً لهم يحيى وكنز الطالقان له زميـل

يقول ابن الاثير : فلما قدم يحيى أجازه الرشيد بجوائز سنية يقال ان مبلغها مائتا الف دينار وغير ذلك من الخلع والحملان ، فأقام على ذلك مدة وفي نفسه الحيلة على يحيى والتفرغ له وطلب العلل عليه وعلى أصحابه حتى أخذ رجلا يقال له : فضالة بلغه أنه يدعو إلى يحيى فحبسه ثم دعا به فأمره أن يكتب إلى يحيى بأنه قد أجابه جماعة من القواد وأصحاب الرشيد ففعل ذلك ، وجاء الرسول إلى يحيى فقبض عليه وجاء به إلى يحيى بن خالد فقال له : هذا جاءني بكتاب لا أعرفه ، ودفع الكتاب اليه ، فطابت نفس الرشيد بذلك ، وحبس فضالة ، فقيل له : إنك تظلمه في حبسك إياه : فقال : أنا أعلم ذلك ولكن لا يخرج وأنا حي أبداً . قال فضالة : فلا والله ما ظلمني لقد كنت عهدت إلى يحيى إن جاءه مني كتاب ألا يقبله وأن يدفع الرسول إلى السلطان ، وعلمت أنه سيحتال عليه بي .

قالوا : فلما تبين يحيى بن عبدالله ما يراد به استأذن في الحج فأذن له . ويقول علي بن ابراهيم : إنه لم يستأذن فى الحج ، ولكنه قال للفضل ذات يوم : اتق الله في دمي، واحذر أن يكون محمد صلى الله عليه وآله خصمك غداً في فوالله ماأحدثت حدثاً ولا آويت محدثاً ، فرق له ، وقال له : اذهب حيث شئت من بلاد الله . قال : فكيف أذهب ولا آمن أن أوخذ ، فوجه معه من أبلغه مأمنه .

ولم يكن عمل الفضل هذا إلا لمزيد حرصه على تحسين سمعة الرشيد في سياسته مع آل البيت الذين تتطلع إلى أخبارهم الناس مع تلك الدولة . ومن قال بأن البرامكة كانت لهم يد مع يحيى بن عبدالله فهو غير صحيح ولا يمكن التصديق به إذ لو انهم كانوا كذلك لما استطاع الرشيد من يحيى وخاصة في مثل تلك الأيام التي كان فيها الرشيد قد وكل جميع أموره اليهم . نعم إنا لا ننكر عاطفتهم حيال آل البيت ، ولكن لا بهذا الشكل . ولا نستبعد من أن الذي سبب لهم هذه التهمة هو الفضل بن الربيع الذي كان يعمل جهده كله في سبيل التوصل من وراء ذلك إلى منصب من تلك المناصب التي يتمتع بها آل برمك وكان يحسب غلطاتهم أمام الرشيد ليحظى بالقرب منه فى هذا التزلف وقد أعد له عيوناً عليهم يأتون اليه بأخبارهم كل يوم . فلما أطلق الفضل يحيى بن عبدالله وسرحه إلى حيث يحب أخبره بعض عيونه بالخبر فاغتنمها فرصة للوقيعة بالبرامكة وراح من وقته إلى الرشيد وأخبره بالخبر فاستعد الرشيد لمفاتحة الفضل بذلك فدعا به ولما جاء اليه قال له : ما خبر يحيى ابن عبدالله ؟ قال هو في موضعه عندي مقيم . قال : وحياتي ؟ قال : وحياتك إني أطلقته سألني برحمه من رسول الله (ص) فرققت له . قال : أحسنت ، قد كان عزمي أن أخلي سبيله . فلما خرج أتبعه ببصره وقال : قتلني الله إن لم أقتلك

ومن أجل هذا ذهب بعض المؤرخين الذين عنوا بدراسة تاريخ الاسرة البرمكية إلى القول بأن سبب نكبة البرامكة هي نتيجة لهذه الأعمال التي لم يكن القصد منها في الواقع إلا تثبيت أمر الرشيد وتحسين سمعته ليس إلا . وذهب بعضهم إلى أن

الدافع لهم إلى ذلك هو محاولاتهم إرجاع زمام الحكم إلى العلويين وهو قول لا شك فى بعده .

ولا شك بأن مرجع تلك التهم هو الحسد للعلويين وللبرامكة لأن البرامكة قد طالت أيامهم وكثر أعداؤهم فلذلك راح خصومهم وحسادهم يتهمونهم أمام الرشيد بالاتفاق مع من يخشى أمرهم الرشيد ، وقد حصل من حساد آل البيت من يؤيد ذلك زوراً وقدذكر هذا أبو الفرج فى مقاتله يقول: إن نفراً من أهل الحجاز تحالفوا على السعاية بيحيى بن عبدالله . والشهادة عليه بأنه يدعو إلى نفسه وأن أمانه منتقض ، فوافق ذلك ماكان فى نفس الرشيد له ، وهم : عبدالله بن مصعب الزبيري ، وأبو البختري ، وهب بن وهب ، ورجل من بني زهرة ورجل من بني مخزوم فوافوا الرشيد لذلك واحتالوا إلى أن أمكنهم ذكرهم له فاشخصه الرشيد اليه وحبسه عند (مسرور) الكبير في سرداب ، فكان في أكثر الأيام يدعو به فيناظره .

ولم يقتنع الرشيد في حبس يحيى بن عبدالله ، بل أخذ يعمل الفكر لعله يجد إلى نقض الأمان الذي أعطاه له حيلة فيقتله فصار يخرجه بين الفينة والأخرى فيحاجه ويناظره . وكان الفضل بن الربيع ينتظر نتائج هذه المناظرات التي أفرغ كامل قواه في سبيل اعدادها ليتوصل من وراءها إلى غايته وهى تقليص ظل البرامكة عند هارون . وكان قد أعد لذلك رجالا يمثلون دور تلك المسرحية التي يريد اخراجها لاطاحة مجد البرامكة عن طريق استجواب يحيى بن عبدالله وذلك حينما تطرح عليه تلك الاسئلة المحرجة. غير أن يحيى كان متحفظاً فى اجوبته مع الرشيد، فكان من جملة ما دار عليه الحديث في تلك المناظرات ما هذا نصه :

قال الرشيد : يايحيى أينا أحسن وجهاً أنا أو أنت ؟

فقال يحيى : بل أنت ياأميرالمؤمنين إنك لأنصع لوناً وأحسن وجهاً .

فقال الرشيد : فأينا أكرم وأسخى أنا أو أنت ؟

قال يحيى : وما هذا ياأمير المؤمنين ، وما تسألني عنه ، أنت تجبى لك خزائن الأرض وكنوزها ، وأنا أتمحل معاشي من سنة إلى سنة .

فقال الرشيد : فأينا أقرب إلى رسول الله (ص) أنا أو أنت ؟

فقال يحيى : قد أجبتك عن خطتين ، فاعفني من هذه ؟

قال : لا والله . قال : بل فاعفني . فحلف بالطلاق والعتاق ألا يعفيه .

فقال يحيى : ياأمير المؤمنين لو عاش رسول الله (ص) وخطب اليك ابنتك أكنت تزوجه ؟

فقال هارون : إي والله .

فقال يحيى : فلو عاش فخطب إلي أكان يحل لي أن أزوجه ؟

قال هارون : لا .

قال يحيى : فهذا جواب ما سألت .

فغضب الرشيد من مجلسه ، وخرج الفضل بن الربيع وهو يقول : لوددت أني فديت هذا المجلس بشطر ما أملكه . ولم يصرح الفضل بن الربيع بهذا إلا لأنه اعتقد من نجاح مهمته لما شاهده من تغير حالة الرشيد عند جواب يحيى بن عبدالله له ، وما عرفه من تصميمه على الشدة في أمر يحيى .

ولم يكتف الرشيد بهذا المجلس من يحيى بل دعا به ليجمع بينه وبين عبدالله بن مصعب الزبيري ليناظره فيما رفع اليه ، فلما حضر يحيى جبهه الزبيري بحضرة الرشيد بقوله : نعم ياأمير المؤمنين إن هذا دعاني إلى بيعته .

فقال له يحيى : ياأمير المؤمنين، أتصدقه وتستنصحه؟ وهوابن عبدالله بن الزبير الذي أدخل أباك وولده وأضرم عليهم النار حتى تخلصه أبوعبدالله الجدلي صاحب علي ابن أبي طالب (ع) منه عنوة . وهوالذي بقي أربعين جمعة لا يصلي على النبي (ص) في خطبته حتى التاث عليه الناس ، فقال : إن له أهل بيت سوء إذا صليت عليه أو ذكرته أتلعوا أعناقهم واشرأبوا لذكره وفرحوا بذلك فلا أحب أن أقر عينهم بذكره ،

وهو الذي فعل بعبدالله بن العباس ما لا خفاء به عليك حتى لقد ذبحت يوماً عنده بقرة فوجدت كبدها قد نقبت فقال ابنه علي بن عبدالله : ياأبت أما ترى كبد هذه البقرة ؟ فقال : يابني هكذا ترك ابن الزبير كبد أبيك . ثم نفاه إلى الطائف ، فلما حضرته الوفاة قال لعلي ابنه : يابني الحق بقومك من بني عبدمناف بالشام ، ولا تقم في بلد فيه لابن الزبير إمرة . فاختار له صحبة يزيد بن معاوية على صحبة عبدالله ابن الزبير . ووالله إن عداوة هذا ياأميرالمؤمنين لنا جميعاً بمنزلة سواء ، ولكنه قوي علي بك ، وضعفت عنك ، فتقرب بي اليك ، ليظفر منك بما يريد ، إذلم يقدر على مثله منك ، وما ينبغي لك ان تسوغه ذاك في ، فان معاوية بن أبي سفيان وهو أبعد نسباً منك الينا ، ذكر يوماً الحسن بن علي فسفهه فساعده عبدالله بن الزبير على ذلك ، فزجره معاوية وانتهره فقال : إنما ساعدتك ياأميرالمؤمنين فقال : إن الحسن لحمي آكله ولا أوكله .

فقال عبدالله بن مصعب الزبيري : إن عبدالله طلب أمراً فادركه وإن الحسن باع الخلافة من معاوية بالدراهم أتقول هذافي الزبير وهو ابن صفية بنت عبدالمطلب؟

فقال يحيى : ياأميرالمؤمنين ما انصفنا ان يفخر علينا بأمرأة من نسائنا وامرأة منا فهلا فخر بها على قومه من النوبيات والاساميات والحمديات .

فقال عبدالله بن مصعب : ما تدعون بغيكم علينا وتوثبكم في سلطاننا ؟ فرفع يحيى رأسه اليه ولم يكن يكلمه قبل ذلك . وإنما كان يخاطب الرشيد بجوابه لكلام عبدالله . فقال له : اتوثبنا في سلطانكم ؟ ومن انتم اصلحك الله عرّفني فلست اعرفكم .

فرفع الرشيد رأسه إلى السقف يجيل فيه ليستر ما عراه من الضحك ثم غلب عليه ولم يتمالك فخجل الزبيري ثم التفت يحيي إلى هارون وقال : ياأميرالمؤمنين ، ومع هذا فهو الخارج مع أخي على أبيك والقائل له :

إن الحمامة يوم الشعب من دثن   هاجت فؤاد محب دائم الحزن

إنا لنأمل أن ترتد الفتنا بعد التدابر والبغضاء والأحن
حتى يثاب على الاحسان محسننا ويأمن الخائف المأخوذ بالدمن
وتنقضي دولة أحكام قادتها فينا كأحكام قوم عابدي وثن
فطالما قد بروا بالجور أعظمنا بري الصناع قداح النبع بالسفن
قوموا ببيعتكم ننهض بطاعتنا (إن الخلافة فيكم يابني الحسن)
لا عز ركننا نزار عند سطوتها إن اسلمتك ولا ركننا ذوي يمن
الست أكرمهم عوداً إذا انتسبوا يوماً وأطهرهم ثوباً من الدرن
وأعظم الناس عند الناس منزلة وأبعد الناس من عيب ومن وهن

فلما سمعها الرشيد تغير وجهه واربد ، فأخذ الزبيري يحلف بالله الذي لا إله إلا هو ، وبايمان البيعة أن هذا الشعر ليس له وأنه لسديف .

فقال يحيي : والله ياأمير المؤمنين ما قاله غيره ، وما حلفت كاذباً ولا صادقا بالله قبل هذا ، وإن الله إذا مجده العبد في يمينه بقوله : الرحمن الرحيم ، الطالب الغالب، استحي أن يعاقبه ، فدعني أحلفه بيمين ما حلف بها أحد قط كاذباً إلا عوجل . قال : حلفه .

قال يحيى :قل : برئت من حول الله وقوته ، واعتصمت بحولي وقوتي وتقلدت الحول والقوة من دون الله ، استكباراً على الله ، واستغناء عنه ، واستعلاء عليه ، إن كنت قلت هذا الشعر (١) .

وفي الفخري وتاريخ الخلفاء الراشدين للسيوطي : أن يحيى لم يطلب اليمين على تحقيق نسبة الشعر بل إنما كان على تلك الاتهامات الموجهة اليه . وهو إنما يقصد بتحليفه بهذه اليمين أن يدريء عن نفسه تلك الاتهامات المختلقة . فامتنع الزبيري من الحلف فاخذ يلح عليه يحيى وهو يأبى . وقد كان لالحاح الفضل بن الربيع

(١) المقاتل ص ٤٧٨ ط مصر ، شرح النهج ج ٤ ص ٣٥٣ ، الفخرى ص ١٧١ . تاريخ الخلفاء ص ٢٨٧

عليه أكبر الأثر في استجابته إلى الحلف ولم يدفع الفضل إلى ذلك الالحاح إلا تخوفه على فشل مؤامراته ضد البرامكة. وهذه تعتبر من أهمها. ولما رأى الرشيد امتناع الزبيري ازداد غضبه والتفت إلى الفضل بن الربيع قائلا : ياعباسي ما له لا يحلف إن كان صادقاً ؟ هذا طيلساني علي وهذه ثيابي لو حلفني أنها لي لحلفت فرفس الفضل بن الربيع الزبيري برجله وصاح به : احلف ويحك . يقول أبو الفرج : وكان له فيه هوى فحلف باليمين ووجهه متغير وهو يرعد . فضرب يحيى بين كتفيه ثم قال : يابن مصعب قطعت والله عمرك . والله لا تفلح بعدها . يقول ابن أبي الحديد : فما برح من موضعه حتى عرضت له أعراض الجذام : استدارت عيناه وتفقأ وجهه وقام إلى بيته فتقطع وتشقق لحمه وانتثر شعره ومات بعد ثلاثة أيام . وقد ذكر مثل هذا أبو الفرج وأضاف : انه لما مات حضر الفضل بن الربيع جنازته ومشى معها ومشى الناس معه فلما جاؤا به إلى القبر ووضعوه في لحده وجعل اللبن فوقه انخسف القبر فهوى حتى غاب عن أعين الناس . فلم يروا قرار القبر وخرجت منه غبرة عظيمة فصاح الفضل : التراب التراب . فجعل يطرح التراب وهو يهوي ، ودعا بأحمال الشوك فطرحها فهوت ، فأمر حينئذ بالقبر فسقف بخشب وأصلحه وانصرف منكسراً . فكان الرشيد بعد ذلك يقول للفضل : رأيت ياعباسي ما أسرع ما أديل ليحيى من الزبيري (١)

- ٤ -

لم يجد الرشيد من وراء تلك المحاولات التي بذلها طريقاً للتخلص من سجينه يحيى ، فراح يعيد النظر في أمر نقض الأمان الذي اعطاه له فأحضر من اجل ذلك كلا من محمد بن الحسن صاحب أبي يوسف القاضي والحسن بن زياد اللؤلؤي وأبو البختري وهب بن وهب ، وجمعهم في مجلس وأخرج اليهم « مسرور الكبير »

(٢) شرح النهج ج ٤ ص ٣٥٣ . المقاتل ٤٧٨ الفخري ص ١٧١

بالأمان ، فبدأ بمحمد بن الحسن فنظر فيه فقال : هذا أمان مؤكد لا حيلة فيه - وكان يحيى قد عرضه بالمدينة على مالك ، وابن الدراوردي أبو محمد عبدالعزيز بن محمد الجهني المدني وغيرهم فقالوا : إنه مؤكد لا علة فيه - قال فصاح عليه مسرور وقال : هاته ، فدفعه إلى الحسن بن زياد اللؤلؤي فقال بصوت ضعيف : هو أمان . واستلبه أبو البختري فقال : هذا باطل منتقض قد شق عصا الطاعة وسفك الدم فاقتله ودمه في عنقي .

فدخل مسرور على الرشيد فأخبره فقال له : اذهب فقل له : خرّقه إن كان باطـــلا بيـــدك ، فجاءه مسرور فقال له ذلك فقال : شقـه يا أبا هاشم . فقال له مسرور : بل شقه أنت إن كان منتقضاً . فأخذ سكيناً وجعـل يشقه ويده ترتعد حتى صيره سيوراً ، فأدخله مسرور على الرشيد فوثب فأخذه من يده وهو فرح ويقول : يامبارك يامبارك . ووهب لأبي البختري الف الف وستمائة الف ، وولاه القضاء ، وصرف الآخرين ، ومنع محمد بن الحسن من الفتيا مدة طويلة . ثم أنه أجمع على انفاذ ما أراده في يحي بن عبدالله .

يقول أبو الفرج بسنده إلى ادريس بن محمـد بن يحيى بن عبدالله بن الحسن أنه قال : لقد قتل جدي يحيى بالجوع والعطش في الحبس .

وهناك رواية أخرى تفصل لنا ما لاقاه يحي في تلك الأيام حينما كان سجيناً يرويها سجين كان إلى جنب الطامورة التي فيها يحيى يقول :

كنت قريباً منه فكان في أضيق البيوت وأظلمها ، فبينا نحن ذات ليلة كذلك إذ سمعنا صوت الأقفال وقد مضى من الليل هجمة ، فاذا هارون قد أقبل على برذون له ، ثم وقف وقال : أين هذا ؟ يعني يحيى قالوا : في هـذا البيت . قال : علي به فأدني اليه فجعل هارون يكلمه بشيء لم أفهمه فقال : خذوه ، فأخذوه فضرب مائة عصا ويحيى يناشده الله والرحم والقرابة من رسول الله (ص) ويقول : بقرابتي منك ، فيقول : ما بيني وبينك قرابة . ثم حمل فرد إلى موضعه فقال : كم أجريتم

عليه ؟ قالوا : أربعة أرغفة وثمانية أرطال ماء . قال : اجعلوه على النصف ، ثم خرج ومكثنا ليال ثم سمعنا وقعاً فاذا نحن به قد دخل فوقف موقفه فقال : علي به فأخرج ففعل به مثل فعله ذلك ، وضربه مائة عصا أخرى ، ويحي يناشده الله فقال : كم أجريتم عليه ؟ قالوا رغيفين وأربعة أرطال ماء . ثم خرج وعاد في الليلة الثالثة ، وقد مرض يحيى بن عبدالله وثقل ، فلما دخل قال : علي به قالوا : هو عليل مدنف لما به . قال : كم أجريتم عليه : قالوا رغيفاً ورطلين ماء . قال : فاجعلوه على النصف ثم خرج فلم يلبث يحيى بن عبدالله أن مات فاخرج إلى الناس فدفن . وهناك رواية أخرى تقول بأنه لما تردت حالته أمر هارون بأن تبنى عليه اسطوانة « بالرافقة »(١) .

وشق موت يحيى على أهله ومحبيه فاندفع علي بن ابراهيم العلوي يرثيه :

يابقعة مات بها سيد	ما مثله في الأرض من سيد
مات الهدى من بعده والندى	وسمي الموت به معتدي
فكم حياء حزت من وجهه	وكم ندى يحي به المجتدي
لا زلت غيث الله ياقبره	عليك منه رائح مغتدي
كان لنا غيثاً به نرتوي	وكان كالنجم به نهتدي
فان رمانا الدهر عن قوسه	وخاننا في منتهى السؤدد
فمن قريب نبتغي ثاره	بالحسني الثائر المهتدي
إن ابن عبدالله يحيى ثوى	والمجد والسؤدد في ملحد

وكانت وفاته في سنة ١٧٧ هج على وجه التقريب .

---

(١) الرافقة : بلد متصل البناء بالرقة وهما على ضفة الفرات وبينهما مقدار ثلاثمائة ذراع . وهي من مستحدثات المنصور بناها سنة ١٥٥ ه على بناء بغداد ورتب بها جنداً من أهل خراسان . وقد ازاد فيها هارون الرشيد فبنى قصورها وعمر أسواقها . (المعجم ج ٤ ص ٢٠٨)

ابن طباطبا

١٩٩ هـ

هو محمد(١) بن ابراهيم طباطبا (٢) بن اسماعيل الديباج (٣) بن ابراهـيم

(١) رجعنا فى كتابة هذا الفصل الى المصادر التالية : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٤٨ ط دار الرجاء. والطبرى ج ٧ ص ١١٧ - ١١٨ ط دار الاستقامة وتاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٧٣ ط النجف وتنقيح المقال ج ٢ ص ٥٥ وصبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧ وشـذرات الذهب ج ١ ص ٣٥٦ والكنى والألقاب ج ٢ ص ٤٠١ وأعيان الشيعة ج ٥ ص ١٠٩ وعصر المأمون ج ١ ص ٢٦٠ والكامل لابن الأثير ج ٦ ص ١٠٣ والحدائق الوردية مخطوط ج ١ ص ٢١٦

(٢) هو جد السادة الطباطبائية الذين سنأتى على تاريخهم فى بقية أجزاء هذا الكتاب كل حسب وقته الذى عاش فيه . يقول صاحب لسان الميزان فيه : كان فاضلا فى نفسه سرياً فى قومه عده الشيخ من رجال الامام الصادق (ع) ولقب بطباطبا لأن أباه أراد أن يقطع له ثوباً وهو طفل فخيره بين قميص وقبا فقال : طباطبا يعنى قبا قبا وكانت فى لسانه رتة وقيل غير هذا وهو ان طباطبا بلسان النبطية معناه سيد السادات

(٣) اسماعيل الديباج سمى بالديباج لحسنه وبهائه يقول ابوالفرج بسنده الى عبدالله بن موسى انه قال : سألت عبدالرحمن بن ابى الموالي وكان مع بنى الحسن فى المطبق كيف كان صبرهم على ما هم فيه ؟ قال : كانوا صبراء وكان فيهم رجل مثل سبيكة الذهب كلما اوقد عليها النار ازداد خلاصاً وهو اسماعيل بن ابراهيم وكان كلما اشتد عليه البلاء ازداد صبراً وقد اختلف المؤرخون فى انه هل بقى مسجوناً فمات فى السجن او انه اطلق فذهب بعضهم وعلى رأسهم صاحب المقاتل الى انه اخرج من السجن فى خلافة المهدى أو الهادى وفى بعض الروايات أنه أعيد اليه حتى مات فيه وبعضهم قال انه بقي مسجوناً حتى أيام المهدى فاطلقه ثم لما جاء موسى الهادى أعاده فمات فى سجنه .

الغمر (١) بن الحسن المثنى بن الحسن السبط (ع) .

أمـــه : أم الزبير بنت عبدالله بن أبي بكر بن عياش بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم .

كان من البارزين في العلم والفضل والعبادة والشجاعة ، وكان الناس يميلون اليه وعلى الأخص الزيدية لما لمسوه فيه من النشاط في مناهضته للحكم العباسي الأمر الذي قوى اعتقادهم فيه فأخذوا يدعون الناس إلى بيعته والانضواء تحت لوائه .

أما أسباب اعلانـــه الثورة فيعود بعضها إلى ذلك الانقسام الذي منيت به الامبراطورية العباسية من جراء التنازع على السلطان بعيدممات الرشيد . وماحدث بين الأخوين الأمين والمأمون بالتالي من توتر العلاقات وما أدت اليه من الفـتن الواسعة التي كان من ضحاياها الأمين ومعه خلق كثير .

وما انتهت هذه الفتنة التي كادت ان تطوح بشمل تلك الامـبراطورية حتى انتفض الكثير من الناس فى العراق والحجاز والجزيرة على المأمون ، وكان فيهم الزعيم المنكوب ، والوالي المعزول ، والقائد المفصول . ومن شاكل هؤلاء الأمر الذي زاد في قلق المأمون واضطرابه .

وفى مثل هذا الجو قدم أحد رجال الشيعة - يعرف بنصر بن شبيب وهو من أهل الجزيرة - حاجاً ليتصل بعـــد عودته من الحج بالمدينة وليطلع على موقف آل البيت من تلك الأحداث . يقول أبو الفرج :

(١) ابراهيم الغمر لقب بالغمر لجوده ولقب بلقب ثان وهو الشبه ، لأنه كان يشبه رسول الله (ص) ويكنى بأبي اسماعيل . أمه فاطمة بنت الحسين بن علي (ع) عده العلماء من الصلحاء. روى الحديث عن أهل بيته وعن غيرهم. وقيل انه توفى قبل أن يصلوا بالسجناء إلى الكوفة وقيل عند وصولهم الى السجن وكان عمره عند وفاته تسع وستون سنة . قبره قريب من كرى سعد بن أبى وقاص على يسار الجـادة الحالية للذاهب الى الكوفة .

« فلما ورد المدينة سأل عن بقايا أهل البيت ومن له ذكر منهم ، فذكر له : علي ابن عبيدالله بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) وعبدالله ابن موسى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن ، ومحمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن الحسن .

فأما علي بن عبيدالله فانه كان مشغولا بالعبادة لا يصل اليه أحد ولا يأذن له ، وأما عبدالله بن موسى فكان مطلوباً خائفاً لا يلقاه أحد .

وأما محمد بن ابراهيم فانه كان يقارب الناس ويكلمهم فى هذا الشأن ، فأتاه نصر بن شبيب فدخل اليه وذاكره مقتل أهل بيته وغصب الناس إياهم حقوقهم ، وقال : حتى متى توطأون بالخسف وتهتضم شيعتكم وينزى على حقكم ؟ وأكثر من القول فى هذا المعنى إلى أن أجابه محمد وواعده لقاءه بالجزيرة .

وانصرف الحاج ، ثم خرج محمد بن ابراهيم إلى الجزيرة ، ومعه نفر من أصحابه وشيعته ، حتى قدم على نصر بن شبيب الموعد ، فجمع اليه نصر أهله وعشيرته وعرض ذلك عليهم ، فأجابه بعض وامتنع عليه بعض ، وكثر القول فيهم والاختلاف حتى تواثبوا وتضاربوا بالنعال والعصي ، وانصرفوا عن ذلك . ثم خلا بنصر بعض بني عمه وأهله فقال له : ماذا صنعت بنفسك وأهلك ؟ أفتراك إذا فعلت هذا الأمر وتأبدت(١) السلطان يدعك وما يريد؟ لا والله بل يصرف همه اليك وكيده ، فان ظفر بك فلا بقاء بعدها ، وإن ظفر صاحبك وكان عدلا كنت عنده بمنزلة رجل من أفناء (٢) أصحابه وإن كان غير ذلك فما حاجتك إلى تعريض نفسك وأهلك وأهل بيتك لما لا قوام لهم به ؟ وأخرى إن جميع هذا البلد أعداء لآل أبي طالب ، فان أجابوك الآن طائعين ، فروا عنك غداً منهزمين إذا احتجت إلى نصرهم ، على انك إلى خلافهم أقرب منك إلى اجابتهم ثم تمثل بقوله :

---

(١) تأبد : غضب وتوحش

(٢) الأفناء : الأخلاط من الناس واحده فنو بكسر الفاء

وأبذل لابن العم نصحي ورأفتي إذا كان لي بالخير في الناس مكرما
فان راغ عن نصحي وخالف مذهبي قلبت له ظهر المجن ليندما

فثنى نصراً عن رأيه وفتر نيته ، فصار إلى محمد بن ابراهيم معتذراً اليه بما كان من خلاف الناس عليه ، ورغبتهم عن أهل البيت ، وأنه لو ظن ذلك بهم لم يمده نصرهم ، وأومأ إلى أن يحمل اليه مالا ويقويه بخمسة آلاف دينار فانصرف محمد عنه مغضباً ، وأنشأ يقول ، والشعر له : (١)

سنغنى بحمد الله عنك بعصبة يهشون للداعي إلى واضح الحق
طابت لك الحسنى فقصرت دونها فأصبحت مذموماً وزلت عن الصدق
جروا فلهم سبق وصرت مقصراً ذميما بما قصرت عن غاية السبق
وما كل شيء سابق أو مقصر يؤول به التقصير إلا إلى العرق

ثم مضى محمد راجعاً إلى الحجاز فلقي في طريقه أبا السرايا السري بن منصور أحد بني ربيعة بن ذهل بن شيبان ، وكان قد خالف السلطان ونابذه ، وعاث في نواحي السواد ، ثم صار إلى تلك الناحية فأقام بها خوفا على نفسه . وكان علوي الرأي فدعاه محمد فأجابه وسر بذلك .

- ٢ -

وأصبح لمحمد بن ابراهيم أمل واسع في نجاح مهمته وذلك على أثر ما لقيه به أبو السرايا من التشجيع والاستجابة. وقد كان قبل هذا قد خيم عليه اليأس من جراء ما واجهه به أهل الجزيرة من الاختلاف فيما بينهم والتثبيط لمن وعدوه بالنصرة حذراً من بطش السلطان .

وقد كان أبو السرايا قد عركته الأيام وحنكته التجارب فراح يتبادل الرأي مع محمد في شأن أمرها فكان مما قال لمحمد : « انحدر إلى الفرات حتى أوافي على

(١) المقاتل ص ٥٢٠ ط مصر

ظهر الكوفة ، وموعدك الكوفة . فاتفقا على هذا الرأي واتعدا ثم افترقا كل إلى جهته ، فسار محمد حتى وافى الكوفة وأخذ « يسأل عن أخبار الناس ويتحسسها ، ويتأهب لأمره ويدعو من يثق به إلى ما يريد ، حتى اجتمع له بشر كثير ، وهم في ذلك ينتظرون أبا السرايا وموافاته .

وهنا يروي أبوالفرج رواية تصور لنا ما كان يتمتع به محمد بن ابراهيم من رقة الطبع والحنو والعطف ومدى شعوره بالمسؤولية وهي : « بينا كان محمد يسير في طريق ما بالكوفة ومعه جماعة من أصحابه إذ نظر إلى عجوز تتبع أحمال الرطب فتلقط ما يسقط منها فتجمعه في كساء عليها رث ، فسألها عما تصنع بذلك . فقالت : إني امرأة لا رجل لي يقوم بمؤنتي ، ولي بنات لا يعدن على أنفسهن بشيء ، فأنا أتتبع هذا من الطريق وأتقوته أنا وولدي . فبكى بكاء شديداً ، وقال : أنت والله وأشباهك تخرجوني غداً حتى يسفك دمي .

يقول أبوالفرج : ونفذت بصيرته في الخروج ، وأقبل أبو السرايا لموعده على طريق البر حتى ورد عين التمر في فوارس معه جريدة لا راجل فيهم وأخذ على النهرين حتى ورد إلى نينوى فجاء إلى قبر الحسين عليه السلام . قال نصر بن مزاحم : فحدثني رجل من أهل المدائن قال : إني لعند قبر الحسين عليه السلام في تلك الليلة وكانت ليلة ذات ريح ورعد ومطر ، إذا بفرسان قد أقبلوا فترجلوا ودخلوا إلى القبر فسلموا وأطال رجل منهم الزيارة ثم جعل يتمثل أبيات منصور بن الزبرقان النمري :

نفسي فداء الحسين يوم غدا	إلى المنايا عدو لاقافل
ذاك يوم أنحى بشفرته	على سنام الاسلام والكاهل
كأنما أنت تعجبين ألا	ينزل بالقوم نقمة العاجل
لا يعجل الله إن عجلت وما	ربك عما ترين بالغافل
مظلومة والنبي والدها	تدير أرجاء مقلة جافل

ألا مساعير يغضبون لها بسلة البيض والقنا الذابل (١)

قال : ثم أقبل علي فقال : ممن الرجل ؟ فقلت : من الدهاقين من أهل المدائن . فقال سبحان الله ، يحن الولي إلى وليه كما تحن الناقة إلى حوارها ، ياشيخ إن هذا موقف يكثر لك عند الله شكره ويعظم أجره . قال : ثم وثب فقال: من كان ههنا من الزيدية فليقم إلي ، فوثب اليه جماعات من الناس ، فدنوا منه فخطبهم خطبة طويلة ذكر فيها أهل البيت وفضلهم وما خصوا به ، وذكر فعل الأمة بهم وظلمهم لهم ، وذكر الحسين بن علي (ع) فقال :

أيها الناس ، هبكم لم تحضروا الحسين فتنصروه ، فما يقعدكم عمن أدركتموه ولحقتموه ؟ وهو غداً خارج طالب بثأره وحقه ، وتراث آبائه وإقامة دين الله وما يمنعكم من نصرته ومؤازرته ؟ إنني خارج من وجهي هذا إلى الكوفة للقيام بأمر الله ، والذب عن دينه، والنصر لأهل بيته ، فمن كان له نية في ذلك فليلحق بي ثم مضى من فوره عائداً إلى الكوفة ومعه أصحابه .

اما محمد فانه حينما أحس بالضجر من بعض أصحابه لطول انتظاره لأبي السرايا لأن له موعداً معه أظهر أمره وخرج الى ظهر الكوفة لينظم صفوف أصحابه وليكون على أهبة للقتال فيما اذا استدعت الحالة الى ذلك ، وبينا هم على ذلك اذ طلع عليهم من نحو الجرف علمان أصفران وخيل ، فتنادى الناس بالبشارة فكبروا ونظروا ، فاذا هو أبو السرايا ومن معه ، فلما أبصر محمد بن ابراهيم ترجل وأقبل اليه فانكب عليه واعتنقه محمد ، ثم قال له يابن رسول الله ، ما يقيمك ههنا ؟ ادخل البلد فما يمنعك منه أحد . فدخل هو وخطب الناس ودعاهم الى البيعة الى الرضا من آل محمد والدعاء الى كتاب الله وسنة نبيه (ص) ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والسيرة بحكم الكتاب . فبايعه جميع الناس حتى تكابسوا وازدحموا عليه ، وذلك في موضع بالكوفة يعرف بقصر الضرتين .

(١) المقاتل ص ٥٢٢ ط مصر

ووجه محمد بن ابراهيم الى الفضل بن العباس بن عيسى بن موسى رسولا يدعوه الى بيعته ويستعين به في سلاح وقوة ، فوجد الفضل قد خرج من البلد وخندق حول داره ، واقام مواليه في السلاح للحرب ، فأخبر الرسول محمداً بذلك فأنفذ محمد ابا السرايا ، وأمره أن يدعوهم ولا يبدأهم بقتال ، فلما صار اليهم تبعه أهل الكوفة كالجراد المنتشر ، فدعاهم فلم يصغوا الى قوله ولم يجيبوا دعوته ورموه بالنشاب من خلف السور فقتل رجل من أصحابه أو جرح ، فوجه به الى محمد بن ابراهيم ، فأمره بقتالهم فقاتلهم . وكان على السور خادم أسود فرماه بسهم فأثبته بين عينيه ، وسقط الخادم على أم رأسه الى أسفل فمات وفر موالي الفضل بن العباس فلم يبق منهم أحد وفتح الباب فدخل أصحاب أبي السرايا ينتهبونها ويخرجون حر المتاع منها ، فلما رأى ذلك أبو السرايا حظره ومنع أحداً من الخروج أو يأخذ ما معه ويفتشه ، فأمسك الناس عن النهب .

واستقل محمد بن ابراهيم بعد هذه الحادثة في الكوفة ، وأخذ يهيء عسكره لمجابهة الطواريء التي يترقب حدوثها .

أما الحسن بن سهل والي المأمون في بغداد يومذاك فقد استفدح الخطب وذلك حينما وافاه الفضل بن العباس منهزماً فجهز جيشاً جراراً وولى عليه زهير بن المسيب فسار هذا بالجيش حتى ورد قصر بن هبيرة فأقام به ، وأرسل ابنه ازهر على مقدمته حتى نزل سوق أسد فعلم محمد بتدبير الحسن بن سهل فجهز أبا السرايا وأمره بالمسير اليهم فخرج أبو السرايا من الكوفه وقت العصر فأغذ السير حتى أتى معسكر أزهر بن زهير بسوق أسد ، وهم على حين غرة فبيته وطحن العسكر وأكثر القتل فيه ، وغنم دوابهم واسلحتهم ، وانقطع الباقون في الليل منهزمين حتى وافوا زهير بالقصر ، فتغيظ من ذلك . ورجع أبو السرايا الى الكوفة ، وزحف زهير حتى نزل بالقرب منها ، ووافت خريطة من الحسن بن سهل ، يأمره ألا ينزل الا بالكوفه فمضى حتى نزل عند القنطرة . ونادى أبو السرايا في الناس بالخروج فخرجوا حتى

صادفوا زهيراً على قنطرة الكوفة في عشية صردة باردة وحدثت بين الطرفين مناوشات لسانية أدت إلى نزال فردي ثم تطورت إلى معركة جماعية كانت نتيجة الغلبة فيها لأبي السرايا وانهزم زهيروأصحابه وتبعهم أصحاب أبي السرايا حتى جاوزوا (شاهي) فالتفت زهير إلى أبي السرايا فقال : ويحك ، أتريد هزيمة أكثر من هذه ؟ إلى اين تتبعني ؟ فرجع وتركه . وغنم أهل الكوفة غنيمة لم يغنم أحد مثلها .

وعاد أبو السرايا ومعه خلق كثير من الأسارى ، ورؤوس كثيرة على الرماح مرفوعة ، وفى صدور الخيل مشدودة ، فبلغ ذلك الحسن بن سهل فاشتد غمه وكثر اهتمامه ودعا بعبدوس بن محمد بن أبي خالد المروروذي وضم اليه الف فارس وثلاثة آلاف راجل واغدق عليه في العطاء ، وقال : إنما أريد أن أنوه باسمك فانظر كيف تكون ، وأوصاه بما احتاج اليه ، وأمره ألا يلبث . فخرج من بين يديه وهو يحلف أن يبيح الكوفة ويقتل مقاتلة أهلها ويسبي ذراريهم ، ثلاثاً . ومضى لوجهه لا يلوي على شيء حتى صار إلى الجامع ، وقد كان الحسن بن سهل تقدم اليه بذلك ، وأمره أن لا يأخذ على الطريق الذي انهزم فيه زهير ، لئلا يرى أصحابه بقايا قتلى عسكره فيجبنوا من ذلك ، فأخذ على طريق الجامع ، فلما وافاها وبلغ أبا السرايا خبره صلى الظهر بالكوفة ، ثم جرد فرسان أصحابه ومن يثق به منهم وأغذ السير بهم ، حتى اذا قرب من الجامع فرق أصحابه ثلاث فرق وقال : شعاركم : « يافاطمي يامنصور » وأخذ هو فى جانب السوق ، وقال لأبي الهرماس : خذ بأصحابك على القرية فلا يفتك أحد منهم ثم احملوا دفعة واحدة من جوانب عسكر عبدوس . يقول الطبري : فواقعه فى الجامع يوم الأحد لثلاث عشرة بقيت من رجب فقتله وأسر هارون بن محمد بن أبى خالد واستباح عسكره وكان عبدوس فيما ذكر في اربعة آلاف فارس ، فلم يفلت منهم احد كانوا بين قتيل واسير . وانتهب الناس من أصحاب أبي السرايا وأهل الجامع عسكر عبدوس ، واصابوا منه غنيمة عظيمة ، وانصرفوا إلى الكوفه بقوة واسلحة .

وهكذا فقد اصبح صدى شخصية ابى السرايا يرن فى فارس وخراسان والجزيرة والحجاز والشام والعراق وباقي البلدان الاسلامية وحتى في المغرب .

أما زعيمه محمد بن ابراهيم طباطبا فانه كان يرقب حركاته وسكناته لأنه قد بدرت منه بوادر تتنافى ومعنوية الدعوة التي يناضل من أجلها كالأثرة والاستبداد وسفك الدماء بعد الأمان الأمر الذي دعاه بأن يؤنبه على تلك الأغلاط الفظيعة التي ارتكبها . يذكر ابو الفرج بعضها فيقول : ودخل ابوالسرايا على محمد وهو عليل فلامه على تبييته العسكر ، وقال :

انا ابرأ إلى الله مما فعلت فما كان لك أن تبيتهم ولا تقاتلهم حتى تدعوهم وماكان لك أن تأخذ من عسكرهم إلا ما اجلبو به علينا من السلاح .

فلما رأى ابو السرايا من زعيمه التصميم على الحد من تصرفاته اخذ يعمل فكره لينقذ موقفه منه وارتأى اخيراً إلى أن يعمد الى التخلص منه بطريقة الاحتيال عليه فسمه ومات من سبب ذلك وكتم على الناس موته واظهر للناس الوصاية عنه وكان ذلك في سنة ١٩٩ هج . وقد رثاه اخوه القاسم بن ابراهيم حينما بلغه خبر قتله وهو بالمغرب بهذه القصيدة .

يادار دار غرور لا وفاء لها ... حيث الحوادث بالمكروه تستبق
ابرحت اهلك من كدومن اسف ... بمشرع شربه التصدير والرنق
فان يكن فيك للآذان مستمع ... يصبي ومرأى تسامى نحوه الحدق
فأي عيشك الا وهو منتقل ... واي شملك الا وهو مفترق
من سره ان يرى الدنيا معطلة ... بعين من لم يخنه الخدع والملق
فليأت داراً جفاها الأنس موحشة ... مأهولة حشوها الأشلاء والخرق
قل للقبور اذا ماجئت زائرها ... وهل يزار تراب البلقع الخلق ؟

ماذا تضمنتَ ياذا اللحد من ملك   لم يحمه منك عقبان ولا ورق

بل أيها النازح المرموس يصحبه   وجد ويصحبه الترجيع والحرق

يهدي لدار البلى عن غير مقلية   قد خُطَّ في عرصة منها له نفق

وبات فرداً وبطن الأرض مضجعه   ومن ثراها له ثوب ومرتفق

نأي المحل بعيد الأنس اسلمه   بر الشفيق فحبل الوصل منخرق

قد اعقب الوصل منك الياس فانقطعت   منك القرائن والأسباب والعلق

ياشخص من لو تكون الأرض فديته   ما ضاق مني بها ذرع ولا خلق

بينا ارجيك تأميلا واشفق ان   يغبر منك جبين واضح يقق

اصبحت يحثى عليك الترب في جدث   حتى عليك بما يحثى به طبق

ان فجعتني بك الأيام مسرعة   فقل مني عليك الحزن والأرق

فايما حدث تخشى غوائله   من بعد هلكك يعنيني به الشفق

* * *

الى هذا الحد من البحث نودع القاريء الكريم على ان نلتقي به في فرصة قريبة ان شاء الله فى الجزء الثانى الذي يضم بين دفتيه بحثاً شاملا ودراسة دقيقة لتاريخ الحسنيين خلال ستة قرون ابتداء من القرن الثالث حتى نهاية القرن الثامن للهجرة ، ونحن في انتظار اكيد ، ورغبة صادقة لملاحظات القراء وارشادات الباحثين على هذا الجزء آملين أن يوافونا بها بالسرعة الممكنة لنستدرك ما فاتنا في الأجزاء القادمة والله تعالى من وراء القصد .

المصادر

الكتاب	المؤلف
١ ـ اتعاظ الحنفا	المقريزي
٢ ـ الآداب السلطانية	ابن الطقطقى
٣ ـ الارشاد	الشيخ المفيد
٤ ـ أسباب النزول	الواحدي
٥ ـ الاستقصالأخبار دول المغرب الأقصى	السلاوي
٦ ـ اسد الغابة	ابن الأثير
٧ ـ أسنى المطالب	
٨ ـ الاصابة	ابن حجر
٩ ـ إعلام الورى بأعلام الهدى	ثقة الاسلام الطبرسي
١٠ ـ الاعلام	خير الدين الزركلي
١١ ـ أعيان الشيعة	السيد محسن الأمين العاملي
١٢ ـ الأغانى	لأبي الفرج الأصفهانى
١٣ ـ الاقبال	للسيد ابن طاوس
١٤ ـ الامامة والسياسة	ابن قتيبة
١٥ ـ الأمالي	القالى
١٦ ـ بحار الأنوار	المجلسي
١٧ ـ البداية والنهاية	ابن كثير
١٨ ـ بلوغ الارب	الآلوسي
١٩ ـ بلوغ المرام في شرح مسك الختام	
٢٠ ـ البيان المغرب	ابن عذارى المراكشي

الكتاب	المؤلف
٢١ ـ البيان والتبيين	الجاحظ
٢٢ ـ التاج في أخلاق الملوك	»
٢٣ ـ تاريخ الأمم والملوك	الطبري
٢٤ ـ تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي
٢٥ ـ تاريخ أبي الفداء	أبو الفداء
٢٦ ـ تاريخ الخلفاء الراشدين	السيوطي
٢٧ ـ تاريخ الاسلام السياسي	الدكتور حسن ابراهيم حسن
٢٨ ـ تاريخ الاسلام	الذهبي
٢٩ ـ التاريخ الكبير	ابن عساكر
٣٠ ـ تاريخ الدول الاسلامية	الصدفي
٣١ تاريخ التمدن الاسلامى	جورجي زيدان
٣٢ ـ تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام	بندلي جوزي
٣٣ ـ تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة	محمد عبدالله عنان
٣٤ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية	بروكلمان الترجمه العربية
٣٥ ـ تاريخ ابن خلدون	
٣٦ ـ تاريخ الشعر السياسي	أحمد الشايب
٣٧ ـ تاريخ اليعقوبي	ابن واضح
٣٨ ـ تاريخ الخميس	
٣٩ ـ تفسير الفخر الرازي	
٤٠ ـ تفسير الطبرسي	
٤١ ـ تفسير الطبري	
٤٢ ـ تفسير الخازن	

الكتاب	المؤلف
٤٣ ـ تفسير ابن كثير	
٤٤ ـ التنبيه والاشراف	المسعودي
٤٥ ـ تنقيح المقال	المامقاني
٤٦ ـ تهذيب التهذيب	ابن حجر
٤٧ ـ الجداول المرضية في تاريخ الدول الاسلامية	زيني دحلان
٤٨ ـ الحدائق الوردية	حميد بن أحمد الشهيد (مخطوط بمكتبة الامام المرحوم كاشف الغطاء برقم ١٣٢
٤٩ ـ الحلل السندسية	شكيب أرسلان
٥٠ ـ خزانة الأدب	عبدالقادر البغدادي
٥١ ـ خلاصة الكلام فى امراء البيت الحرام	ابن دحلان
٥٢ ـ دائرة المعارف الاسلامية	جماعه من كبار العلماء والمستشرقين ـ الترجمة العربية
٥٣ ـ دائرة معارف القرن العشرين	محمد فريد وجدي
٥٤ ـ دائرة المعارف	البستانى
٥٥ ـ الدرر المنثور	السيوطى
٥٦ ـ الذخيرة في محاسن الجزيرة	ابن بسام
٥٧ ـ ذكرى حافظ	الدمياطى
٥٨ ـ روض الأنف	
٥٩ ـ زهر الآداب	
٦٠ ـ السيرة النبوية	ابن هشام
٦١ ـ شذرات الذهب	لابن العماد الحنبلي
٦٢ ـ شرح المواهب	الزرقاني

الكتاب	المؤلف
٤٣ ـ شرح النهج	ابن ابى الحديد
٦٤ ـ صبح الأعشى	القلقشندي
٦٥ ـ صحيح البخاري	
٦٦ ـ صحيح مسلم	
٦٧ ـ صلح الحسن	الشيخ راضي آل ياسين
٦٨ ـ الصواعق المحرقة	ابن حجر
٦٩ ـ الطبقات	ابن سعد
٧٠ ـ طلبة الطالب	
٧١ ـ العقد الفريد	ابن عبد ربه
٧٢ ـ عمدة الطالب	ابن عنبة
٧٣ ـ العمدة	ابن رشيق
٧٤ ـ غاية الاختصار فى أخبار البيوتات المحفوظة من الغبار	
٧٥ ـ غاية المرام	البحريني
٧٦ ـ الفتاوى الحامدية	ابن عابدين
٧٧ ـ فتح الباري	
٧٨ ـ الفتنة الكبرى	الدكتور طه حسين
٧٩ ـ الفرج بعد الشدة	
٨٠ ـ فرق الشيعة	النوبختي
٨١ ـ في قصور الخلفاء العباسيين	الدكتور أحمد شلبي
٨٢ ـ الفهرست	ابن النديم
٨٣ ـ الكامل في الأدب	المبرد
٨٤ ـ كنز العمال	

الكتاب	المؤلف
٧٥ ـ الكنى والالقاب	الشيخ عباس القمي
٨٦ ـ مجمع البحرين	الطريحي
٨٧ ـ محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية	محمد الخضري
٨٨ ـ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي	السيد أمير علي
٨٩ ـ مؤرخ العراق ابن الفوطي	الشيخ محمد رضا الشبيبي
٩٠ ـ مروج الذهب	المسعودي
٩١ ـ ميزان الاعتدال	الذهبي
٩٢ ـ المستدرك	الحاكم
٩٣ ـ المسند	للامام أحمد
٩٤ ـ معاوية في الميزان	العقاد
٩٥ ـ معجم البلدان	ياقوت الحموي
٩٦ ـ معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامي	المستشرق زامباور (الترجمة العربية)
٩٧ ـ مناقب آل أبي طالب	ابن شهراشوب
٩٨ ـ المقدمة	ابن خلدون
٩٩ ـ المقاتل	لأبي الفرج الاصبهانى
١٠٠ ـ الوزراء والكتاب	الجهشياري
١٠١ ـ النهاية	ابن الأثير
١٠٢ ـ نفح الطيب	المقري
١٠٣ ـ نور الأبصار	الشبلنجي

فهرست المواضيع

الصفحة	الموضوع

الصفحة | الموضوع

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧	٥	عبدالله	عبيدالله
٨	٩	من	ومن
١٢	١١	بين	بني
٥٣	١١	هبير	هبيرة
٦٢	٧	محمد	محمداً
٦٥	١٣	بنسكة	بنكسة
٦٨	٥	يستغنى	يستفتى
١٠٩	١٣	الغتلب	التغلب
١١٦	١	ررد	ورد
١٤٠	١	من سنة	من شهر رمضان سنة

